

قادة الفكر الديني والسياسي

في النجف الأشرف

الدكتور محمد حسين علي الصغير

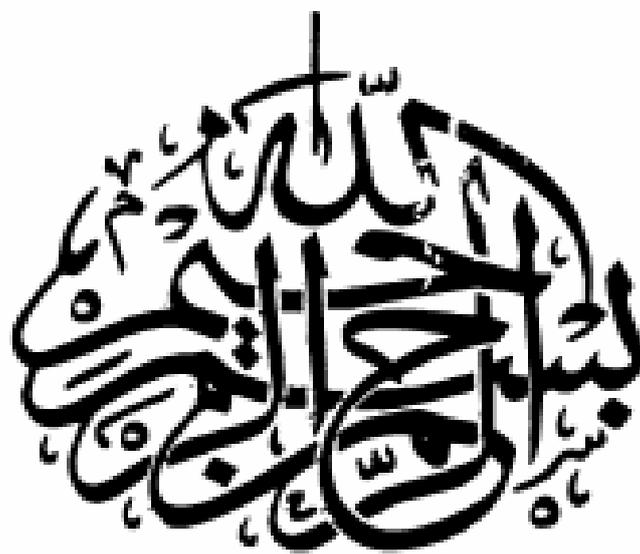
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

بسم الله الرحمن الرحيم



دار سبأ

مؤسسة البلاغ



قادة لفكر الديني والسياسي

في نجف الأشرف

الدكتور محمد حسين عاين الصغير
الأستاذ الأول المتميز في جامعة الكوفة



مؤسسة البلاء

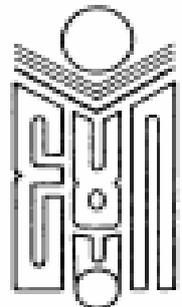
حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

مؤسسة البلاغ

للطباعة والنشر والتوزيع



بنو العبد - مدخل مدرسة حارة حريك الرسمية الثانية - بناية فوعاني - الطابق الأول
ص. ب. ١١ - ٣٩٥٢ بيروت ١١٠٢.٢٢٥٠ - هاتف: (٥/٥١١٩٠٥) - فاكس: ٠١/٥٥٣١١٩ - لبنان

الموقع الإلكتروني : www.albalagh-est.com

E-mail : Albalagh-est@hotmail.com

المقدمة

حينما تنهار الموضوعية وتتحكم العواطف؛ يتحدرُ التاريخُ في هَوِّةٍ تركض به إلى الوراء في وقائع لم تكن، وأحداث لم تقع، وصور مبرجة لا أصل لها، لكنها تمثل واقع الترميم السياسي في أحاديث من خلق السلطان، وعندها يتردد الكاتب الموضوعي في متاهة من الاحباط والألم النفسي، وهو يرى الافتراء مضماراً لصنع المواهب والبطولات في سبل من الهراء في التقويم وتوثيق الرجاء، وتلك صدمة طالما صُكَّ بها جبين الدهر، وعليه أن يتجاوز هذا الاعتداء الصارخ وهو يدوّن بأمانة ذكريات معبرة، ويستكشف رؤية ناطقة في متابعة الأحداث ومشاهدة الحال، بما في ذلك دراسة المناخ العلمي والسياسي والاجتماعي في لهجة صادقة يمكن أن يحوّل عنها النقاد في تحليل مستجدات التاريخ، ذلك باعتبارها مصدراً أصلياً في وثائقية التدوين لمن يريد الإفادة أو الاقتباس، أو تلبية رغبته في الاطلاع والازدياد، والأيدي الأمانة وحدها هي التي تكتب التاريخ ناصعاً بعيداً عن الضبابية والتزوير، وهذا ما تجده في هذه الدراسة شكلاً ومضموناً.

والنحف الأشرف مريض أمير المؤمنين الإمام العظيم علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ومقر المرجعية العليا للمسلمين منذ ألف عام، وحاضرة العلم والأدب منذ تأسيسها حتى اليوم، وقد أحطت خيراً بلمسات نابضة من حياة بعض أعلامها وقادتها وأبطالها الأشاوس، وتابعت في رؤية منهجية مصدرة

العطاء الثمر في حنايا أولئك الرموز، فالتقطتها من منابع الوعي الحضاري المتأصل في التركيب الإنساني، وأدركت ما عليه كوكبة من قادة الفكر الديني والسياسي في النضج والانفتاح حيناً، وفي الراديكالية والثورية حيناً آخر، وما بينهما من حب الخير للآخرين، ولهيئة الأسباب لإسعادهم وتحقيق آمالهم في المواطنة والحياة الحرّة الكريمة، رائداهم الإيثار والتضحية وتبل الهدف في تطوير الحياة، وإزجاء النصح الموجه، وتيسير العلم النافع، وتوفير الإنعاش الاقتصادي ما استطاعوا إلى ذلك كلّه سبيلاً.

وسأحاول الآن - كما وعدت- وفي مستقبل الأيام أن تستوعب دراساتي أكبر عدد ممكن ممن سمعته عنه وكأني أراه من الراحلين، وممن رأيتهم وكأني أقرؤهم، وممن قرأته وكأني ألمسه، وممن أعرفه وكأني أدركه من المعاصرين.

وسأختار ألمع الصفات عنواناً للحديث عن كل رجل، لأكتب عنه وحده، وقد أشركت معه غيره استدراجاً وارتباطاً منهجياً.

وكان نصيب هذه الحلقة من قادة الفكر الديني والسياسي في التحف الأشرف:

- ١- السيد محمد سعيد الجبوري... قائداً.
- ٢- الشيخ محمد جواد البلاغي... مُنظراً.
- ٣- الشيخ محمد الحسين الغروي التاليني... رائداً.
- ٤- الشيخ عبد الكريم الجزائري... مجاهداً.
- ٥- السيد حسين الموسوي الحمّامي... حوزوياً.
- ٦- السيد عبد الله الموسوي الشيرازي... جريئاً.
- ٧- السيد محمد الحسيني الشيرازي... موضوعياً.
- ٨- الشيخ محمد رضا الشيبيني... وطنياً.

وهذه السمات في العنوان هي ألصق الخصائص هؤلاء القادة.

وقد جاء هذا البحث امتداداً لكتابنا (أساطين المرجعية العليا في النحف الأشرف، وقد اشتمل على سيرة حمسة من مراجع الأمة، حاولت بالحديث عنهم استقراء حياتهم، وأثار قيادتهم، والاقتراب من نضالهم بعرض جديد ومنظور مرسل، وهم:

- ١- الشيخ محمد رضا آل ياسين... قديساً.
- ٢- السيد محسن الطباطبائي الحكيم... زعيماً.
- ٣- الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء... داعيةً.
- ٤- السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي... أستاذاً.
- ٥- السيد علي الحسيني السيستاني... مرجعاً.

ولدى صدور الكتاب ما لبث أن نفذ، فزُوِّرتُ طبعة ثانية له في بغداد بحذف العلمين: آل ياسين، وآل كاشف الغطاء... وزُوِّرت طبعة ثالثة في كربلاء بإضافة علمين بدلتهما، لم أكتب عنهما، وما ثبت في الكتاب المزور، وقد صدر باسمي لستُ مسؤولاً عنه، فهو بقلم غيري، ويكفي في معرفة تزويره تغيير عنوانه... وكان العنوان في هذه الطبعة (علماء النحف الأشرف المعاصرين)؟؟؟ ولو أن الكتاب قد زُوِّرت طبعته على ما اشتمل عليه في كُتُبته الأولى لما تملكني الألم والكمد، ولكنه زور مرتين مع التشويه.

ولا يعني ما كتبه في هذه الحلقة اقتصار قادة الفكر عليهم، فهناك آخرون سأتكلم عنهم مستقبلاً بعون الله تعالى.

إن الثبات والاستقامة لهما ثمنٌ يدفع وضرية تستقطع، فقد كابدت من خلال هذا التوجه في الإخلاص لمبادئ النحف الكبري عقبات وصدمات كأن أهولها: الاعتقال حيناً، والتغريب حيناً آخر، والمحاكمة غيرهما، وتعطيل الدور العلمي الذي نهضت به في الجامعة الموقرة، والمجمع العلمي العراقي الذي

رشحت له ثلاث مرات، فرفضت الجهات العليا هذا الترشح، وما اكتفت عناصر القصر الجمهوري بذلك، فتوّجت حقدها الدفين بفصلي من الجامعة تارة، وبالإحالة على التقاعد تارة أخرى.

وقد عانيت كثيراً من الأمراض والأعراض، وقاسيت الفقر والحرمان والاضطهاد طويلاً، ولازمت من الضغط السياسي والإرهاب وتهديد أجهزة الأمن والمخابرات ما يعلم به الله وحده.

ولكنني كنت صابراً مُحْتَسِباً ثابتاً، لم أحزن على شيء، ولم أطمع بشيء مع توافر الإغراءات بالمناصب الزائلة سياسية وعلمية وجامعية، واستعضت عن كل ذلك بالبحث والتحديد والمثابرة، وإعطاء كل ذي حق حقه، وخلق جيل متحفز واع ينهض بمسؤوليته العلمية لدى استخلافه في أروقة الجامعة والدولة.

ومهما يكن من أمر، فإن الكمال متعذر في مثل هذه الدراسة، وأملسي أن يكون عملي خالصاً لوجهه الكريم في قرينة مطلقة لا تداخلها ضمانم أخرى، على أن الضمانم لا تناق القربيات في منظور شرعي، أرجو أن يجعله الله تعالى في الموازين الراجحة عند الحساب.

﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وما توفيتي إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت وإليه أنيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محمد حسين علي الصغير

النجف الأشرف / جامعة الكوفة



السيد محمد سعيد الحبوبي . . قائداً^(١)

في الرابع عشر من جمادى الثانية عام ١٢٦٦هـ - ٢٠/شباط/١٨٤٩م، ولد هذا الكوكب السيار السيد محمد سعيد بن السيد محمود بن السيد قاسم بن السيد كاظم بن حمزة بن مصطفى بن جمال الدين الحبوبي النجفي^(٢). من أكابر علماء النجف الأشرف، وأبرز شعراء القرن الثالث عشر الهجري، وبطل الجهاد ضد الاحتلال الانكليزي للعراق.

النشأة:

نشأ السيد الحبوبي في النجف الأشرف نشأة ترف وثراء، وترعرع في ربوعها بعزة نفس وبسطة حال، تدرّ عليه مزارع أبيه بالقرب من الكوفة والمسبب رزقاً حسناً، وتوفر له حيراً كثيراً^(٣). وبدأ السيد الحبوبي في هذا المناخ الغني مسيرته العلمية المباركة، واشتهر بملكاته الأدبية في وقت مبكر.

وكانت رغبة والده تدفع به نحو العلم، ورغبة خاله الشاعر الشيخ عباس الأعسم تدفع به نحو الشعر، فحقق الرغبتين معاً، ودرس فنون الأدب وعلوم

(١) البحث في الأصل معاضرة عن المُتَرَجِّم له أقيمت في الندوة المتخصصة لذكرى وفاته الثمانينية التي أقامها مركز دراسات الكوفة مع اتحاد أدباء النجف الأشرف وجامعة الكوفة، وقد عُقِدَت الندوة صباح الجمعة ١١/شعبان/ ١٤١٨ = ١٢/١٢/١٩٩٧م في القاعة الكبرى لجامعة الكوفة في النجف الأشرف ولدى تطوير البحث نشرناه هنا.

(٢) ظ: محمد حرز الدين / معارف الرجال ٢/ ١٩١ + مقدمة ديوان الحبوبي / ٢٢.

(٣) ظ: عبدالغفار الحبوبي / مقدمة ديوان الحبوبي / ٢٢.

العربية، وهو في سن الخامسة عشرة من عمره حين رحل إلى نجد حيناً لوالده المتاجر هناك. وكان لهذه السفرة أثرها العقلي في تأصيل كيانه، وبدوية شعره، وعربية تفكيره، وحجازية آدابه.

يقول الأستاذ عبد الغفار الحبوبي:

«رأى الصحراء واسعة، عامرة بالمشاهد من فجاج القوافل، وكثبات الرمال، وعيون الماء، وسيول الأودية، وقطعان الظباء، سائحة أو بارحة، وأسراب الطير، وامتلاً سمعه بحذاء (حادي العيس) في صمت الغلاة العميق، ورعاء الإبل، وأصوات الركب تناديهم، وتنسم النسمات العليلة المعطرة بشذى الشيح والقيصوم والعراء، فأخذ بتلك المشاهد البدوية، فأعطاه من نفسه وإحساسه ما أعطاه، حتى انطبعت آثارها فيهما، فإذا به بدوي العاطفة والخيال، حضري الملامح والسيما»^(١).

وهذا التقرير تعبير دقيق عن واقع السيد الحبوبي في شمائله ومخائله، وتصوير فني لمشاهداته الميدانية، فيه الصدق وفيه الموضوعية المحضة.

الحبوبي شاعراً:

وكانت بيئة النحف الأدبية ضاربة بأطنانها في صحراء النحف بين بادية السماوة، وبادية الشام، وبادية نجد، وفي ظلال هذه البداوة الشاملة، نشأ الشعر النحفي مترعماً، وفي ضوء التلاحق الثقافي بين المهاجرين إليه، وبين القاطنين به أشرق شعاعه المتوهج، وفي أحضان الثقافة العلمية المنيرة اكتسب أصالة وجدة وبلاغة، وفي ملامح هذا الأفق العام تفاعل مثقفو النحف في وحدة الأدب العربي بدويةً وأندلسيةً وعراقيةً، فكان العلماءُ شعراً، والشعراءُ علماء، ومن هنا تأثر الحبوبي بهذا المناخ الخافل، وبدأ قرض الشعر وعمره تسعة عشر عاماً، وبرز فيه بروزاً لامعاً، وتمرس به روحاً من الزمن حتى عدّ من فحول شعراء عصره، بل هو في طليعتهم إن لم نقل أنه أبرزهم على الإطلاق.

(١) عبد الغفار الحبوبي / مقدمة ديوان الحبوبي / ٢٦.

قلنا في بحث سابق:

«وكان الشاعر المرز في هذه الحقبة -أواخر القرن الثالث عشر الهجري- هو السيد محمد سعيد الحيوبي النحفي بما أبدع من شعر سائر، وما قدّم من موشحات امتازت بالجوادة والجدّة والعفة، فقد ابتعدت عن تقليدية القدم، وقاربت المعطيات الجديدة، فيها أصالة التراث لعرب الأندلس، وفيها رواء الحدائث، وهذا شأن كل ما هو أصيل ومبتكر، سيما إذا جمع إلى صدق العاطفة: رهافة الحسّ وعذوبة الموسيقى»^(١).

وكان السيد الحيوبي في شعره يمثل قفزة علاّقة في الإحساس، ومسيرة جديدة في الأفكار والأساليب والموضوعات، حتى عدّه الأستاذ عبد الكريم الدجيلي: رائد الشعر الحديث^(٢).

وقارنه الدكتور محمد مهدي البصير بالشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) -
«لأنهما يتشابهان تشاهماً قوياً، ويتقاربان في شؤون أدبية ومادّية تقارباً عجيباً، فكلاهما شاعر فحل، وكلاهما مترفّع عن التكسّب بالشعر ترفعاً تاماً»^(٣).

ويقول شاعر العرب الأكبر الأستاذ محمد مهدي الجواهري (ت: ١٩٩٧م/
١٤١٨هـ): «والسيد الحيوبي كان اسمه يرجّح المجالس والنوادي، وفي الحقيقة هو صاحب المدرسة الوحيدة التي نشأت عليها»^(٤).

واستمرت رحلة الحيوبي مع الشعر قرابة ربع قرن من الزمان، وامتاز بتحديد فن التوشيح الأندلسي، كما برع وأبدع في الشعر العمودي، وتناول شتى الأغراض والفنون فيهما، لاسيما الغزل والوجدانيات والمديح والثناء. وهو بما مجيد إجادة متميزة، ومتمكن ممكناً عجيباً.

(١) محمد حسين علي الصغير / مقدمة في الشعر النحفي / الذكوات / العدد ١ / ص ٦.

(٢) عبد الكريم الدجيلي / محاضرات عن الشعر العراقي / المقدمة.

(٣) محمد مهدي البصير / نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر / ١٥.

(٤) ظا ديوان الحيوبي / المقدمة / نقلًا عن مجلة الديار اللبنانية / عدد ٢١ / ١٩٣٠م.

نموذج من موشحاته:

وموشحات الحيوي مطوّلة في أغلب مقاطعها، وقد اخترت جزءاً كبيراً من إحدى هذه الموشحات، كما أتيتها وعلّق عليها محقق ديوانه، وهي تعبر عن منهج مدرسته في هذا الفن (الديوان/ ١٥٧-١٦١)^(١).

«هاج برق السعد قُمريّ هنا»

(الرمل)

هاج برق السعد قُمريّ هنا	فتنني هزجاً في هَزَجٍ ^(١)
وسرت باليمن من روض المني	نَسَمَةً هَبَّتْ بِطَيْبِ الأَرَجِ ^(٢)
(١)	
وحمّام البشر غني، وتلا	سَمِ اللّهُوِ بنادي الطربِ ^(٣)
قد رقى بنم بانٍ واعتلى	في مروج (كمروج الذهب) ^(٤)
فهو لا يتفك يُملي للـملا	أعنتت بالحزن عنفا مُغربِ ^(٥)
بغناً ناهيك فيه من غنا	حمرة اللّهُوِ به لم تُمزجِ ^(٦)
أُتري (معيد) ألقى (المدنا)	لحمّام السقط والمنعرجِ ^(٧)

(١) مطائنها: ج. دق/١٧. ع/٣٢.

غرضها: هنا بها أسناده الشيخ موسى شرارة (انظر التعريف به في ملحق الأعلام) بمناسبة زواجه، وصاغها على طريقة موشحة (ابن سهل الأندلسي): (هل دري ظبي الحمي أن قد حمي). ولدينا أصلها بخط الشاعر، وعليه اعتمدنا.

(٢) هاج: ثار، و(هاجه) غيره، كذلك القمري: نوع من الحمّام. الهزج: الفناء.

(٣) اليمن: البركة. الأرج: رائحة الطيب.

(٤) المسير: جمع (السيرة) وهي القصة والتاريخ.

(٥) البان: شجر معروف باعتدال ساقه. مروج الذهب: كتاب في التاريخ للمسعودي.

(٦) أعنتت: سارت سريعاً. العنقاء المغرب: طائر خرافي. و(أعنتت بالحزن عنفا مغرب) كناية عن انعدام الحزن.

(٧) ناهيك به من... حميك، يكفيك.

(٨) معيد: هو معبد بن وهب الذي اشتهر قديماً، بالفناء، المدن: الطرق الفنائية الخمس التي اخترعها (معيد). المسقط: الرمل الكثير. المنعرج: المنعطف.

(٢)

فترى فيها القضا لما ارتدى	وله من لامع الشرق شنوف ^(١)
يرقصُ القطر زفوناً إذ غدا	يضرب الرعد بجنيبه دفوف ^(٢)
وترى الأكمام في قطر الندى	ظهرت في مدة مثل الحروف ^(٣)
وترى فيه الرواسي سفنا	سبحت ماحرة في الحج ^(٤)
وترى الضبَّ يوم المكمننا	ثانياً بُرئته لم يعج ^(٥)

(٣)

وترى منتظم الطل السقيط	فيه بطن الوادين اتشحا ^(٦)
والصبا قد حملت عرف الخليط	ولذا كانت لقلبي أروحا ^(٧)
فصلت هذي، وذياك يخيط	مطرف الزهر فيكسو الأبطحا ^(٨)
إذ حدا الرعد يسوق المزنا	مثقلات كالظعين المدح ^(٩)
ودعا، عند محاني المنحى:	يا ربوع اتشري واتهحي ^(١٠)

(١) الشنوف: جمع الشنف وهو القرط.

(٢) القطر: المطر. الزفون: نوع من الرقص. ويجي دق (زفونا).

(٣) الأكمام: اللال والروابي. ظهرت: يجي دق (زهرت). ويجي ع (أظهرت).

(٤) مغرت (السفينة): جرت تشق الماء. الحج: جمع اللجة وهي معظم الماء.

(٥) الضب: حيوان زاحف معقد الذنب، يؤم: يقصد. البرثن (للمباع والطير) كالأصابع للإنسان - لم يعج: لم يقم.

(٦) الطل: المطر الضميف.

(٧) الصبا: الريح الشرقية. العرف: الرائحة. الخليط: المخالط. ولذا: يجي ع. (فلذا). أروح: منعشة.

(٨) هذي: إشارة إلى الصبا. ذياك: إشارة إلى الطل. المطرف: الرداء. الأبطح: مسبل واسع فيه دقاق الحصى.

(٩) المزنة: السحابة. الظمين: يريد (الظمينة) وهي الهودج وفيه امرأة أم ليس فيه.

(١٠) المحاني: المنطقات.

(٤)

عارض الوسمي كم قد روضا
فكان الماء لما غيضا
والبي أحضر لكن فضضا
ألحمت آسأ، وسدت سوسأ
ثم حاكته تباهي (اليمنأ)

وجه وهد، وكثيب أوعسي^(١)
(قيل: يا أرض البعي) ثم اكسي^(٢)
بالأقاحي، فهو أسنى ملبسي^(٣)
يد أزهار الربيع الأهج^(٤)
هكذا، (صنعاء) أو لا تنسحي^(٥)

(٥)

دولة للزهر ترناح النفوس
أرغمت كرتها أنف (المجوس)
كم ترى نجماً، ولكن الشموس
وترى وشياً يروق الأعينا
والشقيق الغض يصبي الغصنا

في تجليها، وفي أطوارها^(٦)
إذ تجلى الماء في أزهارها^(٧)
ليس يخفيه سنا أنوارها^(٨)
يرقص الأغصان رقص الفنج^(٩)
إذ بدا في غدو المنفرج^(١٠)

(١) العارض: السحاب. الوسمي: مطر الربيع. روض: جعله روضة. الوهدة: المكان المظلم. الأوعس: المكان المرمل.

(٢) فكان: في دق، ع (وكان). غيض: من (غاض) اللازم، وعدي بالتشديد. وغاض الماء بمعنى قل ونضب. (قيل يا أرض البعي) اقتباس من القرآن الكريم.

(٣) الأقاحي: جمع (الأقحوانة) وهو نبت ذو ورق أبيض ووسطه أصفر.

(٤) ألحمت: من (اللحمة) وهي خيوط النسيج العرضية، وعكسها (سدت). الأس: نبت دائم الخضرة ذو زهر أبيض. الموسن: نبت كبير الأزهار.

(٥) صنعاء: يا صنعاء. وقديماً عرفت (صنعاء) بزخارف نسيجها.

(٦) تجليها: تكشفها في زينتها.

(٧) كرتها: عودتها مرة بعد أخرى. المجوس: عبدة النار من أتباع (زرادشت). وقوته

(أرغمت كرتها أنف المجوس) كناية عن سجودهم لها. لأن من عقائد الزرادشتية أن

الماء والهواء والنار والخراب عناصر مقدسة. والبيت يكشف عن ثقافة الشاعر في المعلومات التاريخية العامة.

(٨) النجم: النبات الذي لا يقوم على ساق. يخفيه: في دق (تخفيه). السنا: الضوء.

(٩) الوشي: التقش. الفنج: التدلل.

(٦)

والثريا مثل كَفْ بَضِيَّةٌ
أو كَعْتَقُودٍ بَدَا مِنْ فِضِيَّةِ
وَسَهِيلٌ خَدُّ خَوْدِ غَضِيَّةِ
أو كَقَلْبِ بِالمَلَّاحِ افْتِنَا
بَات يَنْزُو مُسْتَظِيرًا، شَجِنَا
للدجى أومت فلباها الغسق^(١)
قد جلاه الأفق، فالأفق طيق^(٢)
لُتْمَت، فاحمر منها، وحقق^(٣)
فهو خفاق، كثر الوهج^(٤)
إذ أتى الليل بظل سحسج^(٥)

(٧)

وأثنا، بعد صد وتفار
زار ليلاً، فعدا الليل نهار
كلما حطَّ عن الثغر الخمار
فارتجينا غيث أنس هنا
وقرعتنا ثم أبواب الهنا
واصلاً حيلي به، من قطعاً^(٦)
قمرٌ في أفق شمرٍ طلعا
شيم يرق بالثنايا لمعا^(٧)
يرتوي منه أوام المرتجي^(٨)
ففتحنا كل باب مرتج^(٩)

(١) الشقيق: الورد الأحمر. يصيب: يستهوي. وفي دق (يسبي). المنضرج: المحمر.

(٢) الثريا: مجموعة نجوم. الغسق: ظلمة أول الليل.

(٣) جلاه: في دق، ع (جلاها).

(٤) سهيل: نجم محمر خافق. الخود: الشابة.

(٥) بالملاح: في ع (في الملاح). الوهج: حر النار.

(٦) ينزوا: يضطرب. المستظير: الهائج. لقد وقع التووين من (مستظيرا) في (خ). الشجين:

الحزين. السحسج: لا حر فيه ولا برد.

(٧) وأثنا: في دق، ع (وتداني). واصلاً حيلي به: كناية عن اللقاء بعد الصدود.

(٨) الخمار: غطاء تغطي به المرأة رأسها. شيم: مجهول (شام) بمعنى نظر البصر عين

تطر سحابتة. الثنايا: الأسنان الأمامية. لمعا: في دق (طلعا).

(٩) الهتن: التساقط. منه: في دق، ع (فيه). الأوام: شدة العطش.

(١٠) ثم: هناك. مرتج: مطلق. ب/ غير مذكور في دق، ومكانه:

(٨)

وغدا البدر إليه يستشيط
أحجلَ البدر، فذا الطل السقيط
ولئن سَحَّ على وجه البسيط
وهو لو أنصفه كان (دنا)
أم رأى القِرط يؤذُ الأذنا
ورأى الساق بحجل حرج^(١)
عَرَقٌ من وجهه قد رَشحا^(٢)
فبمَنديلِ الدجى قد مَسحا^(٣)
وتدلى) في مكانِ الدَمَلجِ^(٤)
ورأى الساق بحجل حرج^(٥)

(٩)

ونديمي في أوانيه سعي
وقرَّ البذل علينا إذ رعى
طاف بالصغرى والكبرى معا
فهو لي بشرى بإنتاج المني
جابرأ صدعي فيه مذ دنا
ذو بنانِ راقٍ في تطريفه^(٦)
عهده، فأزورُ من تطريفه^(٧)
مُعجِبُ الصنعة في تأليفه^(٨)
إذ سعى نحوي بشكل منتج^(٩)
بصدع الليل بوجه أبلج^(١٠)

(١) استشاط: النهب غضبا.

(٢) السقيط: المتساقط.

(٣) البسيط: البسيطة (الأرض).

(٤) دنا وتدلى: اقتباس من القرآن الكريم. الدمالج: المعضد.

(٥) يؤذ (الأذن) يتقل عليها. حرج: ضيق. يأتي هذا المقطع في (دق) بعد المقطع العاشر، وفي (ع) بعد الحادي عشر.

(٦) النديم: الرفيق في الشراب. ذو: في دق، ع (ذا) على تقديره حالا. لا خيرا لبندا محذوف. البنان: أطراف الأصابع. التطريف: الخضاب بالحناء.

(٧) وفر البذل: سحبا بالسقي. وفي دق، ع (ومسح البذل). أزور: أعرض. التطريف: تقطيع الكيل. يريد الشاعر أن النديم لم ينقص الكأس.

(٨) الصغرى والكبرى: الكأس الصغرى. والكأس الكبير. معجب الصنعة: متقن الصنعة. تأليفه: تشكيل الكأس.

(٩) إنتاج المني: تحقيقها. بشكل منتج: بهيئة سارة تحقق الأمان.

(١٠) الجبر: إصلاح العظم من كسر. الصدع: الكسر. يصدع: يشق. لم يرد هذا البيت في دق بل ورد مكانه (وهو خطأ مطبعي على ما أظن):

وقرعتنا ثم أبواب الهنا ففتحتنا كل باب مورتج

(١٠)

وأباريقَ إذا ما غربدت وأشرقَت أكوْسها بين الرياض^(١)
 بابنة الكرم علينا قد بدت فانتضنا عثما لا عن تراض^(٢)
 زُوِّجت من غير عقدٍ فغدت تنتجُ اللؤلؤ من غير مخاض^(٣)
 فانجلت أقراخُ درٍ بيتنا حضنتها كفُّ ذات الدمليج^(٤)
 أمها من فرع كرم تجتني وأبوها من نطاف الحشرج^(٥)

* * *

(١) وأباريق: في دق، ع (من أباريق).

(٢) انتضنا: كسرنا. وفي دق، ع (فضضنا).

(٣) المخاض: وجع الولادة.

(٤) فانجلت: انكشفت. في دق، ع (ولدت). ذات الدمليج: ذات المعضد (المرأة).

(٥) النطاف: جمع (النطفة) وهي الماء الصالح. الحشرج: الكوز يبرد فيه الماء، أو النقرة

في الجبل يصفو فيها الماء، ب/ غير مذكور في دق. ومكانه:

إذا فدا بحسمو رضابا وجنسى من شايبا شعشعت بسالبع

نماذج من شعره:

واحترتُ للبحث قصيدتين من قصائد السيد الجبوي السائرة، الأولى في الغزل والنسيب والتهنئة، والثانية في الرثاء، وهما يمثلان ذروة الشعر العربي الأصيل في قوة الديباجة، وصدق العاطفة، ورقة الأسلوب، وجمال التعبير، وأثبتهما كما هما وما علق عليهما محقق الديوان.

(١)

«طرزٌ خديك العذاران»^(١)

(السريع)

طرزٌ خديك العذاران	تطريزة الورد بريحان ^(٢)
خداك من ورد، ومن نرجس	عيناك، والقامة من بان ^(٣)
مرائر العشاق شققتها	فاحضرت منك الأحمر القبان
لو كنت في دار (كمصر)، وفي	حي مُدانٍ حي (كنعان) ^(٤)
ما كنت إلا (يوسفاً) يا رشا	أوفقته يا يوسف الثاني [٥]
أغيد كالدمية، أفراطة	قد عُلقت تعليقاً أو ثان ^(٥)
يا من رأى في الأرض بدر السما	أشرق في صورة إنسان
جال فؤادي إن مشى مثلما	في خصره جال الوشاحان
وان وقد شع صباح الدجى	فقلت: قد شع صباحان ^(٦)

(١) مطانها: دق / ١٢٣، ع/ ٣٦.

غرضها:

هنا بها السيد جعفر بن السيد حسين زوين بقران ولده (عبد الحسين)، ويذكر فيها أخاه (علياً) وابن عمه (الهادي).

(٢) العذار: الشعر الثابت في الوجه حديثاً.

(٣) البان: شجر معتدل الساق.

(٤) كنعان: اسم مكان.

(٥) الأغيد: الناعم.

(٦) وافى: أقبل.

طافَ ومن فيه، ومن كفه
 وزهوةُ اللهو استطارت به
 يروح مرتاحاً، وأيدي الصبا
 والبراحُ، في راحته، شعلةٌ
 خففَ طبعي شرها مثلما

كاسان للنادي، ولهران^(١) [١٠]
 نغمة أوتار، والحنان^(٢)
 تُهزّهُ هَزَّةٌ جَذلانِ
 توجع الليل بتيرانِ
 ديبها تُقلّ أجفاني

* * *

يا لائمي، اليوم، في حبه
 هاموا هيامي فيك لو أنهم
 لكن تجليت فأعشيتهم
 لولاك لم أهر لذيذ الكرى
 والله لا أسلوك يوماً، ولا
 روعي في روحك ممزوجة
 حتى كاني، منك، في وحدة
 أصبحت، من حبك، في جنّة
 ومن حصي حصائلها راقني

مهلاً، فما شأنكما شاني [١٥]
 قد عرفوا معناك عرفاني
 بفرط أنوار، وتيران^(٣)
 ولم أهون هجر أوطاني
 أملك لو حاولت سلواني
 وربما تخرج روحاني [٢٠]
 لو صح أن يتحد اثنانِ
 تبهج في حور وولدانِ
 ما راق من در ومرجانِ

* * *

هل شاقك الحمي الذي شاقني
 يشته البان بقاماتهم
 أهواهم، لم أهو إلا هم

حلوا بأعلى رمل (نعمان)^(٤)
 مثل اشتباه البان باليان [٢٥]
 هوى تلاشي فيه جثمان^(٥)

(١) فيه: فمه.

(٢) استطارت به: رفعته.

(٣) تجليت: ظهرت. أعشيتهم: جعلتهم لا يبصرون.

(٤) نعمان: واد يربد به بلدة (الحيرة) حيث يقم (آل زوين).

(٥) الجثمان: الجسم. الشطص.

وأن نأوا كابتدأ أحزاني
 كلا، ولا الجيران جيران^(١)
 (عبد الحسين) الحمد أرضاني
 البيضاء في جبهة (عدنان)^(٢) [٣٠]
 والغر من شيب وشبان^(٣)
 تئبت في هامة (كيوان)^(٤)
 عاقدة أصدق إيمان
 لا مبطناً ريشاً، ولا واني
 والكتب تُستقصى بعنوان^(٥) [٣٥]
 والنور قبل الثمر الداني^(٦)
 للظهور بنعيها الكريمان
 ويحك (بلقيس سليمان)
 أربعة سورة قرآن^(٧)

أفرح أن يبدن أهيل (الحمي)
 لا الدار داري (بعقيق) الحمي
 أغضبي فيهم زمان، وفي
 أبيض في (هاشم) كالغرة
 (لشبة) الحمد و(عمرو) العلي
 فرع عما من أصل جرثومية
 مخايل الحمد به بشرت
 أن سوف يرقى درجات العلي
 من يره يعرف ذرى مجده
 والفجر قبل الشمس مُستقدّم
 زفت إليه حبر مزفوفة
 أهي (زليخا يوسف)؟ لا، ولا
 لا، بل سليل الوحي زفت إلى

تلف غيطاناً بغيطان^(٨) [٤٠]
 في دواها إفعال ظلمان^(٩)

يا راكب الوجناء زيافة
 عنس كئيس القاع جفالة

(١) العقيق: الوادي.

(٢) هاشم: قبيلة.

(٣) شبة الحمد: عبد المطلب بن هاشم. عمرو: أبو سلمى الخزرجية أم عبد المطلب.

(٤) كيوان: زحل.

(٥) النور: الزهر الأبيض.

(٦) سليل الوحي: ابن الوحي، وهو كناية عن نسبة الهاشمي، الأربع: المنازل.

(٧) الوجناء: الناقة الضخمة. الزيافة: المختالة في مشيها. الغيطان: الأرض الواسعة.

(٨) العنس: الناقة القوية. الجفالة: الصلبة. الدو: المفازة. الأفعال: النصور، الهرب.

(٩) الظلمان: جمع (الظلم) وهو ذكر النعامة. وفي دق (كلمان).

تطوي الدياميم بأخفافها
 عرج علي (ثرب) واحبس بها
 مسلماً أعظم تسليمه
 (أحمد) من صلى عليك السما
 وهن في فرحة أبنائه

فيا (علي) القدر، يا حائراً
 السابق الأول أنت الفتي
 تفاوت السن تفاوتتما
 يا (جعفر) الفضل، وجرى الندي
 أتحت، في سبك، كل الوري
 بلي، و(بالهادي) اهتدت للعلي
 يهوي قرى الضيف ولو لم يجد
 فني كفضن البان حتى إذا
 أخف من طبع الصبا طبعه
 لا تك محتجاً علي فضله

رهن العلي في كل ميدان
 و(جعفر) لا حقت الثاني
 وأتما في المجد بيان
 كفاك للوافد بحران^(٢٦) [٥٠]
 جنسين: من إنسي ومن جان
 وللندي مقلبة حران
 ضيفاً لقاسي وحد ولهان^(٢٧)
 صال فمن آساد خفان^(٢٨)
 وحلمه أخشب (تهلان)^(٢٩) [٥٥]
 ما احتاجت الشمس لبرهان

أولئك القوم بحور الندي
 يجلبون للقاصي وللبدان

(١) الدياميم: جمع (الديعومة) وهي المغازة.

(٢) الجعفر: النهر.

(٣) قرى الضيف: [كرامه].

(٤) خفان: مكان تكثر فيه الأسود.

(٥) الأخشب: الجبل العظيم. تهلان: اسم جبل.

رَفَّ الرَّجَا حَوْلَ عَطَايَاهُمْ رَقِيفًا عَشِبَ حَوْلَ غَدْرَانٍ^(١)
 بَنَوْا، وَأَعْلَوْا بَيْتَ أَكْرَوْمَةٍ وَالْكَلَّ مِنْ مُقَلِّ وَمِنْ يَانٍ
 عَذْرًا لَكُمْ إِنْ مَزَايَاكُمْ لَمْ يُحْصَهَا عَصَى بَتِّيَانٍ [٦٠]
 وَالشَّهْبِ مَنْ حَاوَلَ تَعْدَادَهَا حَاوَلَهَا مِنْ غَيْرِ إِمْكَانٍ
 كَمْ مِنْ جَدِيدِ الْعَيْشِ فِي عِزَّةٍ تَدْوُمٌ مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ
 وَأَعْتَقِدُ أَنَّ مَحَقَّ الدِّيْوَانِ قَدْ وَهَمَ فِي بَدَايَةِ الْبَيْتِ الْأَحْمَرِ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ
 الرَّائِعَةِ، فَأَثْبِتَ «كَمْ مِنْ جَدِيدٍ» وَالْأَصْحَحُ لِمُسْتَقَامَةِ الْمَعْنَى وَالسِّيَاقِ «لَكُمْ جَدِيدُ
 الْعَيْشِ.. الخ».

(٢)

نَزَعْتَكَ مِنْ يَدِهَا (قَرِيشٌ) صَقِيلًا^(٢)

(الكامل)

نَزَعْتَكَ مِنْ يَدِهَا (قَرِيشٌ) صَقِيلًا وَطَوْتِكَ فِدَاءً، بِلِ طَوْتِكَ قَبِيلًا^(٣)
 فَجَعِيتُ بِفَقْدِكَ وَاحِدًا، فَكَأَنَّمَا فَجَعِيتُ (بِأَلِ النَّضْرِ) جِيْلًا جِيْلًا^(٤)
 وَتَذَكَّرْتُ، فِي يَوْمِ فَقْدِكَ، فَقَدَهَا (مَضْرًا) فَأَوْصَلْتُ الْعَوِيْلَ عَوِيْلًا^(٥)
 وَغَدَّتْ تَطَوُّفٌ خِلَالَ نَعْمِكَ وَلَهَا وَأَتَيْتُ عَلَيَّ أَعْوَادِهِ تَقْبِيلًا
 بَكَرَ النَّعْمَى لَهَا بَوَاشِجٌ أَصْلُهَا فَتَبَّكَ يَوْمَكَ بِكَرَّةٍ وَأَصِيلًا^(٦) [٥]
 أَكْسَبَتْهَا الْعِزَّ الْكَثِيرَ مَحَامِدًا تَبَقَى، فَعَزَّ بِأَنَّ تَعَيْشَ قَلْبِيلًا

(١) رف النبات: اهتز نضارة.

(٢) مظانها: دق/١٨٢، في (التهضة/٢٤) ٢٥ بيتاً منها وفي (٦٦/٥) ٦ أبيات منها.

غرضها: رثاء السيد جعفر القزويني (انظر ملحق الأعلام).

(٣) الفذ: الفرد. القبيل: الجماعة.

(٤) النضر: أبو قريش.

(٥) مضر: هو ابن نزار، وإليه تنسب قبائل عربية كثيرة.

(٦) بكر النعمى: أتى الناصي باكراً. واشج: جامع أصولها.

صيفت عليك مدامعاً لو لم تكن
 حسرت فكنت الشرد من أذراعها
 يا سيفها، وسنامها! غادرها
 ولأنت مقلها أصاب تصدعا
 لست بك اليطحاء عن أشياخها
 فمقام (إبراهيم) يعلو صارحاً
 حرماً، لحيت البطاح (النبيل)^(١)
 وضحت لظلي لم تجدهُ ظليلاً^(٢)
 ظهرأ أحب، وساعداً مشلولاً^(٣)
 ولأنت صارمها أصاب فلولا [١٠]
 إذ أنت أكرم من نموه سليلاً^(٤)
 حزناً عليك، وحباً (إسماعيلاً)

• • •

مهلاً (أبا موسى) فإنك والعلى
 يا أيها الجبل المنع ركنه
 نكد الإقامة أن تقيم ولم تقم
 ومن الردى أن لا نشاطرك الردى
 ملأت محاسنك البلاد فضيقت
 لوقفت ما بين النوائب والورى
 حتى تحبط عاثراً بك ظفرها
 -ولك السلامة- مزمان رحيلاً^(٥)
 هولاً-لعمرك- أن نراك مهيلاً^(٦)
 فينا، تيل جزيلة وجزيلاً^(٧) [١٥]
 ومن الغليل بأن نبل غليلاً^(٨)
 حتى لشخصك لم يدعن مقيلاً^(٩)
 حصاً تقي الخطب الجليل جليلاً^(١٠)
 إذ لم تجد بك للأتنام سيللاً^(١١)

(١) البطاح: جمع البطحاء وهي مسيل الماء.

(٢) حسرت: كانت بلا درج. المررد: الدرج. ضحت: تعرضت للشمس.

(٣) الظهر الأجب: المقطوع السنام.

(٤) لست: سلت (نسيت).

(٥) أبا موسى: كنية المرثي.

(٦) الهول: المخافة. المهيل: المنهد. ب/ بداية ما في (ع) من القصيدة.

(٧) أن تقيم ولم تقم: في دق (أن تقسيم ولم تقم) وهو غير وارد. تيل: تعطى. ب/ غير مذكور في (ع).

(٨) الغليل: حرقه العطش. نبل الغليل: نروي العطش.

(٩) المقيل: موضع القيلولة (النوم في الظهيرة).

(١٠) تقي: في النهضة (يقي). الخطب الجليل: المصيبة العظيمة.

(١١) ظفرها: ظفر النوائب تجد: الضمير يعود لنوائب في البيت السابق. في ع، والنهضة (يجد).

أردى (أبا موسى) الردى فتكوري
 المنعش الأمال غادر نعشة
 رعليه عولت السورى، وأظنها
 كان (المحرم) محمراً، فأريتنا
 فكأن جسمك جسمه لكنه
 وكان رأسك رأسه لو لم يكن
 وحينك الوضاح مثل حينه
 وحملت أنت مشرفاً أيدي السورى
 إن تنأ عنا راحلاً كرحيله
 ولَفَقْدُ (مهدي) (جعفر) مُورثٍ
 يا شمس، وادرعني عليه أفولاً^(١) [٢٠]
 راجي الجدا لا يعرف التأميلاً^(٢)
 فقدت، بفادح خطيه، التعميلاً
 يا (جعفر) فيه (الحسين) قبيلاً^(٣)
 كان العفير، وكنت أنت غميلاً^(٤)
 عن منكبيه ميمراً، مفصولاً [٢٥]
 بلحاً، وليس كمثلهِ تجديلاً^(٥)
 وثوى بنعشٍ لم يكن محمولاً
 فلبت (سجّاد) تركت (عليلاً)^(٦)
 من (جعفر) في فقد (إسماعيل)^(٧)

يا أيها (المهدي)، يا علم الهدى
 أبقت، حين نعي إليك، مصدقاً
 حوشيت من جلد القساء، وإنما
 أعي التصير من سواك قبيلاً^(٨) [٣٠]
 وغمال أنك خلته تخيلاً
 هدي (النبي) قد آجبتك عليلاً^(٩)

(١) تكورت الشمس: انطفأت. وهذا آخر ما يجي ع من القصيدة.

(٢) الجدا: العطية.

(٣) المحرم: شهر المحرم وفيه تولى المرثي، الحسين: الإمام الحسين الذي قتل في المحرم.

(٤) العفير: المعثر بالتراب.

(٥) بلحاً: إشراقاً. جدله: رماه أرضاً.

(٦) سجّاد: فيها تورية، فالسجاد الحقيقي هو الإمام علي بن الحسين الذي كان (عليلاً)

يوم قتل أبوه في كربلاء، وهذا المعنى غير مقصود. إذ المقصود هو والد المرثي الذي

كان كثير السجود، وكان عليلاً ضعيفاً.

(٧) لفقد: السلام للابتداء، مهدي: والد المرثي، جعفر (الثانية): هو الإمام جعفر

الصادق(ع). إسماعيل: هو أكبر أبناء جعفر الصادق، وقد تولى في حياة أبيه فحزن

عليه حزناً شديداً لأنه كان الثيراً عنده.

(٨) عيل صبره: غلب.

(٩) حوشيت: نزهت، وفي النهضة (حاشاك)، الهدى: السيرة.

أنت الذي ترضى بما يرضى به
أقول: صبراً؟ لا وصبرك، أن لي
بك فتدي لسبيل كل فضيلة
ولمّن وجدت كمن فقدت شماتلاً
إن لم يماثل من ولدت مماثل
تلك الجواهر كلها من معدن
ثقت من ذاك الوشيح ذوابلاً

* * *

يا قاصدَ (الفيحاء) في نفاحة،
عسّ كئيبِ القاع أرسل شاردأ
كوماء ما بين المضاب كهضبة
أنست، إذا أنس الرعاة بشكلها
لم تكنحل عين عمري رديها
وكأفا بين التوائف (أصف)
لا يهتدي (كعب) لبارع وصفها

زيافة، تصل الوجيف ذميلاً^(١) [٤٠]
أو كالظلم مُذعراً، احفياً^(٢)
شاء الإله لنقلها تحويلاً^(٣)
فحلاً يساق (شدقم) و(جديل)^(٤)
إلا وجاوزت النواظر ميلاً
في عرش (بقيس) عمرٌ عحولاً^(٥) [٤٥]
فيما تفنن مقصراً، ومطيلاً^(٦)

(١) المنال، العطاء. اجتدي: طلب الحاجة. التحويل: العون.

(٢) لمن: اللام للابتداء.

(٣) ثقفت: قومت. الوشيح الرماح. الذوابل: الرماح، ويريد بها أبناء المخاطب الأربعة. الفرد: السيف.

(٤) الفيحاء: مدينة الحلة. النفاحة: الناقة التي تخرج لبنها من ضمير حلب الزيافة: المتبخرة الوجيف: السير السريع. الذميل: السير اللين.

(٥) العسّ: القوية، الظلم: ذكر

(٦) كوماء: مرتفعة المنام.

(٧) شدقم، جديل: فحلان من إبل (النعمان بن المنذر).

(٨) التوائف: جمع (التوفة) وهي البرية. أصف: هو (سليمان) الذي جاء بعرش (بقيس).

(٩) كعب: هو كعب بن زهير، الشاعر المخضرم.

انح النياق (لصالح). هو (صالح) من قبل أوتي ناقةً وفصيلاً^(١) واعقل يديها في مراتع معقل المشرف الجفنت في غسق الدحي المهني بالدمست تحسب أنه المهني بالدمست تحسب وجهه المهني بالدمست تحسب خلقه المهني بالدمست تحسب لفظه المهني بالدمست تحسب شخصه إن أطرق استولى الأنام مهابة تسمو لطلعته العيون إذا بدا يتباشرون إذا رأوه، كأنه

من قبل أوتي ناقةً وفصيلاً^(١) للوفد يحسبه الزيل نزيباً^(٢) والقائد الصعب الحرون ذلولاً^(٣) أسدٌ تصدر بالندي الغيلاً^(٤) [٥٠] قمر السماء، وتاجه الإكليلاً روضاً يباكره النسيم عليلاً درأً يفصل نظمه تفصيلاً شخص (الني) وقوله (الزيبال) فإذا تبسم طارحوه القيلاً^(٥) [٥٥] كالسيف أرهفه القيون صقيلاً^(٦) برق سما للمحلقين مخيلاً^(٧)

فإليها جهد المقل وإن تكن ولو استطعت نظمت في أياتها

قصرت سو كان بك المجال طويلاً أي (الكتاب) مرتلاً نزيلاً

(١) صالح (الأولى): هو شقيق المرثي. و(الثانية) هو النبي الذي ذكره الله في القرآن الفصيل: ولد الناقة.

(٢) المراتع: المنازل. المعقل: الملجأ.

(٣) الجفنة: القصعة الكبيرة. و(المشرف الجفنت): المائل الجفنت طعاماً. الصعب: الجمل الذي لا يتقاد.

(٤) احتبس: جلس جامعاً بين ظهره وساقه بعمامة. الدمست: صدر المجلس. الندي: المجلس. الغيل: مكان الأسد.

(٥) طارحوه: ناظروه. جاويوه: القيل: الجواب.

(٦) القيون: الحدادون.

(٧) المحل: الذي أصابه المحل (القحط). المخيل: الذي توسم فيه الخير والمنفعة.

وما أثبتته من شعر الحبوبي أنفأ - موشحات وقصائد - فهو على سبيل النموذج والمثل والمثال، لتستدل بما ذكرت لك على ما لم أذكر، في سَنخِ الشاعرية، وقوة الأسر، وجودة العطاء.

دراسته وأساتيذه:

اتجه السيد الحبوبي بعد إعراضه عن قرص الشعر والإضراب عنه صفحاً، إلى دراسة التشريع الإسلامي في الفقه وأصول الفقه، فنال بهما القدر المعلن، حتى عدّ من المجتهدين الأكابر، وكانت دراسته على مشاهير عصره من المراجع العظام، وأبرزهم:

- ١ - الشيخ محمد حسين الكاظمي (ت ١٣٠٨هـ).
- ٢ - الشيخ رضا الهمداني (ت ١٣٢٢هـ).
- ٣ - الشيخ محمد الشرايبي (ت ١٣٢٢هـ).
- ٤ - السيد مهدي الحكيم (ت ١٣١٢هـ) والد فقيه عصره الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم (ت ١٣٩٠هـ).
- ٥ - الشيخ موسى شرارة العاملي.
- ٦ - الشيخ محمد طه نحف (ت ١٣٢٣هـ).

((ولكنه لم ينقطع لأحد منهم انقطاعه للشيخ محمد طه نحف، أحد كبار الفقهاء يومذاك، فلازمه سنين امتدت من عهود شاعريته حتى وفاة الشيخ المذكور عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، وعلى يد نضج الحبوبي في الفقه، وهو بعد في شبابه، الأمر الذي جعل الشيخ المذكور يشيد به ويعظمه، ويشركه في الحديث والبحث))^(١).

ويبدو أن الحبوبي قد اشتغل بالتدريس فقهاً وأصولاً، ومارس مهماته العلمية فيهما في حياة أستاذه المشار إليه.

(١) عبد الغفار الحبوبي/ ديوان الحبوبي/ المقدمة/ ٢٩ وانظر مصادره.

يقول الحجة المحقق الشيخ آغا بزرك قدس سره:

((فشرع بالتدريس في الفقه والأصول، وكان له في تدريسه أسلوب خاص يميل فيه إلى طريقة شيخنا الأستاذ محمد كاظم الخراساني صاحب (كفاية الأصول) الذي يعتبر محمداً بهذا العلم.

ولما توفي شيخه الشيخ محمد طه نجف كثر الإقبال عليه أكثر من السابق، حيث كان شيخه المذكور يشير إليه، ويشيد بذكره. وهكذا اشتغل بالوظائف الدينية مستمراً على الدرس والتأليف وغير ذلك))^(١).

وما اكتفى السيد الحنوي بمسيرته العلمية هذه على الفقه والأصول فحسب، بل أضاف إليهما ((علم الأخلاق)) وهو علم يبني النفس الإنسانية بناءً روحياً خاصاً، ويهدبها تهذيباً عرفانياً يجعلها على أسمى الصفات.

وقد قرأ الحنوي العلوم الأخلاقية على الأخوند ملا حسين قلي الهمداني^(٢).

وقد أكسبه هذا الدرس الفريد شهرة فائقة بمعارف الأخلاق، حتى عاد فضرب المثل في التواضع والرقّة والسحبة.

يقول المرحوم الأستاذ الشيخ علي الشرقي (ت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م):

((كان الحنوي مثلاً أعلى للأخلاق، شيخٌ تحسبه من الطراوة والطلاوة في ميعة الشباب، شيخوخة وقورة، وشباب طاهر لمّاع بالفضيلة، عذب الروح، مهيب الطلعة، الحشمة في مداعباته، والحكمة باسمه على شفّته، الأدب في ندرته، وصوله الحق في حخته، فصيحٌ صريحٌ، خشوعٌ للحق، بعيد عن الحشو))^(٣).

(١) آغا بزرك الطهراني / طبقات أعلام الشيعة ج ١ / ٢ / ٢١٨.

(٢) محمد حرز الدين / معارف الرجال ٢ / ٢٩٢.

(٣) علي الشرقي / الصلابة في المبدأ / بحث / مجلة الاعتدال النجفية / العدد ٧ / السنة الثالثة.

ودوى صبت الحبوبي في الآفاق مجتهداً مجدداً، واشتهر أخلاقياً متميّزاً، وعرف عالماً عاملاً يترع إلى الإصلاح، ويدعو إلى التجديد والصلاح، وكان له زملاء في الدراسة لهم أثرهم الفاعل في الأمم والشعوب، وكان أبرزهم السيد جمال الدين الأفغاني الداعية الإسلامي المعروف الذي ((مَكَتَ في النحف أربع سنين يستقي فيها العلوم))^(١).

وتوثقت الصلة بين الرجلين كأفضل ما يكون حتى بعد خروج الأفغاني من النحف، وتطوافه في البلاد الإسلامية^(٢).

فقد زار الأفغاني النحف الأشرف متكرراً عام ١٣٠٩هـ / ١٩٨١م.

«واجتمع بالسيد محمد سعيد الحبوبي في الصحن الشريف، في الغرفة التي تقع فوق باب القبلة. وقد طال اجتماعهما من صلاة العشاء حتى مطلع الفجر»^(٣).

ولم يكن هذا الاجتماع عفويّاً، ولا إطالة مدته اعتباطية، بل كان نتيجة إحساس مرير بالواقع العربي والإسلامي، وقد أذكى كل منهما في أخيه حمرة النضال الوطني فكان منهما ما كان.

الحبوبي والإحساس الوطني:

كانت النحف الأشرف في أواخر العهد العثماني قد رفضت حكم السلاطين وتسلط الظالمين، وحاربت خطل الآراء وزلل الأهواء، وليس ذلك بالأمر الجديد، فالنحف صرح حضاري من المخزون الثقافي المتجدد، ومنع من منابع الفكر الإسلامي المتطور، وهي بعد مقرّ المرجعية الدينية العليا للإمامية في العالم، ومريض العلم التراثي الرائد، ومهد الشعر العربي السّيار، وفي ضوء هذا المنظور الحقيقي للنحف تفاعل السيد الحبوبي في أفكاره وآرائه وأحاسيسه.

(١) قدرتي قلنجي / جمال الدين الأفغاني / ٢٤.

(٢) ط: عبد الغفار الحبوبي / مقدمة ديوان الحبوبي / ٤١.

(٣) علي الوردي / لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ٢٩٧/٤.

فالنحف تحمل لواء النضال السياسي بيد، ولواء العلم المهادف بيد أخرى من خلال العلماء الأعلام، وأئمة الدين، وقادة الفكر، والشباب اليقظ المتحفّز، فهي تريد للعراق حياة العزّ والاستقلال، وتريد للعراقيين كافة مناخ العدل والاستقرار، تفود المسلمين بالفتاوى الصارخة ضد المستعمرين، وتلهب المشاعر بالقصائد السائرة بركاب الأحرار، رجائها في إعداد واستعداد لمجاهة الظروف الطارئة، وشبابها ينتظم في كتائب الدفاع والثبات، حتى أدرك الاستعمار الغربي خطر هذا البند عمى مصالحه وقواعده الاستراتيجية، فسلط عليه الفقر والحرمان، وكابد الشعب الجوع والمرض، وعملت النحف بالقسوة والسطوة والانتقام إلى يومك هذا.

يقول الأستاذ الشيخ علي الشرقي رحمه الله:

((لقد خاضت النحف اعتباراً من ١٩٠٨م معارك سياسية وحرية.. نضال وصيال.. انتفاضة تعقبها انتفاضة، وكانت في النحف كتائب للأحرار تريد الحركة الإصلاحية والتجديد، وجماعات أخرى تريد الركود ولا تعرف التطور، وأخيراً انتصر دعاة الإصلاح، وكان للحركات السياسية والانقلابات في الأستانة وطهران تأثير على النحف لما هناك من الروابط المتينة، وقد كانت الفتوى الصادرة من النحف تقيم وتقعدها تين العاصمة، وكان الشعبون من الساسة يستمدون العون من فقهاء النحف، ولشدّ ما انتفضت وناضلت هذه المدينة المقدسة في تأييد النظام الدستوري، وهزيمة الحكم الفردي، وامتد الصراع إلى مقارعة الاحتلال الانكليزي))^(١).

وكان قادة الإصلاح الديني ورجال الحكم الدستوري، ودعاة الحرية والديمقراطية في النحف الأشرف يستمدون الزعم الثوري من المرجع الأعلى الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني (ج ١٣٢٩هـ) بدعمه في ذلك كل من

(١) علي الشرقي / الأحلام / ١٥٧.

الشيخ عبد الله المازندراني والميرزا الشيخ محمد حسين اليائسي الغروي (ت ١٣٥٥هـ) ومن ورائهم الجماهير الحاضدة والشباب المتحمس. وكان هذا الشعور الوطني مقترناً بالحمية الإسلامية والمشاعر الدينية، ومرتبطة بعوامل التذمر والاحتجاج على سياسة التحويل والتشريد والجهل والمرض، فعمل كل ذلك على إذكاء روح النضال، وانطلاق فلسفة التمرد بين آلاف الناس. والنحف الأشرف - كما هي اليوم - تبرع دست القيادة الدينية للمسلمين، وهي ليست ملكاً لطائفة، ولا حكراً على فرقة، ولا مقتصرة على مذهب، بل هي لكل الإسلام والمسلمين، يثرها ما يثرهم، ويهتها ما يهتهم، وهي بعد العين الساهرة على حفظهم، واليد المضمدة لجراحهم، والقوة الضاربة لأعدائهم. والدفاع عن بيضة الإسلام وكيان البلاد من صميم المهّمات المؤصلة في الكيان القيادي للنحف الأشرف ((فقي أوائل تشرين الثاني عام ١٩١٤م نزل الانكليز الفاو، ونشروا علم الاحتلال بياناً يبيد أسفهم على الاضطراب لإعلانهم الحرب على الحكومة العثمانية، يريدون بذلك الإيهام والتدليس على العامة، والحقيقة أن نزولهم ما كان إلاّ اهتبالاً لفرصة الحرب العامة... وجاء إعلان الجهاد على أولئك المعتدين، فكسر الضحيج في النحف، وتبادل الزعماء الرأي، إلاّ السيد الحبيبي الذي كان في صمت وتفكير... وإذا بالحبيبي يكسر الصمت زائراً في الأجمة، متفضلاً من العرين، لقد طرح القلم وتناول السيف، تاركاً حلقة الدرس وندوة الأدب، متقدماً صفوف المحاربين، طافحاً في الرعب الأول. فكان القلم للنحف، ومن بعده تكاثرت الأعلام النحفية التي نشرت للدفاع عن العراق بميدانين، أحدهما على حدود الأهواز، والآخر وهو المهّم. ميدان الحبيبي على أبواب البادية تحت أثلاث المرجسية حيث مضارب بني غزوان، وحيث هبطت بنو شيان))^(١).

(١) علي الشوهي / الأعلام / ٩٧..

الحيوبي في جهاد الانكليز:

وفي السادس عشر من محرم الحرام عام ١٣٢٣هـ الموافق ١٦/تشرين الثاني/ ١٩١٤م تحرك السيد الحيوبي للدفاع عن ثغور الإسلام، واتجه بموكبه نحو الحرم الحيدري المقدس، يستمد من صاحبه الحزم والعزم، خالفاً عباءته، مرتدياً جيته، حاملاً سيفه؛ بين ضجيج الجماهير وزعزعة النساء ودعوات المبتهلين، وبعد أداء مراسم زيارة أمير المؤمنين (عليه السلام)، انجمت والمجاهدون بالعربات نحو مسجد الكوفة فوصله وصلى فيه ركعتين، ودعا الله عزّ وجل، وتوجه نحو الجسر، وهو شريعة شاطئ الفرات اب الكوفة، حيث أعدت السفن الشراعية لنقل المجاهدين صوب الناصرية، وكان في توديعه العلماء الأعلام ومراجع الأمة، ومن جملتهم الآية الكرى الشيخ باقر القاموسي البغدادي (ت ١٣٥٢هـ) الذي التفت إلى المودعين والمجاهدين قائلاً: ((هذا السيد لم يُقدر حق قدره)) وكان السيد أحمد السيد ياسين السعيري أحد المودعين لموكب السيد الحيوبي، ثم التحق بالمجاهدين فيما بعد، وحين العودة إلى النجف، وكان قد نظر بعين البصيرة الناقد فشهد من جلائل أعمال السيد ودقته، وروعة إدارته العليا لشؤون الدفاع عن الإسلام، فهو بنفسه يسوي صفوف الصلاة جماعة، وهو يعاني خشوبة العيش بعد اللين، وخشونة المركب بعد الأرائك، ومضايقة السواد بعد المتعلمين، ويقاسي صفوبة التوفيق بين الآراء عند المنازعات العشائرية، ويتولى رعاية متطلبات المجاهدين في الأرزاق والعتاد والسلاح، فهو بين فكر عامل، وشغل شاغل، ولسان قائل. أقول: حينما عاد بعد الجهاد، زار الشيخ باقر القاموسي وقال له: لسنا وحدنا لا نعرف قدر السيد، بل أنتم معنا لا تعرفون قدر السيد، وأخذ في تعداد مآثره مشاهدة^(١).

والنجف الأشرف لا تنسى ذلك اليوم المشهود الذي اجتمع فيه عشرات الألوف من الناس ليستمعوا إلى إعلان السيد الحيوبي عن عزمه على الثورة

(١) حدثني بفكرة هذا الحديث العلامة الشيخ صادق القاموسي عن أبيه قدس سره.

لمقاومة جيوش الاحتلال، وللوقوف أمامها وجهاً لوجه، وقد استجاب إلى نداءه هذا كثير من رجالات الأمة البارزين من علماء وزعماء وأحرار مخلصين، وانضموا إليه في ثورته المقدسة^(١).

هذه حقائق لا سبيل إلى إنكارها، ولا مندوحة من دولها. يقول العلامة

الكبير الشيخ آغا بزرك:

((ولما دخل الانكليز البصرة، وأعلنت الحرب العامة، واشترك بها الأتراك ونادوا بالتغير العام، أسهم في ذلك العراقيون، ولخص معظم علماء الشيعة للجهاد، وأفتوا بوجوبه والدفاع عن بلاد الإسلام، ومحاربة الانكليز، وهاجت عشائر العراق هيجاناً غريباً، ولم يكفر المجتهدون بذلك بل غاضوا المعارك بأنفسهم، وهم: شيخ الشريعة الأصفهاني، والسيد علي الداماد والمترجم له (السيد الحبوبي) وغيرهم الكثر))^(٢).

((وهناك فريق من العلماء منهم من المشاركة بأنفسهم عجزهم وهرمهم، وتوقف أعمال الشيعة عليهم، وهؤلاء بعثوا أولادهم نيابة عنهم، منهم شيخنا الميرزا محمد تقي الشيرازي (قائد ثورة العشرين) فقد بعث ولده الشيخ محمد رضا، وكذلك السيد محمد كاظم اليزدي فقد بعث ولده السيد محمد، وغيرهما كذلك، وقد أبلى الجميع بلاءً حسناً، جزاهم الله خير الجزاء.

وكان المترجم له (السيد الحبوبي) من أشدهم اهتماماً، وأكثرهم حماساً، فقد قاد جيشاً جراراً، وعسكر به في الشعبية، وقد بلغ عدده تسعين ألف مجاهد، على ما سمعته في تلك الأيام))^(٣).

(١) ط: جريدة كل شيء البغدادية/ العدد ٨٨ / السنة الثانية/ عن مقدمة الديوان / ٤٥.

(٢) من هؤلاء الكثرين: الشيخ مهدي الخالصي الكبير وولده الشيخ محمد، والسيد محمد نجل السيد كاظم اليزدي، والشيخ أحمد نجل الشيخ محمد كاظم الأخوند، والشيخ عبدالرضا الشيخ راضي، والشيخ جعفر الشيخ راضي، والشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، والسيد أبو القاسم الكاشاني، والسيد عيسى كمال الدين، والشيخ عبد الكريم الجزائري والسيد عبد الرزاق الحلو وسواهم.

(٣) آغا بزرك/ طبقات اعلام الشيعة/ نقباء البشر/ القسم الثاني/ ١/ ٨١٨.

وهذا يعني أن السيد الحيوبي كان للعراقيين كافة، ولم يكن متوقعاً في زاوية من زوايا النجف، فإن من يستحيب له هذا العدد الضخم من المجاهدين في قبال الانكليز في تلك الظروف الصعبة، ينبغي أن يكون قائداً جماعياً تلتف حول رايته مشاعر العراقيين من دون تمييز، وهكذا شأن النجف الأشرف وقد أيد هذه الحقائق الشيخ محمد حرز الدين زميل السيد الحيوبي فقال:

((وكان المترجم له من أعيان المجاهدين الذين وقفوا قيالة الانكليز أعداء الإسلام والإنسانية الذين احتلوا البصرة في سادس محرم سنة ١٢٢٣هـ بالمرء والخذاع والرشى لبعض قواد الجيش التركي والرؤساء. ألا شأهت تلك الوجوه ذلاً وصغاراً!! فكانت جمهرة من العلماء أيضاً حاملين السلاح إلى جنب المجاهدين في الشعبية وضواحي البصرة))^(١).

وحيثما قاد السيد الحيوبي حملته هذه للجهاد، أبرق له العلامة الشهير السيد محمد القزويني من الحلة بهذين البيتين:

نحن بني العرب ليوث الوغى دين الهدى فينا قوي عزيز
لا بد أن نرحف في جحفل نيد فيه جحفل الانكليز^(٢)

ولما قدم المشير محمد فاضل باشا الداغستاني إلى النجف يلتمس من العلماء المشاركة في جهاد الانكليز، كان المرحوم الحاج عبد الرزاق شمسة رئيس بلدية النجف، يقوم بدور الوسيط بين العلماء والمشير، ويقرب وجهات النظر في الموضوع؛ خرج للجهاد الشيخ جواد الجواهري والسيد محمد علي بحر العلوم وبرفتها الحاج عيد الرزاق شمسه، والتحقوا بالمجاهدين، ولما بلغ ذلك والي بغداد، طلب إليهم العودة إلى النجف لحماية مؤخرة المجاهدين، وحفظ الاتصال بالمركز في بغداد، فعادوا إلى النجف الأشرف^(٣).

(١) محمد حرز الدين / معارف الرجال ٢/ ٢٩٢.

(٢) يوسف كركوش / تاريخ الحلة / القسم الثاني / ١٨٨ وانظر مقدمة الديوان / ٤٥.

(٣) طه علي الخاقاني / شعراء القوي ٩/ ٢٩٥.

وكان السيد الحبوبي قد أبحر من شط الكوفة بسفينته الشراعية متجهاً نحو السماوة، وكان كلما نزل بمكان تحول بين عشائره داعياً الناس للجهاد ومحاربة الغزاة.

وقد ((اتخذ له معاونين من الشباب منهم باقر الشبيبي الذي كان موضع إعجاب شيوخ العشائر لثقافته ولباقته))^(١).

واستجاب له زعماء العشائر في الفرات وأتباعهم لاسيما في المشخاب، فقد اتصل بالسيد علوان الياسري والسيد نور الياسري والشيخ عبد الواحد الحاج سكر، وميدر آل فرعون وسواهم من الزعماء.

ويبدو أن السيد الحبوبي قد عانى كثيراً في إقناع رؤساء العشائر وأتباعهم بالمشاركة بالجهاد، نظراً لاضطهادهم الكبير من قبل الأتراك الذين اتسموا بالغطرسة والاستعلاء، كما عرف حكمهم بالظلم والظغيان والاستبداد المريع، ولكن المصلحة الإسلامية والوطنية كانت فوق هذه الاعتبارات المعوقلة عن الانخراط في سلك المجاهدين.

وكان الأستاذ الشيخ محمد علي اليعقوبي يقضي شهري محرم وصفر في السماوة مرشداً منبرياً، وخطيباً حسيباً، فزوده السيد الحبوبي بكتاب كريم، يأمره فيه بتحريض عشائر الرميثة وما والاها على الانضمام إلى صفوف المجاهدين، فتم له ما أراد^(٢).

وهكذا تكامل الجمع الفرائي، فاتجه بجم الحبوبي نحو ناصرية المتفق، فوصلها في ((منتصف كانون الثاني/ ١٩١٥م السادس من ربيع الأول ١٣٣٣هـ))^(٣).

(١) عبد الشهيد الياسري / البطولة في ثورة العشرين / ٧٢.

(٢) ظ: محمد علي اليعقوبي / البابلديات / ٤ / ٢٢١.

(٣) ظ: علي الوردي / لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث / ٤ / ١٢٩.

وبقي السيد الحبيوي مرابطاً في الناصرية، ردحاً من الزمن يهدئ الفتن، ويوحد الكلمة، ويجمع الجيوش، ويعتد العدة، ويوجه المجاهدين، ويرسل المبعوثين إلى الأطراف للالتحاق بالمجاهدين.

يقول الحاج حسين الشعر ياف أحد مرافقي السيد:

((وقد أرسل السيد الحبيوي يستفزهم للجهاد، وكان في جملتهم المرحومان الشيخ علي الشرقي والشيخ محمد باقر الشيبلي، وهما يحملان كتب الدعوة والفتاوى في الحث على الجهاد، فاستحابت عموم القبائل والأهالي من حدود الحلي إلى الناصرية، وأخذت أفواج الجيش ومعداته تترى، والذخائر الحربية ترد في السفن والبواخر من الكوت إلى الشطرة والناصرية))^(١).

ولا أعتقد أن أسرة نجفية، أو قبيلة فراتية، أو عشيرة عربية، لم تمثل بفرد أو أفراد في حملة الدفاع التي قادها الحبيوي.

وبتلخص السبب في هذه الاستجابة إلى عاملين مهمين:

- ١ - عمق الوعي الديني والسياسي والوطني في النفوس.
- ٢ - كون السيد الحبيوي زعيماً شعبياً تلقى حوله الأطراف العراقية، وتنصاع لأوامره الجماهير، ويعتز به الجميع.

وقد عرض سيدي الوالد الشيخ علي الصغير للملحظ من صفاته التي أثر بها تأثيراً فاعلاً على الشعب المسلم، فلقى دعوته للجهاد:

((لقد حدثني والدي وغيره ممن أدركوه وتلمذوا عليه أن السيد الحبيوي له سيرة قل أن يتصف بها غيره من سائر الناس، إنه متواضع من غير ضعة، يتحلّى بالأخلاق الكريمة الفاضلة، يطبق الدين كما يريد الله وأمر به نبيه صلى الله عليه وآله، سائراً عليه كما سار أجداده الطاهرون، فهو مترف اللباس وخشن في ذات الله بالوقت نفسه، وكان يهب ما في يده، فإن وهب فمن ملكه، وإن أعطى فمن ثروته الخاصة))^(٢).

(١) حسين الشعر ياف / القائد المجاهد السيد محمد سعيد الحبيوي ((بحث)).

(٢) علي الصغير / السيد الحبيوي في أدوار حياته / بحث في ذكرى وفاته الخمسين.

وهكذا كان السيد الحبوبي في جملة خصائصه متواضعاً يمتلك قلوب الناس، وكرماً لا يخل على الآخرين بشيء، ومطاعاً لأبعضى له أمر، وكان أياً تمام الإباء، فهو في جهاده، وقد شحّت أموال المجاهدين، وكانت القيادة التركية ترغب بمساعدتهم ((فقدّمت الحكومة التركية خمسة آلاف ليرة ذهبية كمساعدة له على مواصلة جهاده))^(١).

ولكن السيد الحبوبي أبى قائلاً: ((إنى مكلف بالتضحية في مالي ونفسي، فإذا نفذ المال بقيت نوبة النفس... اعتمروني جندياً من الجند، آكل مما يأكلون، وأشرب مما يشربون، وجهاد النفس أفضل. لا، لأقبل درهماً واحداً، وقائد الجيش أعرف بمواقع الصرف، ولا أسمح لكل أحد أن يفاتحنى في هذا الشأن))^(٢).

ولم يكن الحبوبي مستبدّاً برأيه، بل جمع حوله المستشارين من عليّة القوم من ذوي الرأي والخبرة والورع والتجربة، وكان في طليعتهم: السيد محسن الحكيم أمين مال المجاهدين، الشيخ عبد الكريم الجزائري، السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني، والشيخ جعفر الشيخ عبد الحسن الشيخ راضي، والشيخ محمد رضا الشبيبي، والشيخ باقر الشبيبي، والسيد أبو القاسم الكاشاني، والشيخ باقر حيدر، والسيد سعيد كمال الدين، والشيخ رحوم الظالمي، والشيخ حسين الحلبي، والشيخ عبد الحسين مطر، والشيخ حسين الصغير، والحاج حسين الشرباف، والحاج عبود شكر، وأضراهم ممن لا أستطيع إحصائهم^(٣).

وقد خصص لكل منهم واجباً محدداً في الخطابة والمراسلة والتحرير والإعداد، وإتومات شؤون المجاهدين، وعموم الجيش المقاتل.

(١) علي الخاقاني / شعراء الفري ١٥٠/٩.

(٢) علي الشرقي / الصلابة في المبدأ / ((بحث)).

(٣) ظ: عبدالغفار الحبوبي / مقدمة الديوان / ٤٨ + علي الخاقاني / شعراء الفري ٦٩/١٠ وسواهما.

السيد الحبوبي في جبهة القتال:

ولما تكاملت الجيوش المقاتلة في نظر السيد الحبوبي أزمع مغادرة الناصرية إلى ساحة الحرب. يقول شيخنا الوالد رحمه الله ((حتى إذا تم الجمع زحف سيدنا المجاهد بجيشه العظيم، المؤمن بربه، الذاب عن حمى دينه، معتقداً أن جيشه إن ظفر فثبو خلق كريم، وإن انكسر فإلى مثنوى النعيم، تحفّه الصلوات وتعلوه البركات))^(١).

فاتجه الحبوبي والمجاهدون شطر الشعبية عن طريق بحيرة الحمار، فوصلها في ١٣ / ربيع الأول / ١٣٣٣هـ - ٢٢ / كانون الثاني / ١٩١٥م، وضربوا خيامهم في موضع يسمى النخيلة^(٢).

ويسلط الحاج حسين الشمرى الضوء على الجيش المجاهد في مواقعه ومواطنه، ويصف الموقف، وقيادة السيد الحبوبي قائلاً:

((أما في النخيلة فكان معسكر المجاهدين واسعاً جداً يشغل عشرات من الأميال من الأرض، تجتمع فيها قبائل الفرات من الحلة حتى القرنة، وسكان الفرات من الحلي إلى حدود الناصرية، وقسم من فرسان الأكراد من لوائي السليمانية وكر كوك، ماعدا الجيش النظامي، وقد وقعت عدة مناوشات بين المجاهدين والانكليز، ففي كل فترة تتوجه تلك الجمع من عشائر المجاهدين إلى مضارب السيد الحبوبي رحمه الله، فيقف بباب فسطاطه معتمداً على سيفه، وتمرّ تلك الحشود من الفرسان تستعرض أمامه، فيترجل رؤساؤها للسلام عليه بعد تقبيل يده، والاستئذان بالتوجه إلى حطة الحرب أو الغزو، فيأذن لهم. وفي الحقيقة إنه كان منظراً عظيماً فيه روعة وهيبة، يمثل للناظر كأن أحد أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وهو يقود تلك الجيوش))^(٣).

(١) علي الصفيير / السيد الحبوبي في أدوار حياته / ((بحث)).

(٢) ط: عبدالشهيد الياسري / البطولة في ثورة العشرين / ٧٤.

(٣) حسين الشمرى / القائد المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي / ((بحث)).

وخاض المجاهدون معارك دامية في اتجاهات متعددة، كَبَدُوا فيها الانكليز خسائر فادحة، إلا أن القوى لم تكن متكافئة، فالانكليز هم معداتهم الضخمة المتطورة، وأغلب سلاح المجاهدين كان بدائياً، وكانوا يقاثلون بقوة الإيمان أكثر من قتالهم بالسلاح. وكان قائد الجيش العثماني ((سليمان عسكري بك)) جريماً ومحمولاً في محفّته، وكانت عظمته هجومية: يهجم فيها الجيش التركي من القلب، ويهجم المجاهدون من الجناحين. وفي الصباح الباكر من يوم الاثنين ٢٧ / جمادى الأولى / ١٣٢٣ هـ = ١٢ / نيسان / ١٩١٥ م بدأ الهجوم العام على المواقع الانكليزية بعنفٍ وشدة من ثلاثة اتجاهات، إلا أن المدفعية البريطانية المنفوقة أسكتت مدافع الأتراك بعد خمس عشرة دقيقة من بدء الهجوم. وفي صباح الثلاثاء شرع البريطانيون بمهاجمة الأتراك والمجاهدين حتى التقوا وجهاً لوجه، فقاتلوهم بالسلاح الأبيض، وأخفق معاون القائد التركي (علي بك أورانق) في الدفاع عن مواقعه، فسَلَمَهَا للانكليز، وقرر (سليمان عسكري) الانسحاب.

وفي اليوم الثالث للقتال ١٤ / نيسان / ١٩١٥ م كانت معنوية الجيش التركي منهارة، وكانت حالة المجاهدين المادية والمعنوية سيئة غلب عليها الإعياء والجوع والعطش، وانسحب الجميع نحو الرجسية^(١).

وعندها انتحر القائد سليمان عسكري بك بما سمعته من الشيخ محمد رضا الشبيبي شفاهاً، وما رواه عنه الحاج حسين الشعرى قائلًا:
 ((وقد أحرمني المرحوم الشيخ الشبيبي الذي كان بصحبة (سليمان عسكري) يومئذ، قال:

بينما كنا نسير مع عسكري بك، وهو في عربته، إذ جاء أحر الضباط وأبلغه أن (الألاي علي بك) سَلَمَ للعدو، فارتبك عسكري بك، وسحب

(١) ظ: عبدالغفار الحبيوي / مقدمة ديوان الحبيوي / ٥٦ وانظر مصادر.

الأحرام الذي على رجليه، وغطى به رأسه، ومن تحته سحب المسدس دون أن نعلم، وصوبه على رأسه، وأطلق منه طلقة أصابته برأسه، وأن آتة فمات^(١).

ولدى انتحار القائد العام، تضعض الجيش والمجاهدون، فكانت الهزيمة أو كان الانسحاب، فهما لفظان لحقيقة واحدة، تعني تخلي المقاتلين عن مواقعهم.

وقد تحدث الشيخ الشبيبي رحمه الله تعالى، حديثاً معمقاً عن قيادة الجيش التركي وهزيمة الناس في مقدمة قصيدته الغراء ((يوم الشعبية)) فقال، وهو الشاهد لها: ((قام هذا الجيش في منتصف جمادى الأولى / ١٣٣٣هـ — — — ١٩١٥م من الناصرية إلى المعسكر العام في ((النخيلة)) مشياً على الأقدام، وبعد يومين أو ثلاثة أيام من وصولهم، زحفوا بإيعاز من القائد العام ((سليمان عسكري)) هم والعرب والمجاهدون على ((الشعبية)) وهاجموا الإنكليز، وهم أمنع من عقاب الجوع، يوم الاثنين في ٢٧ من الشهر المذكور هجوماً شديداً دام يومين من غير أن يعود عليه بطائل، إلى أن ارتدوا فاشلين، فاغتنم الإنكليز من القوم انقطاع الطرق والمواصلات بهم، وغلب الإعياء والتعب عليهم، وسوء أثر العطش والجوع فيهم، فأتبعوهم وناجزوهم لليلتين بقينا من جمادى الأولى سنة ١٣٣٣هـ أو صباح الأربعاء ٢٩ منه، مناجزة شديدة هزم في آخرها العثمانيون، وترك نصف ذلك الجيش بين قتيل وجريح وأسير ووقيد، وانتحس ((سليمان عسكري)) قائدهم العام^(٢).

وما كان للسيد الحبوبي في جهاده الإنكليز أن يحقق نصراً فورياً أمام تلك الجيوش المدربة، والقوات العسكرية الرتية بكل آلاتها الحربية وأجهزتها الحديثة، ولكنه دون شك أحرز انتصاراً مستقبلياً حين أذكى روح التضال، وفجر بركان الثورة، وأيقظ الجماهير من سباتها العميق. فقد أعلنت ثورة التحفيين

(١) حسين الشعرياف / القائد المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي / ((بحث)).

(٢) محمد رضا الشبيبي / ديوان الشبيبي / ٤٧-٤٨.

على العثمانيين، وانتهت بطردهم من النجف بعد مرور شهر على واقعة الشعبية، وذلك في ٨ / رجب / ١٣٣٣هـ / ١٩١٥م وتسلم النجفيون الحكم في البلدة، فحكموها حكماً ذاتياً.

وقامت ثورة النجف على الانكليز التي افتتحت بقتل الكابتن ((مارشال)) حاكم النجف البريطاني صباح الثلاثاء ٦ / جمادى الثانية / ١٣٣٥هـ - ١٩ / مارس / ١٩١٨م. وانتهت الثورة العراقية الكبرى في ٣٠ / حزيران / ١٩٢٠م التي مهدت لاستقلال العراق السوري فيما بعد.

وبذلك تكون نهضة الحوي في الدفاع عن حمى الإسلام البداية الثورية التي قادت ركب التحرر، واشنت مكافحة الاستعمار.

كان المهم لدى السيد الحوي أن يناهض الانكليز بكل ما يستطيع، وأن يحرك المشاعر العامة قدر الإمكان، وأن يقود جمهرة المجاهدين بما أوتي من قوة الشكيمة، وصحة العزم، ودقة المبادرة، وليكن بعد ذلك ما يكون.

وحينما انجلت المجاهدة عن نكسة المجاهدين نتيجة جهل القيادة العثمانية، وخيانة بعض المتزعمين العشائريين، وحدانة الأسلحة البريطانية، انسحب السيد الحوي بما تبقى من معسكره إلى الناصرية، وقال كلمته المشهورة التي رواها السيد محسن الحكيم:

((الحمد لله الذي عرفني تكليفي))^(١).

يقولها بمرارة وأسى نتيجة ما أصابه من الخذلان الرهيب.

ووقف الأستاذ العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي (ت ١٩٦٥م) يقيم ويؤنن الشهداء، بقصيدة عصماء يقول فيها^(٢):

نَبَتْ الرِّي حُمْرُ أَشْلَاءٍ وَأَوْرَادٍ مَثُورَةٌ لَكَ بَيْنَ الْقَصْرِ وَالْوَادِي
دُونَ ((الشعبية)) أَحْسَادٌ مُوزَعَةٌ فِي الْيَدِ تَوْزِيعُ أَعْضَاءِ بِأَحْسَادِ

(١) روى ذلك الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم عدة مرات شفاهاً.

(٢) محمد رضا الشبيبي / ديوان الشبيبي / ٤٨ وما بعدها.

علائقاً بين أسيافٍ وأعمادٍ
فيها أصبوا.. وشحوا شح أوتادٍ
بحالي الحفائب من ماءٍ ومن زادٍ
والجندُ غرثان ملتاح الحشا صادي
ولم تكن ذات إبراقٍ وإرعادٍ
حمرُ الحماليق من تركٍ وأكرادٍ
واستبدلوا الوحشَ من أهل وأولادٍ
في البرّ - جملة أسوارٍ وأسدادٍ
من قبل تجهيز أعوان وإمدادٍ
إلى الشعبية من زوراء بغدادٍ
معطل الجسم ملقى فوق أعوادٍ

وفي ((النخيلة)) أرماسٌ موثقةٌ
للترك ثمة أوتادٌ وأحيّةٌ
جيشٌ أقام ثلاثاً في خنادقها
ماءُ الفراتين موفور... وجهُها
صمٌ مدافعا.. ما أمطرت حمماً
عشرون ألف عراقي... ومثلهم
بمحرون تخافوا عن ديارهم
بهاجمون - وهم رجالةٌ كشفُ
فلّ العدو جناحيهم، وقلبهم
وقائدٍ حملوه في محفّتهِ
أفانك بالعدي جيش مدبرةُ

هكذا بدأت الحرب، وهكذا انتهت، وانسحب السيد الحبوبي إلى
الناصرية، بغية تجديد العدة، ولمّ الشمل، والعودة إلى الحرب ثانية، ولكن
الأحداث تلاحقت على الحبوبي، وفتت في عضده، وأثرت الهزيمة عليه نفسياً،
فازداد همّاً وكمداً، وتدهورت صحته فجأة، وهو نزيل دار الجهاد.

وفاة السيد الحبوبي:

وتيجة طبيعية للألام المرّحة التي داهمت السيد الحبوبي، فقد انعكس صحياً
في أول شعبان ١٣٣٣هـ، واشتدت حالته في الثاني منه، وتوفي يوم الأربعاء
الثالث من شعبان ١٣٣٣هـ، وهو يردد: ((أما أنا - والله الحمد - ففي
نعيم))^(١).

وتلقى العراقيون النبأ المفجع فوراً، وكان لذلك رنة حزن وأسى،
وكان له في حاضرتة النجف الأشرف وقع شديد، وذهول غريب، وحمل

(١) ديوان محمود الحبوبي / الأهداء.

الجثمان إلى النحف ((وكان وصوله يوم الجمعة، فخرج أهلها، وعطلت الأسواق))^(١).

ودفن بعد الغروب بساعة، مقابل ميزان الذهب من الصحن الحيدري الشريف، في غرفة الأيوان المعروف باسمه إلى اليوم.

ووقف المرحوم الشيخ علي الشرقي يؤتبه بقصيدة مطلعها^(٢):

رجال الحمى قد شبعوك إلى الثغرِ فبالرغم أن يستقبلوك على القبرِ

وأقيمت له عدة فوائح كبيرة، وأرخ عام وفاته شيخ الأدب الشيخ جواد

الشيبي، وقد نقش التأريخ بالقاشاني المعرق على ضريحه مع أبيات هي:

فقد المسلمین غداة أودى حسبت الدين بينهم فقيدا

لئن وجدوه للداعي مجيذاً لقد فقدوه قرآناً مجيذاً

وإن شهدته أعينهم سعيداً فقد حملته أرؤوسهم شهيدا

تقدم للدفاع أمير ديني وساق المسلمین له جنودا

ومذ لاقى المنية أرخوه ((سعيداً في الجهاد قضى سعيداً))

— ١٣٣٣ هـ

رثاء الحبوي وتأبينه:

وتبارى شعراء في رثاء السيد الحبوي وتأبينه بقصائد غراء، وكان في

طليعتهم الشيخ جواد الشيبي الذي رثاه بقصيدة عصماء مطلعها^(٣):

لواء الدين كفاً فلا جهادُ وبابُ العلم سدُّ فلا اجتهادُ

ورثاه الحجة الكبير الشيخ محمد جواد البلاغي بقصيدة مطلعها^(٤):

(١) محمد حرز الدين / معارف الرجال ٢ / ٢٩٢.

(٢) علي الشرقي / الديوان / ١١٦ + علي الشرقي / الصلابة في المبدأ ((بحث)).

(٣) محسن الأمين الحسيني العاملي / أعيان الشيعة ١٧ / ١١٣.

(٤) علي الخاقاني / شعراء الغري ٢ / ١٥١.

سعيداً نعي الناعي.. فقلتُ احفض النطقاً

فصمتَ عُرى الإسلام والعروة الوثقى

ورثاه الدكتور محمد مهدي البصير بقصيدة مطلعها^(١):

فيمن لواء الدين بعدك يعقدُ وسواك لا سيفٌ لديه ولا يدُ

ورثاه الشيخ عبد الحسين الحويري بقصيدة مطلعها^(٢):

بيطنِ الثرى وارى سنالك صعيدُ وحطّ الثريا من علاك صعودُ

ورثاه السيد حسين البغدادي الخطيب بقصيدة مطلعها^(٣):

أنحفتَ عينَ المسلمين شهوداً فأفاد عين الكافرين هجوداً

وقد اخترتُ للقارئ قصيدة الشاعر الكبير العلامة الشيخ محمد رضا

الشبيبي رحمه الله (ت ١٩٦٥م) وهي بعنوان:

((شهد الدفاع / أو الأستاذ الحبوبي)) وقد أُنبتها من ديوانه هي ومقدمتها

لما في ذلك من التوثيق التاريخي:

قصيدة الشبيبي في رثاء الحبوبي

شهد الدفاع^(٤):

أو الأستاذ الحبوبي

هو السيد محمد سعيد بن السيد محمود الحسيني محبوبي النحفي الشاعر البليغ

المعروف، بطل النهضة العراقية المأثورة، المتوفى عشية الأربعاء ثاني شعبان سنة

١٣٣٣هـ = ١٩١٥م في دار الجهاد بناصرة المنتفق، المحمول إلى النحيف،

المدفون في المشهد العلوي.

(١) محمد مهدي البصير / نهضة العراق الأدبية / ٢٠.

(٢) عبدالغفار الحبوبي / مقدمة ديوان السيد الحبوبي / ٦٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ظ: ديوان الشبيبي / ١٨٥-١٨٧.

كان فحوضه من النحف بالدعوة إلى الدفاع في الحرم سنة ١٣٣٣هـ -
 ١٩١٤م فأجابه خلق من أهل الفرات وبقية الأقاليم الجنوبية سار بهم إلى
 الشعبية إلى أن كان ما كان من الخذلان المعروف هناك، فعاد إلى الناصرية ورابط
 فيها إلى أن مات.

عَمَّ التُّعُورَ الْمُوحِشَاتِ ظِلَامُ
 طَوَّتِ النَّيَالِقُ نُكْمًا أَعْلَامَهَا
 رَابَطَتْ فِي نَعْرِ الْعِرَاقِ وَتَغْرُهَا
 سَقَطَ الَّذِي شِيدَتْ مِنْ أَرْكَانِهِ
 رَامَ الْعَدُوُّ بِكَ الْوُثُوبَ فَأَذْرَكُوا
 صَالَتْ عَلَى تِلْكَ الْمَنِيَّةِ أُحْتَهَا
 لِلَّهِ تَسْتَعُ أَشْهُرُ مَوْصُولَةٍ
 شَهْرُ الصِّيَامِ أَنَّى فَرَاعَكَ أَنَّهُ
 شَهْرُ الْإِطَاعَةِ وَالْعِبَادَةِ حَائِفٌ
 فَارَقْتَهُ لَا ذَلِكَ اللَّيْلُ الَّذِي
 لَكَ فِي الدِّفَاعِ مَوْقَرًا أَجْرُ الْأَلَى
 مَا كُنْتَ تُؤَيِّرُ فِي جِهَادِكَ لَذَّةَ
 قَلْبٍ وَغَيْرِكَ سَاكِنٌ، وَمُسْتَهْدٌ
 مَا حُبُّهُمْ لَكَ حُبُّ رَاجِحِ حُظْوَةٍ
 عَلِمَ الرَّجَالُ الْحَامِلُونَ بِأَنَّهُمْ
 فَعَلَيْكُمْ مَن ذَاهِبِينَ نَجِيَّةَ
 إِذْ لَسْتَ وَحْدَكَ فِي الْحَقِيقَةِ ذَاهِبًا
 وَدَجَّتْ لِأَنَّكَ تَغْرُهَا الْبَحَامُ
 إِذْ لَيْسَ تُخْفِقُ بَعْدَكَ الْأَعْلَامُ
 يُحْمَى الْحِجَازُ بِسَدِّهِ وَالشَّامُ
 وَأَعِيدَ فِيهِ النُّقُضُ لَا الْإِبْرَامُ
 مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَكَلَّفُوا مَا رَامُوا
 وَسَطًا عَلَى ذَلِكَ الْحِمَامِ حِمَامُ
 طَالَتْ عَلَيْكَ فَكُلُّ شَهْرٍ عَامُ
 فِي ظِلِّ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ يُصَامُ
 مَنْ أَنْ تُطَاعَ وَتُعْبَدَ الْأَصْنَامُ
 يُحْيَى وَلَا تِلْكَ الصَّلَاةُ تُقَامُ
 فِي النَّعْرِ صَلُّوا عَاشِعِينَ وَصَامُوا
 فَيَسُوعَ شَرِبَ أَوْ يَطِيبَ طَعَامُ
 وَالْمُسْلِمُونَ مَهْوَمُونَ بِإِيَامِ
 فِي الْحَبِّ بَلْ هُوَ لَوَعَةٌ وَغَرَامُ
 حَمَلُوا الصَّلَاةَ فَكَبَّرُوا وَأَقَامُوا
 وَعَلَيْكُمْ مَن غَادِيَتَيْنِ سَلَامُ
 طَيِّ الرَّدَى بَلْ أَنْتَ وَالْإِسْلَامُ

الآن لَمَّا غَيَّبُوا تَقْفُوا
 أَيْنَ الَّذِي بَشَّرَهُ تَبَتِ السُّورَى
 أَلْبَا الْفَرِيقِ الْبَائِسِينَ كَفَلْتَهُمْ
 أَدْرَكْتُ أَنْ سَتَدُولُ مِنِّي قَوْلَةٌ
 وَتُكَذِّبُ الْآيَاتُ وَهِيَ حَقَائِقُ
 تَرَكُ الْإِقَامَةَ فِي الْمَقَامِ فَرِيضَةٌ
 قَدَّتِ الْقَبَائِلُ بِالْإِمَامَةِ فِيهِمْ
 شَافَهَتْهُمْ بِالذُّرِّ وَهُوَ مَبَاسِمُ
 كَلِمٌ هَا وَتُعْجِزَاتٍ بِثَلَاثِهَا
 أَصْلَحَتْ شَأْنَهُمْ وَكَانُوا عُصْبَةً
 أَيْدٍ يُؤْتَلَنُ التَّنَاءُ وَأَنْعَمُ
 خَلْدُنَ ذِكْرِكَ لَيْسَ تُدْرِكُ ثَلَمَةَ

وهكذا تنطوي صفحة هذا القائد المجاهد لترسم لوحة زهراء في

سجل الخلود.



مفتی محمد حنیف العاصی و نیر محمد حسین النانیدی نور اللہ علیہ

مدرسہ دارالعلوم دیوبند، دیوبند

الشيخ محمد حسين الغروي النائيني . . رائداً

التعريف به ومصادر دراسته:

معجزة دهره، وفريد عصره، وغرة زمنه، الرائد المجدد الشيخ الميرزا محمد حسين الغروي النائيني بن الميرزا عبد الرحيم النائيني.

أبرز مشاهير العالم الإسلامي في علم الأصول والفقه والنهضة الدستورية.

ولد في ٢٥ / ذي القعدة / ١٢٧٦ هـ في مدينة نائين بإيران، وهي مدينة مزدهرة جميلة تبعد عن يزد حوالي (١١٠) كم بما يساوي عشرين فرسخاً. وكانت تابعة لأصفهان، ولكنها استقلت -أخيراً- إدارياً.

والميرزا النائيني من أسرة شريفة شايخة الأصل، عريقة المجدد، معروفة بالعلم والأدب والثقافة والتحضر.

((وآبائهم وجدته مشاهير هناك، وكان والده شيخ الإسلام في نائين، وكذلك أجداده))^(١).

ومصادر دراسة الميرزا النائيني متعددة في عدة مصادر ضمن صفحات قصيرة خطت بأحرف من نور، أبرزها:

- ١- نقيب البشر / الشيخ آغا بزرك الطهراني.
- ٢- معارف الرجال / الشيخ محمد حرز الدين النجفي.
- ٣- مشهد الإمام / الأستاذ محمد علي جعفر التميمي.

(١) جعفر النائيني / لمحة عن حياة المجدد النائيني / أول كتاب الفتاوى / ٨.

٤- الملحق رقم (٢) لكتاب: التحف في ربع قرن لكمال الدين/ صنفته الأستاذ كامل سلمان الجبوري.

٥- لمحة عن حياة المجدد النائبي/ حفيده جعفر الميرزا علي الغروي النائبي في أول كتاب ((الفتاوى)) للميرزا النائبي وحينما أتحدث في هذه الصفحات عن الرائد المجدد الميرزا النائبي برؤية قلبية مجردة، وفي صفحات جديدة مشرقة، وفي لمسات موضوعية معبرة، فذلك كلمة نتيحة دراسة معمقة لهذه المصادر أولاً، وثمرة اجتهاد تأريخي في مقارنة الأحداث، وعلاصة تحليل منهجي لما أفدته من سيرة النائبي في ضوء السماع الدقيق من الأعلام والأساتيد والمشايخ رضوان الله عليهم أجمعين.

نشأة الشيخ النائبي العلمية وأساتيده:

نشأ الميرزا النائبي في ظل حياة علمية محضة منذ عهد مبكر، فقد بدا عليه النبوغ والعبقرية وهو في صباه، والتعم نجمه ذكياً أريماً ولما بختط عذاره، فهاجره من بلده على أصبهان في أول بلوغه، وكانت أصبهان -آنذاك- إحدى حواضر العلم والمعرفة الإنسانية، وفيها درس الحلقة الثانية من مقررات الحوزة العلمية، بعد المبادئ العامة من العربية والمنطق والفقه الفتاوي والبلاغة وشيء من الحكمة، وهذه الحلقة تتمثل في السطوح، والمراد من السطوح دراسة الكتب الفقهية والأصولية والفلسفية وسوى ذلك، على من الكتاب نفسه، يتلو فقراته الأستاذ ثم يقوم بالشرح والتوضيح والتعليق والإشكالات، مع الإشارة إلى من سبق في الرأي، أو عوّل في المطلب العلمي على غيره، أو أضاف إليه من ابتكاراته، وهي الطريقة المنهجية في دراسة البرنامج العلمي للحوزات في أقاليم الدراسة وعواصمها حتى اليوم.

ولدى إكمال الميرزا النائبي متطلبات هذه المرحلة بتفوق وامتيان، حضر حلقات البحث العالي الخارج عند أساطين الفن، واحتص بأي المعالي الكلياسي في بحثه العالي.

((ولكن معظم تلمذته وتعويله - كما كتبه - كان على المحقق الوحيد والحر الفريد الشيخ محمد حسين الأصبهاني - سبط المحقق النقي صاحب التعليقة الكبرى على المعالم))^(١).

وهو غير المحقق الكبير الحجة الشيخ محمد حسين الأصفهاني (ت ١٣٦١هـ) فهو زميله وقرينه وتربيه، وهو المخاور للإمام علي السلام في النحف الأشرف. ولدى البحث في مظان آثار الميرزا النائيني، يبدو أنه قد تأثر تأثيراً فاعلاً بأستاذه الأصبهاني، وعود على مطالبه الأصولية، فأثنى عليه ثناء عاطراً، وقال: ((إنه حاز في علمه وعمله وزهده وورعه، وطول باعه في العلوم العقلية والنقلية ما يبهر العقول، وقد أكمل جميع ذلك ولم يبلغ الأربعين من عمره... وقد حضر - الميرزا - أبحاثه الفقهية والأصولية والكلامية، وكان يكتب في مجلس البحث كل ما يفيده الأستاذ بكمال السرعة، مترجماً له بالعربية، من دون أن يفوقه شيء، وكان الأستاذ والحاضرون يتعجبون من ذلك))^(٢).

وفي ضوء هذا الاندماج المعرفي، نشأت علاقة حميمة بين الأستاذ المحقق وبين التلميذ المتحضر، فكان يحثه كثيراً على حضور بحث والده الفقيه المتبحر الشيخ محمد باقر، وهو يمتنع عن ذلك حياةً نظراً لصغر سنّه، فهو بعدُ لم يبلغ العشرين من العمر، ولكن أستاذه الجليل أذهب حجله وأماط ترددده، وذلك باصطحابه إلى مجلس أبيه وجلسه إلى جنبه، فأفاد منه كثيراً.

ويبدو للبحث أن عمدة تحصيل الميرزا النائيني العلمي كان في أصبحان، إذ أقام فيها عشر سنين ((مكباً على الأخذ من أعاضم حوزتها العلمية الغنية، وأساطينها في المعقول والمنقول، إلى أن نال الدرجة العليا، ورأى نفسه مستغنياً مكفياً))^(٣).

(١) جعفر القروي النائيني / الفتاوى / ٧.

(٢) جعفر القروي النائيني / لمحة من حياة المجدد النائيني / ٨.

(٣) المصدر السابق.

هجرته إلى العراق:

و حين بلغ المرزا النائيني هذه المرحلة من التضج العلمي، واحتل المتزلة الكبرى لدى الفقهاء والأعاضم، فكّر بالرحلة إلى العراق، فنقذ ذلك دون تردد، وهاجر إلى سامراء عام ١٣٠٣هـ حيث يقيم المرع الأعلى السيد المجدد الشيرازي، فحقق المراد ورغبة النفس في الاستراة من العلم اللباب، وزيادة آفاق ذلك، فحضر لدى المجدد الشيرازي درسه العالي، فانسعت مداركه الذهنية وتفتح على استيعاب إفادات السيد المجدد (ت ١٣١٢هـ) ونفحات أستاذه الأعظم الشيخ مرتضى الأنصاري (ت ١٢٨١هـ) فحاز من ذلك النصب الأوفر، وفاز بالحظ الأوفى، حتى أنار تبحره في دقائق النظر العلمي، واستحضاره لكبريات مسائله العقلية اهتمام أسناده المجدد الشيرازي، فقربّه إليه، واعتمد عليه، حتى عاد جزءاً لا يتجزأ من ظل مرجعيته العليا، فكان مستشاره وأقرب خواصّه، وعدّه بجدارة من أبرز تلامذته، وهو يعد في عنقوان شيايه.

يقول الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء لدى تأيينه:

((عرفتُ تلك النفس التي هي إلى صقع عالم الملكوت أقرب منها إلى صقع عالم الملك، وبأفق عالم الأرواح المجردة، ألصق منها بعالم الأرواح المتعلقة بالمادة.

عرفت المرزا النائيني في سامراء، وهو يومئذ مطمح الأنظار ومسرح الأفكار وموضع إشارة الأنامل، وكانت له المتزلة التي يغيظ عليها عند المرجع الأعلى - السيد الشيرازي - إذ كان يعدّه من ذوي الرأي والمشورة، ويحضره في المهمات التي يحضرها أهل الحلّ والعقد.

وكانت كل أحواله وأعماله تدلّ على نفس كبيرة ذات قدسية كريمة، قليلة النظر أو معدومة المثيل^(١).

(١) كلمة الإمام كاشف الغطاء في تأيينه / العدد الخاص من جريدة (الكرخ) البغدادية في تأيين المرزا النائيني.

وكان السيد المجدد الشيرازي قدس سره بحث تلامذته المتميزين على ملازمة جملة من أعلام العصر في البحث والمناظرة والمذاكرة، فكان حضور الميرزا النائيني حضوراً رائداً، وإضافة كبرى، ومؤشراً بارزاً من مؤشرات الإفادة العليا، وكان في طليعة أولئك المتدربين للمذاكرة والمراجعة وإبداء النظر الرفيع:

السيد إسماعيل الصدر والسيد محمد العشاركي وسواهما، وكان النائيني كأحدهما. حتى إذا استأثرت يد الرحمة بأستاذه المجدد الشيرازي (ت ١٣١٢هـ) بقي الميرزا النائيني في سامراء سنتين لإدارة شؤون الحوزة العلمية بما يستطيع، ثم هاجر منها إلى كربلاء المقدسة عام ١٣١٤هـ بصحبة العالم الرباني المحقق السيد إسماعيل الصدر الذي ارتبط معه بعلاقة متينة الأسباب، ذات هدف بحدد الأبعاد، وهو خدمة مبدأ أهل البيت (عليهم السلام)، من خلال التخصص الدقيق بعلمهم القياض الذي لا تدرك سواحله.

وكان الميرزا النائيني يسعى لتحقيق هذا الهدف السامي، ورأى أن عاصمة العلم هي النجف الأشرف، فليشد الرحال إليها، ((ثم انتقل إلى النجف الأشرف عازماً على الإقامة فيه، ولم يحضر فيه بحث أحد بل استقل بالتدريس والتحقيق والتعميق وتحديد المباني الأصولية، وتأسيسها على أسس قويمية، وتنقيحها بدقة فائقة واتقان عدم النظر، ولأجله عدّ مجدداً لعلم الأصول))^(١).

يقول الشيخ آغا بزرك -متحدثاً عن مغادرة الميرزا كربلاء إلى النجف الأشرف بشيء من التفصيل بحسب مصادره الميدانية: ((وكان الشيخ محمد كاظم الخراساني قد استقل بالتدريس على عهد السيد المجدد، ولما توفي زادت تلامذته وعظم شأنه، وأصبحت بينه وبين الشيخ النائيني رابطة أكيدة واختصاص وثيق، وصار من أعوانه وأنصاره في مهماته الدينية والسياسية، كما

(١) جعفر الفيروي النائيني / لمحة عن حياة المجدد النائيني / ١٠ / في أول كتاب ((الفتاوى)) للميرزا النائيني / مطبعة الأفق / قم / ١٤٢٣هـ.

صار من أعضاء مجلس الفتيا الذي كان يعقده في داره مع بعض خواصه من أصحابه للمذاكرة في المسائل المشككة أوان تأليفه حاشية ((نجم الصاد)) ولم يحضر معهد درسه العام، لأنه كان غنياً عنه، وشأنه أرفع من حضاره))^(١).

مرجعيته المباركة:

لدى تمخض الميرزا قدس سره للبحث الخارج عام ١٣٣٠هـ — بدأت عطوط مرجعته تلوح في الأفق شأن أضرابه من المراجع العظام: السيد محمد كاظم اليزدي، شيخ الشريعة الأصفهاني، الشيخ محمد تقي الشيرازي الحائري، السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني، ولم يكن قدس سره بصدد هذا الأمر، ولكن التكليف الشرعي ليس غير، هو الذي جعله يتصدى لشؤون المرجعية، وقد رجعت إليه في التقليد حواضر العالم الإسلامي، إلى جنب أقرانه من المراجع، ولكن عمدة أهل العلم والفضل كانوا يلتفون حوله التفافاً فريداً، وينتهون الأمة إلى عظيم منزلته ورفيع درجته، فنهض بالأمر قائماً، ونهض به جاهداً، مع عزوفه عن مظاهره، وزهده في الاعتبارات الزائلة، وقد اطلعت على وثيقة خطيرة بخط يده في إشارة لنفسه وإنبائه إلى هذا الموضوع جاء فيها: ((وهو تعالى يعلم ما في قلبي أي ما دخلت في هذا الأمر، ولا اقتحمت، ولا اجترأت على التصدي، إلا بعد أن قطعت بوجوبه العيني عليّ كل جهة، ومع هذا استخرت في القرآن الكريم، فكانت الآية المباركة:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَبِيلًا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾^(٢).

فخررتُ لله ساجداً من هذه العناية والتشريف الذي ما كان يحظر بيالي أن أكون من القرى الظاهرة، فقد ورد عنهم (عليهم السلام)، أنهم القرى المباركة، وأن حملة علمهم هم القرى الظاهرة)) ١ هـ بخطه الشريف قدس سره.

(١) آغا بزرك لاهراني/ نقيباء البشر / ١ / القسم الثاني / ٥٩٣-٥٩٤.

(٢) سورة سبا / ١٨.

والمتبع لأحوال الميرزا طاب ثراه في تقدّمه عند الميرزا الشيرازي، ولدى تعظيمه عند الأخوند، حتى أنه كان يكتب أجوبة الاستفتاءات والأخوند بمضيها، يعرف مدى أهلية الميرزا للنهوض بشؤون المرجعية التي تصدرها ربع قرن.

ظواهر السلوك في شخصية النائبي:

الحديث عن السلوك العرفاني ذو أبعاد تكاملية في بناء الشخصية المثلى للنوع الإنساني، فقد كان - كما تحدث عن ذلك معاصروه - زاهداً عابداً، ورعاً تقياً، نموذجاً للتواضع الجَمِّ، ومثالاً للسلوك القويم، أخذ نفسه بالشدة في ذات الله، وابتعد عن المظاهر الزائلة، وأضرب صفحاً عن الاعتبارات الوهمية، ولم يعبأ بما له من شهرة في الآفاق، ولم يذهب مذهب المترفين في الجاه والسمعة والصيت الذائع، هذا مع تلاًلأ نجمه، وبزوغ فضله، واشتهار أمره، وبروز أساطين تلامذته من أعيان الإمامية، وأعاضم الفقهاء والأصوليين، وأكابر الباحثين والمحققين.

وكان من الأولياء العارفين، ومن اتصف بصفات المتقين الأبرار، وتحلّى بسمات الخاشعين، فهو ذو عبادة خالصة، وتوجه قداسي عجيب، حتى قال آغا بزرك: ((كان إذا وقف للصلاة ارتعدت فرائضه، وابتلت لحينه من دموع عينه))^(١).

وقد انطبعت هذه الظواهر العظيمة بسيرة تلامذته المقربين، فعاد كلٌ منهم نموذجاً في الزهد ورياضة النفس، وثرى حضورهم وإنابتهم إلى الله تعالى ظاهرة لا تنفك عنهم، سيما لدى مشولهم بين يدي الله في المشاهد الشريفة، وعند أداء الصلاة، وفي زيارتهم لمراقد المعصومين.

ولمة ظاهرة أخرى تجلّت ملاحظها في الميرزا النائبي، وهي هذا الأدب الرفيع مع العلماء والمتأديين والشعب المسلم، أدباً ومعاملة وتربيةً وتهديباً، مما يطول

(١) آغا بزرك الطهراني / نغباء البشر / القسم الثاني / ٥٩٤.

معه المقام، يضاف إليه مواساة الناس في أفراحهم وأحزانهم، فكأنه جزء لا يتجزأ من تركيبهم الاجتماعي.

والأهم من هذا كله، تربيته لهذه الطائفة الكبرى من تلامذته، والسهرة عليهم حديثاً مشفقاً موجهاً، وإلزامهم بالاشتغال والتحصيل المضني ليلاً ونهاراً، وحثهم على تحمل المسؤولية، حتى بلغوا جميعاً درجات الاجتهاد، وتسلم قسم منهم سدة المرجعية العليا للإمامية في العالم.

وقد تنسب له بعض المكاشفات الروحية، والتشرف بتوجيه الأئمة الطاهرين، والظفر بحملة من الأسرار، وليس ذلك ببعيد على من نذر نفسه لإعلاء كلمة الله في الأرض، وخلق الدعاة والقادة والمجاهدين، وإعداد الجيل المؤهل لحمل الرسالة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها.

تلامذة الميرزا النائيني:

وكان من التسديد الإلهي أن وفق الميرزا النائيني لاحتضان جيل متميز من المحصلين المتخصصين، فنشأوا في مدرسته المتطورة نشأة لها آثارها الإيجابية فيما استقبل من الزمان، فأعدّهم إعداداً خاصاً لاستمرارية المسيرة العلمية في المشاهد المقدسة، وكان ثمرة هذا السعي المتواصل أن انتظم كوكبة لامعة من كبار الفقهاء ومراجع التقليد، حتى تأهل بعضهم لإدارة المنصب في قيادة المرجعية، وآخرون حذبوا على نشر أفكاره الأصولية في التدريس والبحث الخارج، مع صلاحيتهم للمرجعية، ولكنهم فضلوا دعم المسيرة بالزعم العلمي المتدفق على الابتلاء بالقيادة، فهم النور المتوهج الذي يضيء الطريق بين يدي السائرين إلى الغاية المنشودة.

ولقد مضى أكثر من سبعين عاماً على وفاة الميرزا النائيني، ولبت نداء رها الطليقة الأولى من حملة علمه، ونشئت الطباعة الثانية في ظروف صعبة، فعزّ علينا إحصاء مئات الأساتيد من تلامذته، ومع هذا فإننا نذكر أبرزهم ممن ذاع

صيته، ونسبت ما سمعناه من شيوخنا أنهم من تلامذته الأجلاء، أو ما دلت قرائن الأحوال، ومطالان كتب الأبحاث الأصولية في تقاريره التي ضبطها تلامذته، أو ما ذكره لي حفيده الحجة المحقق الشيخ جعفر الغروي النائي دام عزه.

فمنهم على سبيل النموذج هذه الكوكبة من الأعلام:

- ١- المرزا أحمد الأشتياني.
- ٢- السيد أحمد المستنيط.
- ٣- الشيخ آغا بزرك الأشرفي الشاهرودي.
- ٤- الشيخ آغا حيدر الهمداني.
- ٥- المرزا أسد الله الحجة الهمداني.
- ٦- المرزا أسد الله شريعتمدار الهمداني.
- ٧- الشيخ المرزا أسد الله الزنجاني.
- ٨- الشيخ ميرزا باقر الزنجاني.
- ٩- السيد باقر الشخص الأحسائي.
- ١٠- السيد أبو تراب القزويني.
- ١١- السيد جمال الدين الكلبيكاني.
- ١٢- السيد جواد الطباطبائي الترميزي.
- ١٣- الشيخ حبيب آل إبراهيم العاملي.
- ١٤- الشيخ حسين الحلبي.
- ١٥- السيد حسين الموسوي الحمّامي.
- ١٦- المرزا السيد حسن البحردي.
- ١٧- المرزا حسن السيزاوري.
- ١٨- الشيخ حسين الهمداني.

- ١٩- الشيخ حسن شمس الدين العاملي.
- ٢٠- الشيخ حسن فريد الكلبيكاني.
- ٢١- السيد حسن بحر العلوم الرشتي.
- ٢٢- السيد حسين الموسوي الطوي الخوانساري.
- ٢٣- السيد المرزا حسن اللواساني.
- ٢٤- الشيخ حميد آل ناجي.
- ٢٥- الشيخ خضر الدجيلي النحفي.
- ٢٦- الشيخ صفر علي العراقي.
- ٢٧- السيد صدر الدين الصدر.
- ٢٨- السيد عبد الأعلى السبزواري.
- ٢٩- السيد شهاب الدين المرعشي النحفي.
- ٣٠- الشيخ عبد الرزاق القائي.
- ٣١- السيد أبو عبد الله الزنجاني (مؤلف تأريخ القرآن).
- ٣٢- الشيخ عبد الكريم مغنية العاملي.
- ٣٣- الشيخ عبد النبي العراقي.
- ٣٤- الشيخ علي الغروي العلي باري التبريزي.
- ٣٥- السيد علي مدد القائي.
- ٣٦- الشيخ علي محمد البروجردي.
- ٣٧- الشيخ عبد الحسين الحلّي.
- ٣٨- السيد علي الطباطبائي التبريزي.
- ٣٩- المرزا علي الغروي النائيني (محل المترجم له).
- ٤٠- الشيخ علي تامر النحفي.

- ٤١ - السيد علي نقي النقوي الهندي.
- ٤٢ - الميرزا عبد الله الطهراني.
- ٤٣ - الميرزا أبو الفضل الخوانساري الأصفهاني.
- ٤٤ - السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي.
- ٤٥ - الشيخ أبو القاسم الشاهجراني الهمداني.
- ٤٦ - الشيخ محمد إبراهيم الكرباسي النحفي.
- ٤٧ - السيد محمد باقر الكاشاني المحلاني.
- ٤٨ - الشيخ محمد تقي الأملي.
- ٤٩ - الشيخ محمد تقي البروجردي.
- ٥٠ - السيد محمد الحسيني الهمداني (آغا نجفي / صهر المترجم).
- ٥١ - الشيخ محمد الكوهستاني البهشمري.
- ٥٢ - الشيخ محمد رضا الطبسي.
- ٥٣ - الشيخ محمد رضا المظفر.
- ٥٤ - السيد محمود الحسيني الزنجاني (إمام الجمعة).
- ٥٥ - السيد محمد صادق آل بحر العلوم.
- ٥٦ - السيد محمد تقي آل بحر العلوم.
- ٥٧ - السيد محسن الطباطبائي الحكيم.
- ٥٨ - السيد محمد حسين القاضي الطباطبائي.
- ٥٩ - الشيخ محمد طاهر الشيخ راضي.
- ٦٠ - السيد محمد حسن فضل الله العاملي.
- ٦١ - السيد محمد باقر الشهيدي الكلبيكاني.
- ٦٢ - السيد محمود ضيا بري الرشدي.

- ٦٣- السيد محمد الحجة.
- ٦٤- الشيخ محمد علي الكاظمي الجمالي الخراساني.
- ٦٥- السيد مرتضى النكروودي.
- ٦٦- السيد موسى الحصاني.
- ٦٧- الشيخ موسى الخوانساري.
- ٦٨- السيد المرزا مهدي الحسيني الشيرازي.
- ٧٠- السيد محمود الحسيني الشاهروودي.
- ٧١- الشيخ محمد حسن المظفر.
- ٧٢- الشيخ محمد حسين المظفر.
- ٧٣- السيد نصر الله بن صدر الهمداني.
- ٧٤- السيد هادي الميلاني.
- ٧٥- المرزا الأصفهاني، وهو من أكابر تلامذة المرزا النائيني، وهو الذي نشر آراء أستاذه في الحوزة العلمية بمشهد الإمام الرضا (عليه السلام)، وذلك في حياة أستاذه بعد أن درس عليه عشر سنين، وقد أحدث موجة علمية هائلة، إذ أبدى من نظريات أستاذه ما عرّف به علماء خراسان، بأنه يحمل أفكاراً أصولية جديدة، ونظريات تأسيسية ابتكرها الأستاذ المحدد، وبذلك أصبح من مشاهير الأساتذ في الحوزة العلمية بمشهد.
- وأغلب تلامذة المرزا النائيني قد نالوا مرتبة الاجتهاد، وبلغ بعضهم مرحلة المرجعية العليا، وقد أكبّ القسم المتميز من هؤلاء على التدريس والبحث الخارج، وقد تراوح الأمد الزماني التدريسي هؤلاء الأعلام بين الثلاثين والستين عاماً، كالسيد محسن الحكيم، والسيد أبو القاسم الخوئي، والشيخ حسين الحلبي، والمرزا باقر الزنجاني، والسيد محمود الشاهروودي، والمرزا حسن البختوردي، والسيد هادي الميلاني، والشيخ محمد طاهر الشيخ راضي، والسيد

عبد الأعلى السبزواري، والشيخ أحمد الأشتياني، والسيد باقر الشخص، والشيخ خضر الدجيلي، والميرزا مهدي الأصفهاني، والسيد جمال الدين الكلبايكاني وأضراهم من الأعاضم.

وقد وُفقَ بعض هؤلاء التلامذة إلى طبع تقارير أستاذهم فقهاً وأصولاً، ومن أبرزهم في هذا المضمار:

١- الشيخ محمد علي الكاظمي الجمالي، كتب تقارير بحث الأصول بعنوان «فوائد الأصول» وتقارير بحث الصلاة في الفقه الاستدلالي.

٢- السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، وقد كتب تقارير بحث الأصول بعنوان «أجود التقارير» طبع عدة مرات.

٣- الشيخ موسى الخوانساري، كتب تقارير بحث المكاسب في الفقه الاستدلالي، وعنوانه «منية الطالب».

٤- الشيخ محمد تقي الأملي، كتب تقارير بحثي الصلاة والمكاسب في الفقه الاستدلالي.

٥- الشيخ حسين الحلبي، دوّن فتاوة على أبواب الفقه العبادات والمعاملات، وحرّر تقارير بحوثه الأصولية، ونشرها بين تلامذته، ومن بينهم من هم اليوم مراجع التقليد.

وهذا الشيخ بفطرته وسلامته في المسلك والمنهج قد نذر نفسه للدرس والتدريس والبحث والإفادة، وابتعد عن كل مظاهر الشهرة والإثارة، وعلق جيلاً عملاقاً من المجتهدين الأكابر. وكان مقرباً كثيراً من أستاذه وقائماً بشؤونه.

نموذج من فتاوى الميرزا النائيني:

لقد أحسن صنفاً سماحة الأخ العلامة الجليل الشيخ جعفر الغروي النائيني - حفيد المترجم له - بنشر وشرح الجزء الأول من «الفتاوى» لجدّه العظيم السيّ كانت تدوّن من قبله شخصياً، ويتولى الإجابة بنفسه عما يردّه من مختلف

الأقاليم، ويخط يده الكريمة، وكان قدس سره يتأنف باختيار اللفظ الرصين والعبارة المشرقة لتحجير الجواب.

وكان تلميذه الآية الكبرى الشيخ حسين الحلبي قد «اعتنى بهذه الأجوبة عناينة نامية، حيث كان يواظب على استساخ كل استفتاء تمت الإجابة عليه قبل أن يرسل إلى صاحبه واضعاً كل مسألة في مكانها اللائق وكتابها المناسب من الفقه»^(١).

ولدى مراجعته لهذه الفتاوى، وجدتُ فيها معيناً لا ينضب من الذائفة الفقهية والتدقيق العلمي، مما جعلني من النظر العالي والاستدلال العميق في أجزاء كثيرة من هذه الفتاوى.

وقد اخترت نموذجاً لهذا النحو من الاستفتاء وجهه إليه فقيه عصره السيد محسن الطباطبائي الحكيم، وأجاب عليه الميرزا بنفسه، وسأدرجه مع تعليق الشارح، وبه يتحلى ذلك الوجه المسفر لتلك القابلية الفذة التي يمثلها الميرزا النائيني، سأله السيد الحكيم قائلاً: المذكور في نجاة العباد أنه «إذا لم يتمكن المصلي من السجود على الأرض وما يلحق بها، فالأقوى إقرار الجبهة على أي شيء كان كباقي المساجد، لكن الأولى، بل الأحوط السجود على ثوبه القطن أو الكتان ثم على المعادن الأرضية كالفيروزج ونحوه ثم على ظهر الكف» وشيخنا الأعظم قدس سره في حاشيته على قوله «لكن الأولى» قوله رحمه الله «بل لا يخلو من قوة» وأمضاء العلامة المحقق الشيرازي قدس سره، وفي العروة قدّم الثوب من القطن أو الكتان وعيّر مع عدمه بين المعادن وظهر الكف، وجعل تقديم الأول أحوط، وقد أشكل علينا الوجه في كون الترتيب المذكور أقوى وأحوط، إذ ليس في النصوص تعرض للمعادن عدا النصوص المقتضية لجواز السجود على القير والقفر^(٢)، وهي إن عمل بظاهرها وبني على التعدي

(١) جعفر النائيني / مقدمة الفتاوى ٥/١.

(٢) وهي صحاح معاوية بن عمّار الثلاثة وغيرها، راجع الباب ٦ من أبواب ما يسجد عليه من الوسائل.

من موردها إلى سائر المعادن فاللازم الحكم بجواز السجود عليها اختياراً وتقديمها على القطن والكتان، وإن حملت على الضرورة - لمخالفتها للمشهور ومعارضتها بما دلّ على المنع^(١) - فلا وجه ظاهرٌ لجعلها في المرتبة الثانية لأن حملها على صورة تعذر الثوب من القطن أو الكتان بعيدٌ عن سياقها^(٢)، مع أن فيه تقييداً لإطلاق ما دلّ على أنه لو تعذر السجود على الثوب سجد على ظهر كفه^(٣)، وإن حملت على التقية كان حال المعادن^(٤) حال سائر ما لا يجوز السجود عليه عدا الثوب والكف، وعليه أيضاً بشكل جعلها في الرتبة الثانية، ومع هذا كأنه فقد أمضيت ما في العروة ولم تعلقوا عليه شيئاً فالمأمول أن تبنوا لنا وجه الترتيب المذكور ليكون أقوى وأحوط، دام فضلكم.

محسن الطباطبائي الحكيم

ج: في البحث تكلمنا في المسألة طويلاً وأوفيناها حقها، أما ما في متن النجاة فمحصله الفتوى بعدم ثبوت بدل بالخصوص بعد تعذر الأرض وما بحكمها والاحتياط الاستحبابي برعاية الأبدال، وقد قوّيناه في مجلس البحث^(٥) وأفتينا به في الوسيلة^(٦) وقد أفتى شيخنا أستاذ الأساتيد وسيدنا الأستاذ (قدس سره) بلزوم رعاية الأبدال، وأما تقديم المعادن على ظهر الكف^(٧) فلأن المستفاد

(١) كصحيحة زرارة ورواية محمد بن عمرو بن سعيد المانعين عن المسجود على القير والقفر والزفت، ورواية يونس بن يعقوب المانعة عن المسجود على الذهب والفضة، راجع اليابين ٦ و١٢ من تلك الأبواب.

(٢) كأنه لقلية تيسر الثوب المذكور فحملها على صورة تعذره حمل على الفرد النادر.

(٣) كما في رواية أبي بصير الواردة في الباب/١.

(٤) لجواز السجود حال التقية على كل ما تقتضيه التقية مما لا يجوز السجود عليه اختياراً من دون فرق بين المعادن وغيرها ولا ترتيب بينها، راجع الباب ٣ من الأبواب المذكورة.

(٥) أورد تفاصيل ذلك العلامة الأملي (قدس سره) في كتاب الصلاة من تقريرات بحثه الشريف (قدس سره) (١:٣٦٨-٣٦٩)، وتتضمن إثبات قصور أدلة الباب عن الدلالة على جعل بدلٍ خاص.

(٦) قال (قدس سره) فيه (٩٨) «ولو لم يجد شيئاً من الثلاثة أو لم يتمكن من المسجود عليه لتقية أو غيرها فالأظهر عدم ثبوت بدل لها بخصوصه وإن كان الأحوط أن يسجد على ثوبه القطن والكتان إن أمكنه ذلك، والأفضل المعادن الأرضية والأفضل ظهر كفه».

(٧) يعني بناءً على اعتبار بدل بالخصوص أو رعاية للاحتياط.

تأ يدلّ على السجود على ظهر الكفّ هو كونه المرتبة الأخيرة^(١)، فيقيّد إطلاق ما دلّ على السجود على المعادن بما يدلّ على تعيّن السجود على ثوبه القطن أو الكتّان^(٢) ولا يقيّد ذلك الإطلاق بما يدلّ على السجود على ظهر الكفّ - لما بيّناه^(٣)؛ وعلى هذا فلو بني على رعاية الاحتياط برعاية الأبدال كان ما في النجاة أولى مما في العروة، نكتنا ما علّقنا على ما في العروة لأنّ سياق ما دلّ على جواز السجود على القبر وثبوه هو جوازه اختياراً^(٤) ولا مجال للعمل بهذا الظهور، وتقييده بصورة تعدّر السجود على ثوبه القطن أو الكتّان وإن كانت صناعة الإطلاق والتقييد تقتضيه لكن ينافيه ظهور سياقه^(٥)، ونتيجة ذلك هو كون المعادن مع ظهر الكفّ وسائر ما في العالم ممّا يمكن وضع الجبهة عليه في عرض واحد، فيكون تقديم المعادن على غيره أولوية استحبابية في أولوية استحبابية، وقد استوفينا ذلك كلّه في مجلس البحث وأوفيناه حقه من التفتيح، والله العالم.

رجب ١٣٤٨

(١) لعلّه باعتبار كونه جزءاً ملاصقاً للمصلي لا يفقده عادة وإن فقد كل ما سواه ومثله يناسب وضعه في المرتبة الأخيرة، مضافاً إلى ما في ذيلها من التعليل بأنّها أحد المساجد المقصود به ظاهراً- دفع الاستبعاد الناشئ من توهم لزوم المغايرة بين المساجد والمسجد.

(٢) يعني ولا يقيّد إطلاق الثاني بالأول. ولعلّ وجهه أنّ نصوص الثوب الباب ٤ من أبواب ما يمسجد عليه من الوسائل) تتكامل جواز السجود عليه عند تعدّر السجود على الأرض وإطلاقها يشمل صورتي التمكن من المعادن وعدمه، أمّا نصوص القبر فهي تنفي البأس عن السجود عليه مطلقاً وهذا الإطلاق موهونٌ بعدم إمكان الأخذ به فيقتصر على المتيقّن من مورده وهو صورة تعدّر الأرض والثوب جميعاً.

(٣) من ظهور نصوص ظهر الكفّ في كونه المرتبة الأخيرة.

(٤) الظاهر أنّ مراده (قدس سره) أنّ نصوص القبر ليست في مقام بيان كونه بدلاً ممّا يصحّ السجود عليه لتلاحظ النسبة بينها وبين نصوص بدلية الثوب، بل ظاهر سياقها كونه بنفسه ممّا يصحّ السجود عليه اختياراً، وإذ لا مجال للعمل بهذا الظهور فيحمل على التقية ونحوها، إذن فلا خصوصية للمعادن في محلّ الكلام، بل حكمها حكم سائر ما في العالم ويقع الجميع في الرتبة المتأخرة عن الثوب.

(٥) ظ: الميرزا النائي: الفتاوى / ١٢٧-١٢٠.

وملاحظة هذه الإجابة على الاستفتاء المذكور، تتحلى عبقرية الشيخ النائيني في عرض مفردات الفقه بأدلته التفصيلية، وتبدو تحقيقاته في هذا النوع من الإفتاء.

وللميرزا تدقيقات أصيلة في هذا الشأن، وقد اشتهر عنه التدقيق والتحقيق في حديث: لاتعاد الصلاة إلا من خمس، واستخراج خلل الصلاة منه، وكذا تحقيقه في حمل إشكالية أخذ الأجرة على نيابة العبادات^(١).

والتفصيل المذكور في تقرير المكاسب لتلميذه الجليلين الخوانساري والأملّي لمن أراد التدقيق والاطلاع.

وقد حقق الميرزا -قدس سره- في تقسيم العقود إلى إذنية، وعهدية تنجزية، تعليقية، وأشار على أحكام كل قسم منها بدائقة فقهية سليمة. ثم أفاض القول في تحقيق قضايا العقود تحقيقاً فريداً، فبحث حقيقة الفسخ بالخيار، وحقيقة الإقالة، وحقيقة الشرط ضمن العقد بأقسامه، ومن ثم فصل القول في تقسيم إلى ما هو لازم ذاتاً كالنكاح، وأن ما يسمى باللزوم فيه بالحكمي، وما هو جائز ذاتاً، كالهبة، والجواز فيه حكمي، وما لا يقتضي شيئاً منها كالبيع والإجارة، واللزوم والجواز فيه حقي، واحتصاص الفسخ والإقالة بهذا الأخير.

ومن جملة مبادئه الدقيقة (قدس سره) بناؤه أن كلّ حكم ترخيصي عُلق على أمر وجودي، فهو يدل بالدلالة الالتزامية على إناطة الرخصة بإحراز ذلك الأمر، وعدم جواز الاقتحام مع الشك فيه، وفرّع على هذه القاعدة فروعاً فقهية مهمة^(٢).

مبتكرات الميرزا في علم الأصول:

يعتبر الميرزا النائيني مجدداً لعلم الأصول دون مغالاة في الأمر، ومتضللاً بحفاياه الدقيقة، وتطوير تدريسه في المباني والمطالب العليا، ومبتكراً لكثير من أبعاده بما وضعه من قواعد عامة.

(١) ظ: الميرزا النائيني / الفتاوى / ١ / ١٥٠.

(٢) ظ: الميرزا النائيني / تعليقه على العروة الوثقى / كتاب النكاح / المسألة ٥٠ / فقد أشار فيها إلى عمدة التشريعات في الموضوع.

يقول الشيخ آغا بزرك عنه:

«أما هو في علم الأصول فأمرٌ عظيم، لأنه أحاط بكلياته، ودقته تدقيقاً مدهشاً، وأتقنه إتقاناً غريباً، وقد رنّ الفضاء بأقواله ونظرياته العميقة، كما انطبعت أفكار أكثر المعاصرين بطابع خاص من آرائه حتى عدّ مجدداً في هذا العلم، كما عدّت نظرياته مماثلة لنظريات الأخوند الخراساني. وإن ليحته ميزة خاصة، لدقة مسلكه، وغموض تحقيقاته، فلا يحضره إلا ذور الكفاءة من أهل النظر، ولا مجال فيه للناشئين والمتوسطين، لقصورهم عن الاستفادة منه، لذلك كان تلامذته المختصون به هم الذين تعلق عليهم الآمال، وهكذا برز فيهم أفذاذ أصبحوا اليوم قادة الحركة العلمية والفكرية والمدرسين المشاهير»^(١).

ويبدو أن بحثه العالي الخارج قد بدأ بعد وفاة زعيم الأحرار المولى الشيخ محمد كاظم الخراساني في ١٣٢٩هـ / ١٩١١م مباشرة، حيث استقل بالتدريس، واشتهر بدقائق النظر والتعمق الأصولي في مرجعية شيخ الشريعة الأصفهاني، ولدى وفاته في ١٣٣٩هـ ذاع صدى الميرزا النائيني في الأفاق، ورجع إليه في التقليد على القوم، وأرباب الفضل، ورجال الأمة، والجماهير في الأقاليم.

وكان وكده في تطور علم الأصول، وتخريج طبقة من العباقرة الذين يجددون من معالم هذا العلم، ولقد قلت في رثاء تلميذه الإمام أبو القاسم الخوئي (ت ١٤١٣هـ):

والنائيني أعدئُهُ بِحِثِّ حَيًّا.. وزدت أصوله تأصيلاً

وذكرت في ترجمته (قدس سره) ابتكاراته في علم الأصول التي هي امتداد لابتكارات أستاذه الميرزا النائيني (قدس سره)^(٢).

(١) آغا بزرك / طبقات اعلام الشيعة / نقيب البشر في القرن الرابع عشر / ١ / القسم الثاني / ٥٩٤-٥٩٥.

(٢) ظا المؤلف / أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف / ٢٢١-٢٢٧.

وهنا أذكر شيئاً من ابتكارات المرزا في علم الأصول على شكل نقاط، وهي جميعاً على سبيل النموذج والمثال لا الإحصاء.

١- إيجادية المعاني الحرفية: يرى المرزا قدس سره أن المعاني الحرفية ليست إخطارية كالإسمية، بل هي إيجادية توجد بأدواتها في وعاء الاستعمال كما يوجد المصداق من النداء والخطاب -مخرجاً- باستعمال لفظة (يا) وكاف الخطاب. فكلمة (مين) لا تحكي عن مفهوم الابتداء الذي موطنه العقل كما تحكي كلمة الابتداء نفسها عنه، وإنما يوجد بها في موطن الاستعمال ربط خاص بين المفاهيم الإسمية المقررة في وعاء العقل، فالكلمتان متغايرتان معني هوية وذاتاً، ونسبة الأول إلى الثاني نسبة المصداق إلى المفهوم^(١).

وقد صنف المرزا قدس سره في هذه المسألة رسالة مستقلة لم تزل خطية، كما أفاد حفيده الشيخ جعفر الغروي النائيني.

٢- الأحكام الشرعية قضايا حقيقية لا خارجية: وكان من النظر العلمي الدقيق وأهمه عائدة، تلك النظرة التي عليها مدار الأبحاث الأصولية، بل هي أساس الأصول، القول أن الأحكام الشرعية شأنها شأن القوانين الوضعية فهي معمولية على نهج القضايا الحقيقية، يعني أنها معمولية حكماً كلباً على موضوعه في الخارج، وقبله لا تحقق للحكم بالنسبة إلى ذلك الموضوع إلا شأناً، وينحل الحكم الكلي الواحد إلى أحكام شخصية متعددة حسب تعدد أفراد موضوعه خارجاً، وقد أنشئت مسبقاً - جميعها بإنشاء واحد التحلالي، كما يخبر عن كل ماء يوجد في الخارج بأنه بارد بالطبع بأخبار كلي واحد، وقد بين (قدس سره) وجوه الفرق بين القضيتين الحقيقية والخارجية، وجعل الخلط بينهما وتحيل معمولية الأحكام على نحو القضية الخارجية منشأ لوقوع

(١) نك: محمد علي الجمالي الكاظمي / فوائد الأصول ١/ ١٢ وما بعدها طبعة جماعة المدرسين /

قم: الخوئي / أجود التقريرات ١/ ٢٢ وما بعدها طبعة مؤسسة صاحب الأمر / قم

أخطاء في كثير من المسائل الأصولية، وقد أشار إليها في مواضعها من البحث^(١).

٣- مراتب الحكم التكليفي: وقد حصر الميرزا النائيني مراتب الحكم التكليفي في ثلاث ظواهر: الحكم الشأني، والحكم الفعلي والحكم المنجز. وباعتبار أن الحكم الشأني لا وجود له فعلاً بل قوة، فهو في قوة الوجود لا الوجود ذاته، فتحصر -حينئذ- مراتب الحكم الحقيقي في مرتبتين هما: الحكم الفعلي والحكم المنجز^(٢).

٤- تقسيم الأحكام الشرعية: وقد قسم (قدس سره) الأحكام الشرعية إلى أربعة أقسام:

الأول: ما لا تعلق له بموضوع خارجي كالكلم.

الثاني: ما له تعلق بموضوع خارجي شخصي كاستقبال القبلة.

الثالث: ما له تعلق بعنوان كلي أُخذَ بلحاظ صرف وجوده كالوضوء بالماء.

الرابع: ما له تعلق به لكن أُخذَ العنوان بلحاظ مطلق وجوده، كوجوب الوفاء بكل عقد، وحرمة شرب كلِّ خمر.

ويترتب على كل من هذه الأقسام أحكام خاصة لاسيما في مسألة تصوير الشبهة المصدقية لكل منها وحكمها.

والشبهة المصدقية هي التي دعت (قدس سره) على بسط الكلام تفصيلاً في هذا المجال، بما لم يُسبق إليه^(٣).

٥- حديث متمم الجمل: يرى الميرزا النائيني (قدس سره) أنه يستحيل كل من الاطلاق والتقييد في الجمل الأول في موارد الانقسامات الثانوية وهي

(١) الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ١٩٢ وما بعدها + الخوئي. أجود التقريرات

١٨٦/١ وما بعدها + الجمالي / فوائد الأصول ١/ ١٧٠ وما بعدها.

(٢) الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ١٩٦ وما بعدها + الخوئي / أجود التقريرات

١٨٩/١ + الجمالي / فوائد الأصول ١/ ١٧٥.

(٣) الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ١٨٨-١٩٢ + ٢٠٠-٢٢٦.

الانقسامات المتأخرة عن الحكم- لمتعلق الحكم أو موضوعه في مرحلتي الجعل الفعلية إن كان انقساماً للموضوع، وفي مراحل الجعل والقعية والامتثال إن كان انقساماً للمتعلق، ولأجله لا يحصى لتشريع الحكم على نحو يفني بالملاك الواقعي في هذه الموارد عن التوسل إلى متمم الجعل^(١).

وقد توسع قدس سره في البحث في رسالة الصلاة في المشكوك، ووضع ضوابطه العامة^(٢).

فجعل عنوان المسألة كل ما يقصر الخطاب الواحد عن استيفاء تمام ما يقتضيه ملاك، وجعل منشأ القصور اختلاف المرتبة، وجعل الاختلاف على خمسة أنحاء، كما صنف الخطاب المتمم نفسه الذي به يتدارك القصور المذكور في ثلاثة أصناف^(٣).

٦-٧- قاعدتا التراحم والترتب: وقد شيد -أعلى الله منزلته- دعائم القاعدتين المذكورتين، وأحكم أركانهما. أما التراحم فقد استوعب أبحاثه ضمن مقامات ثلاثة:

الأول: البحث عن حقيقة التراحم بين الحكيمين، ووجوه الفرق بينه وبين تعارض الدليلين.

الثاني: عرض لأسباب التراحم وجمعتها في خمسة أسباب.

الثالث: تحدث بعمق وأصالة عن علاج التراحم من ترجيح أو تخير مبيناً وجوه الترجيح المستعملة في هذا الباب.

وأما الترتب؛ فوضعه في خمس مسائل عدد فيها أسباب التراحم باعتبار أن الترتب متفرع على التراحم، وبرهن -أعلى الله مقامه- على إمكان الترتب

(١) ظ: الجمالي / فوائداً الأصول ١٤٥/١ وما بعدها + الخوشي / أجود التقريرات ١٥٧/١.

(٢) ظ: الميرزا النائيحي / الصلاة في المشكوك / ٢٢١ وما بعدها.

(٣) الميرزا النائيحي / الصلاة في المشكوك / ٢٢٢ وما بعدها + يراجع: الخوشي / أجود التقريرات ١٤٢/٢ وما بعدها.

وصحته في بعض مسأله الخمس، بما قلّ نظيره في الدقة والاستيعاب، وقد عرض لهذا كله في مبحث: النهي عن الضد من الأصول في تقريراته.

٨- العلل الشرعية: يعدّ المرزا النائيني أول من حقق وتعمّق في مبحث العلل الشرعية، ووضع قواعدها العامة لكلتا المرحلتين: الثبوت والاثبات، فقسم التعليلات الشرعية إلى أربعة أقسام:

- ١- حكمة التشريع التي لا اطّراد لها ولا انعكاس.
- ٢- ما هو واسطة في العروض، وفي قوة الكرى الكلّية، فيطرد وينعكس.
- ٣- وما هو واسطة في الثبوت، وهو قسمان: أحدهما ما يلحق بحكمة التشريع فليس مطّرداً ولا منعكساً. وهذا هو القسم الثالث.

والثاني: ما هو مثلها في عدم الاطّراد لكنه منعكس، وهو القسم الرابع. وقد أقام قلس سره الرهان على اختصاص الثاني -الواسطة في العروض- بصلاحيته لشمول غير مورده، وفي مقام الاثبات أبان ما هو الظاهر الأولي للتعليل الشرعي وجعلهُ الأصل، ثم بين وعين الضوابط التي توجب الخروج عن هذا الأصل.

وقد أبدى قلس سره في ذلك كلّهُ مقدرته العلمية الفذة بروح موضوعية، وروحية متواضعة لا يشعر بها ادعاء أو أنانية، وإنما كان ذلك خالصاً لوجهه تعالى.

فجزاه الله عن الإسلام وأهله، وعن العلم وحملته خير الجزاء^(١).

٩- استصحاب العدم الأزلي:

في موضوع استصحاب العدم الأزلي، أحاط المرزا النائيني بدقائقه، وأزاح الستار عن غوامضه، وبرهن على اختياره بأقوم برهان وأرصن دليل، وأبان

(١) ظ: المرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ١٧-٢٢.

مواضع الخلط والاشتباه بأقوى بيان، والمسألة المذكورة في مباحث العام والخاص من الأصول، والميرزا أتى بما فوق المنال في بحثها الذي أظهر فيه تحقيقاً حول أجزاء القضية بما لم يسبق إليه باحث منطقي أو فلسفي^(١).

١٠- الإنسان مختار في أفعاله، في البحث الكلامي الاستطرادي في علم الأصول، وضمن مبحث الطلب والإرادة، إختار صاحب الكفاية قدس سره مذهب بعض الفلاسفة والمتكلمين، وملخصه: أن الإنسان تصدر عنه أفعاله عن إرادة، فهو -إذن- مختار في أفعاله، لأن الإختيار عندهم هو كون الفعل صادراً عن إرادة، وإن كانت الإرادة ضرورية الحصول له ومعلولة لعلل سابقة من تصور وميل وعزم ونحوها.

وهذه العلة أيضاً معلولة لسعادته أو شقاوته المستندة إلى إرادة الله سبحانه وتعالى بنظام الخلقة، لكن بما أن هذا وإن سمي اختياراً، فهو جبرٌ حقيقةً لانتهائه إليه، فلأجله رده الميرزا النائيني، وذهب أن النفس وإن كان يطرأ عليها تلك الكيفيات دون اختيارها، إلا أن شيئاً منها لا يُلحظها إلى الفعل أو الترك، ذلك لأن لها وراء هذه الصفات صفةً أخرى بها يصدر منها الإختيار، وهي سلطنتها المطلقة على مملكة البدن، وسيطرتها على قواه الفاعلة، واقتدارها التام على تدبيره وتوجيهه بحكم الضرورة والوجدان، فهي بسلطنتها هذه تختار الفعل وتحرك العضلات نحوه، أو تختار الترك فتمسكها عنه، وبعبارة أخرى: النفس تؤثر تأثيراً مباشراً فيما تختاره، فتكون هي العلة الفاعلة أو التاركة^(٢).

١١- التردد بين الأقل والأكثر: أضاف الميرزا النائيني قدس سره على أقسام الشبهة الدائر أمرها بين الأقل والأكثر قسماً أهمله القوم، وهو ما إذا كان التردد بين الأقل والأكثر ناشئاً عن شبهة خارجية، وخصه بموارد الشك

(١) ظ: الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ٤٠٢-٤٥٧.

(٢) ظ: السيد الخوئي / أجود التقريرات / ١٢٧/١ وما بعدها، وهو من إفاضات وتوضيح الشيخ جعفر الغروي النائيني دام علاه.

في المانعية، وجعل محل البحث في اللباس المشكوك وأشياؤه من هذا القسم، واستدل على جريان البراءة فيه بما لا فريد^(١).

١٢ - شذرات أصولية مختارة: المتضمن بآثار الشيخ النائيني الأصولية في إفاضاته وتقريراته يجد تحقيقاته منتشرة في أكثر المسائل، وقلت مسألة ليس له فيها نظر أو تحقيق أو إفادة أو تدقيق أو استدراك أو تعليق، وقد أفدت كثيراً من تسليط الضوء على ذلك من أحي العالم المدقق المحقق الشيخ جعفر الغروي النائيني حفيد الميرزا. فكان له الفضل في التنبه عليها والإشارة إليها، فيما يأتي نماذج من ذلك:

- في مبحث الصحيح والأعم، ذهب قدس سره أن ملاكات الأحكام تكون من قبيل الدواعي دون المسببات التوليدية، ونسبة فعل المكلف إلى الملاك نسبة المقدمة الإعدادية لا السبب التوليدي.

- ذهب (قدس سره) في المبحث عنه: أن باب العقود والايقاعات ليس من قبيل الأسباب والمسببات بل من باب الإيجاد بالألة.

- وفي مبحث دلالة صيغة الأمر، ذهب أن الأصل في الأوامر الشرعية الوجوب لحكم العقل بوجوب امتثال كل أمر صدر من المولى عزوجل ما لم يقم دليل على الترخيص في المخالفة، وعليه فإطلاق الأمر يقتضي الوجوب إلا إذا قامت القرينة على الاستحباب.

- ويرى (قدس سره) أن الأصل - في مبحث التعبدية والتوصلي - هو التعبدية بمعنى اعتبار المباشرة في العمل، واعتبار صدوره عن إرادة واختيار واعتبار... وأن لا يقع الواجب ضمن الفرد المحرم.

- وفي مبحث الواجب المشروط، ذهب أعلى الله درجاته: أن القيد في الواجبات المشروطة لا يرجع إلى الهيئة ولا إلى المادة، بل إلى المحمول المنتسب.

(١) ظ: الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك: ٨٨، وما بعدها.

- وفي المبحث نفسه: حقق في مقام الرهنة على امتناع الواجب المعلق.
- وفي مبحث مقدمة الواجب: حقق تحقيقاً استدلالياً على امتناع الشرط المتأخر.
- وفي مبحث الواجب المطلق والشروط: حقق في مسألة المقدمات المفوتة -وهي المقدمات اللازم فعلها قبل وجوب ذي المقدمة- وحلّ الأشكال بعد تقسيمها إلى أربعة أقسام.
- وفي مبحث الوجوب النفسي والغيري، ذهب إلى قاعدة اتحاد الوجوبين، أو الوجوب والاستحباب مع وحدة المتعلق، وتعددتهما مع تعدده.
- وقد فرق (قدس سره) بين موضوعات الأحكام وعلل الشرائع، وبتعبير آخر: فرق بين شرائط الجعل وشرائط المجهول^(١).
- وذهب بتحقيقه إلى تأخر رتبة المانع من المقتضي مانعية وجود أحد الضدّين للآخر، وامتناع الجمع بين شرطية أحد الضدّين ومانعية الآخر^(٢).
- وفي مبحث (اجتماع الأمر والنهي) كان له القدح المعلن في جملة من التحقيقات وكان منها بناؤه في مبحث النهي عن العبادة والمعاملة على أن حرمة المعاملة توجب الحجر وسلب السلطنة عنها فتفسد، ونحوها النذر والشرط ضمن العقد اللازم.
- وذهب قدس سره إلى تقسيم حكم العقل إلى ما له ملاك واحد يعمّ صورة الشك كما في التشريع المحرّم، وإلى ما له ملاك واقعياً وآخر طريقي^(٣).

(١) ظ: الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ١٩٣ وما بعدها + فوائد الأصول.

للجمالي ٢٧٧/١ + الخوئي / أجود التقريرات ١/٣٢٥.

(٢) ظ: الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ١٢٢ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه + مباحث الأصول العملية في تقرير الجمالي، الخوئي.

- وقد فرّق أعلى الله مقامه بين الموضوع المركب والموضوع البسيط المتزع أو الملازم للمركب، وما هي القاعدة لجران الأصل في بعض أجزاء الموضوع المركب إذا أحرز بعضها الآخر بالوجدان^(١).
 - وقد قسّم (قدس سره) القدرة المشروطة بما التكليف إلى عقلية وشرعية، وبين وجوه الفرق بينهما، وحكم الشك في القدرة بكل من قسمها^(٢).
 - وقد حقق طاب ثراه في مسألة قيام الأمارات والأصول مقام القطع، وقد عدّ مراتب أربعاً للعلم، واعتبر الرابعة جهتين قابلتين للحمل التشريعي، أولاهما بمعولة للأمارات والثانية للأصول المحرزة^(٣).
 - وقد جعل رفع الله منزلته مراتب الامتثال أربعاً: الامتثال العلمي التفصيلي، والامتثال العلمي الإجمالي، والظني والاحتمالي^(٤).
 - وقد حقق (قدس سره) في مسألة الجمع بين الأحكام الواقعية والظاهرية في كل من موارد الأمارات والأصول المحرزة والمحضنة^(٥).
 - وقد حقق أيضاً في بيان الفارق بين التخصص والتخصيص، والحكومة والورود، وقسّم الحكومة إلى واقعية وظاهرية^(٦).
- وهذه المسائل الأصولية قد لا يكون بعضها مبتكراً، ولكنه حقق فيها تحقيقاً دقيقاً، بما يعتر فتحاً أصولياً كبيراً، وغيرها كثير.

حياة المرزا السياسية:

وهناك جانب مشرق من جوانب المرزا النائيني يضاف إلى حياته العلمية، ويتمثل هذا الجانب في نضاله السياسي ضد الاستعمار العالمي في أشكاله

(١) النائيني / الصلاة في المشكوك / ٢٧٨ و ١١٢ وفي التقريرين في مبحث الخاص والعام.

(٢) المصدر نفسه / ٢١٢ + أبحاث البرامة والاشتغال في التقريرين.

(٣) ظ: الخوئي / أجود التقريرات ٢ / ٢٠.

(٤) ظ: الجمالي الكاظمي / فوائد الأصول ٢ / ٦٩.

(٥) ظ: مبحث حجية الأمارات في تقرير الجمالي والخوئي.

(٦) ظ: الخوئي / أجود التقريرات ٣ / ٢٨٢ + ١٩١ / ٤ و ٢٨٠.

المتنوعة، فقد كان (قدس سره) على مدى إنشغاله بالجدّ والتحصيل والدراسة، ركناً قوياً من أركان التوجيه السياسي الرشيد للطائفة الإمامية والإسلام في العالم، فهو شعلة متوقدة من الوعي والغيرة والتفكير بمشكلات الأمة وتطلعات الوطن. فقد كان زعيم الأحرار المولى الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني مناهضاً للإستبداد والدكتاتورية، مطالباً بالدستور الذي يقيد رئيس الدولة بمجلس شوروي وقانون يلتزم الإسلام ديناً، والديمقراطية مبدأً، وحكم الشعب بقيادة الفقهاء بحدود معينة، وذلك في عام ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م.

وكان المرزا النائيني من دعاة هذا الاتجاه، فوقف إلى جنب الآخوند معاضداً ومسانداً، وألف كتابه الجليل «تنبيه الأمة وتزبيح الملة». وسيأتي الحديث عنه. وحينما توج الملك فيصل الأول -رحمه الله- ملكاً على العراق في آب/ ١٩٢١م في ظل الاحتلال البريطاني، وكان الانتداب البريطاني قد رشّح عبد الرحمن النقيب لرئاسة الوزارة فيما يسمى بالاستقلال، وكان المراجع العظام في رية من الأمر وشك في التوايا، وحينما أزمعت الحكومة على تشكيل المجلس التأسيسي في ١٩٢٤م وهو عبارة عن مجلس للنواب في انتخاب صوري مزيف، كان الإمام الشيخ مهدي الخالصي (قدس سره) قد أفتى بحرمة الانتخاب وكذلك المرزا النائيني والسيد أبو الحسن الأصفهاني، والسيد محمد الفيروز آبادي، وبقية العلماء، واعتبروا أن الاستقلال اسمي، وأن الدكتور المزمع التصويت عليه من قبل المجلس قد وضع من قبل الانكليز، فحرّم هؤلاء جميعاً المشاركة في الانتخابات التي يسيّرهما الاحتلال البريطاني. وقام الشيخ الخالصي على الفور بخلع بيعة الملك فيصل الأول، وأعلن ذلك في كربلاء المقدسة لدى إحدى المواسم الحافلة بالزائرين، لأن الملك لم يحقق ولا يحقق طموح الشعب العراقي في الحرية والاستقلال التام، فقررت الحكومة العراقية تسفير الشيخ الخالصي، فقبض عليه عبد المحسن السعدون -رئيس الوزراء العراقي المنتحصر- ووجه له كلاماً عشناً، ونفذ نفيه من العراق، فذهب إلى الحجاز، ومنها إلى

عراسان، حيث استقر فيها. وتضامناً معه، وقياماً بالتكليف الشرعي، فقد قرر الميرزا النائيني والسيد أبو الحسن مغادرة العراق احتجاجاً على نفي الشيخ الخالصي، فغادراها، وبعيتهم -على ما سمعت- ثلاثمائة من علماء وأساتيد وطلاب الحوزة العلمية في النجف الأشرف وكربلاء المقدسة.

كان هذا القرار قد أحدث ضجة كبرى في العراق، فهؤلاء المغادرون هم قادة التحرير للبلاد، وقامت المظاهرات على قدم وساق في جنوب العراق والفرات الأوسط والكاظمية المقدسة والمشاهد المشرفة، وبعد حين -تسعة شهور- اضطرت الحكومة إلى إرسال وفد لمفاوضة العلماء لتهذئة الأوضاع واستياب الأمن، فعاد الميرزا النائيني والسيد أبو الحسن إلى النجف الأشرف، لرعاية شؤون الحوزة العلمية، والقيام بأعباء المرجعية، وإحياء معالم البحث العلمي والتدريس.

لقد احتفى زعيم قم المقدسة ومؤسس حوزتها العلمية آية الله الشيخ عبد الكريم الخائري اليزدي بالميرزا والأصفهاني وقابلهما بالترحاب العظيم، وأمر تلامذته وطلابه والأساتيد بحضور درسي العلمين المذكورين.

ورفض الشيخ مهدي الخالصي (قدس سره) العودة إلى البلاد، وفاجأه القدر، فتوفي متأثراً بالآلام وهمومه وأحزانه عام ١٩٢٥م، وأحدثت وفاته دويماً هائلاً في العراق، وقامت المظاهرات، وأقيمت الفواتح، ورثاه أعلام الشعر العربي، كل ذلك أوجد شقة بعيدة بين الدولة والمرجعية الدينية وحتى اليوم.

إذن عاد الميرزا النائيني إلى النجف الأشرف، واتجه اتجاهاً متكاملماً لإعداد الجيل الناهض لحمل الرسالة بأمانة وإخلاص.

وآراء الميرزا النائيني السياسية ترجمها كتابه «تنبيه الأمة وتزويه الملة» وقد طبع لأول مرة في النجف الأشرف ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م وأعيد طبعه في إيران عام ١٩٥١م/ ثم أعيد نشره في مجلة الموسم الهولندية^(١).

(١) مجلة الموسم / برئاسة تحرير الأستاذ محمد سعيد الطريحي / عدده / ج٢ / ١٩٩٠م.

وترجمه الأستاذ عبد الحسن آل نجف عن الفارسية، ونشر بتحقيق الأستاذ عبد الكريم آل نجف / ١٤١٩ هـ.

وترجمه أيضاً الأستاذ توفيق السيف / بيروت / ١٩٩٩ م ونشرها أخيراً - اعتماداً على هذا الأصل - الأستاذ المحقق كامل سلمان الجبوري، واعتبرها الملحق رقم (٢) لمذكرات الأستاذ الجليل السيد محمد علي كمال الدين رحمه الله «التحفة في ربيع قرن» وقد شملت مساحة النشر الصفحات ٤٤٧ إلى ٥٥٢. وكان آخرها مرموقاً: «وبه ختم على يد مصنفه الفقير الجاني محمد حسين الغروي النائيني / في الوادي المقدس الغري على مشرفها أفضل الصلاة والتسليم / في شهر ربيع الأول سنة ألف وثلاثمائة وسبع وعشرين من الهجرة المقدسة / على مهاجرها وآله أفضل الصلاة والسلام».

وقد قرض الكتاب من قبل العلمين البارزين المولى محمد كاظم الخراساني والشيخ عبد الله المازندراني.

١- قال الأخوند الخراساني في قريضه: «هذه الرسالة الشريفة من إفاضات جناب مدار الشريعة، صفوة الفقهاء والمجتهدين، ثقة الإسلام والمسلمين، العالم العامل آغا ميرزا محمد حسين النائيني الغروي دامت إفاضاته، أجل من أن تمجد، وحرى أن تكون دراستها وتدريسها، سبيلاً إلى إدراك أن أصول المشروطة مستمدة من الشريعة الحقة، وهي مفاد وحقيقة الكلمة المباركة «عمواتكم علمنا الله معالم ديننا، وأصلح ما كان فسد من دنيانا» أرجو أن يدرك ذلك بعين اليقين إن شاء الله.

ربيع الأول / سنة ١٣٢٧ هـ حرره الأحقر الجاني محمد كاظم الخراساني

٢- تقرير الشيخ المازندراني: بحمد الله وتأييده، فإن الرسالة الشريفة: (تنبيه الأمة وتربية الملة) كما تفضل الأخوند أجل من أن تمجد، وهي كافية لتعزيز اعتقاد المسلمين وتصديقهم وجدانياً، بما هو ثابت من أن جميع الأصول

والمباني السياسية المستفادة والنابعة من دين الإسلام القويم، كافية وفوق ما يؤمل، فله درّ مصنفه المحقق، وجزاه الله عن الإسلام وأهله خيراً، وكثر في الفقهاء والمجتهدين أمثاله، بمحمد وآله الطاهرين، صلوات الله عليهم أجمعين.

في شهر ربيع الأول/ ١٣٢٧هـ - حرره الأحقر عبد الله المازندراني

والرسالة أهميتها القصوى في تلك الظروف التي صحا فيها المسلمون من غفوتهم الغارقة في ظل التخدير السياسي، وتكمن تلك الأهمية في الكشف عن الرأي التشريعي للإسلام في أنظمة الحياة السياسية، وإدارة شؤون الدولة.

وقد انتظمت الرسالة في تمهيد ومقدمة وخمسة فصول.

تحدث المؤلف بلغة سليمة في التمهيد عن تأريخ الحروب الصليبية ومقاومتها للإسلام والمسلمين، وأثبت فشلها سياسياً وعسكرياً، وبيّن أسباب ذلك الفشل بما حمل الأوربيين على البحث عن أصول التمرد الإسلامي وسياسة الإسلام، فأفادوا منها علماء وفاعلياً، بينما ابتعد المسلمون عن الكتاب والسنة وسيرة أهل البيت (عليهم السلام)، فأصيبوا بالخور والفشل، ثم استعاد المسلمون وعيهم بفضل مراجعتهم، وتنوّرت عقولهم، وبدأوا يشعرون بالمسؤولية لاستعادة حريتهم وتقرير مصيرهم، «وكان مما أثلج الصدر قيام حجج الإسلام مراجع النجف الأشرف، وهم رؤساء الشيعة الاثني عشرية بأصدار الأحكام التي فضحت الاستبداد... ثم التعقيب عليها بفتوى المشيخة الإسلامية في اسطنبول وهي مرجعية أهل السنة، لقد كانت هذه الخطوة ضرورية لثبوت ساحة الإسلام المقدس من تلك الأحكام الجوربة».

وجاءت مقدمة الرسالة حافلة بتحليل حقيقة الاستبداد ومشروعية دستورية الدولة، والتدليل على أصالة الدستور ومجلس الشورى الوطني، وتوضيح معنى الحرية والمساواة، كل ذلك بقلم مشرق، وأسلوب رفيع، وذهنية عالية، وموضوعات مهمة أساسية استغرقت ثلاثين صفحة من الكتاب.

ثم كان الفصل الأول في التدليل العلمي أن جعل السلطة مكان ولاية، وأن تحولها إلى التمليكية من بدع الطواغيت والظالمين، وفيه مقامان:
الأول: في أصالة تحديد السلطة شرعاً.

والثاني: في درجة محدودية السلطة.

وقد أفاض فيهما القول بما لا مزيد عليه نصوصاً واستنباطاً.

وكان الفصل الثاني خاصاً في بيان التكليف الشرعي في عصر غيبة الإمام عجل الله فرجه، وذهب فيه أن الولايات النوعية (العامة) التي حُلِمَ عدم رضا الشارع بإعمالها في زمن الغيبة، تندرج تحت عنوان (الوظائف الحسينية)، وفي رأينا أن قيام فقهاء عصر الغيبة بما نيابة عن المعصوم من الثوابت، وهي القدر المتيقن في مقام (ولاية الفقيه) حتى مع عدم ثبوت النيابة العامة في جميع المناصب، وبالنظر إلى قطعية عدم رضا الشارع باختلال نظام الأمة، وذهاب بيضة الإسلام، فإن عدم رضاه عن إهمال الوظائف المتعلقة بحفظ البلاد الإسلامية وصيانة نظامها، هو تبعاً لذلك - من أوضح القطعيات.

إن هذه الوظائف، بالنظر إلى تأثيراتها الكبرى على الإسلام والمسلمين، من أهم الأمور الحسينية، بل أهمها جميعاً، ولهذا فإن ثبوت نيابة الفقهاء والنواب العامين للإمام (عليه السلام) في عصر الغيبة، في إقامة تلك الوظائف، من قطعيات المذهب.

وكان الفصل الثالث يدور في فلك متطور في العرض والأسلوب في أن المشروطة في ركنيتها (الحرية والمساواة) الوسيلة المتيقنة والمأمونة لتحديد السلطة في ثلاثة مطالب:

الأول: بحث مبدأ الشورى، مع ملاحظة أن الأحكام الشرعية خارجة عن مقام الشورى، وخروجها من باب التخصص والتخصيص، وأن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يشاور في الأمور العامة، وقد يستفاد من الروايات موافقته على رأي الأكثرية.

المطلب الثاني: معالجة الحال في الظروف الراهنة المحرومة من الحضور المبارك للمعصوم، والابتلاء بالجهلة والظلمة والفسادين، وأن التكليف الشرعي يقضي بحفظ الحد الأدنى المتفق عليه بين الأمة، وهو تحديد السلطة، وحفظ أساس الحكم الشوروي بإقامة الهيئة المسددة لسياسة الحاكم، والرادعة له عن ارتكاب الآثام والمظالم.

والمطلب الثالث: تحدث عن إحلال الهيئة المسددة، وهو القدر الممكن في غياب المعصوم كما عليه أصول مذهبنا، والركن الأعظم للقيام بهذه المهمة في ترتيب دستور الدولة.

واعتمر (قدس سره) أن هذه المطلب لا تتحقق إلا بقيام النظام على الأصلين المهمين في الموضوع، وهما: الحرية والمساواة، وكان ما طرحه فصلاً متميزاً فريداً. وكان الفصل الرابع في ردّ الشبهات وموارد الاعتراض -سما لأساس له- في أفكار الطواغيت والظلمة والمستبدين كمسألتي الحرية والمساواة، ومسألة الدستور بخاصة، وقد تكفل بتقضى ما أبرموا، وردّ جميع المغالطات في بيان معنى البدعة أولاً، وبيان تصنيف الواجب إلى واجب بالذات، وواجب لغيره، وذلك لتفنيد الادعاءات القائلة بأن التقييد بالدستور تشريع في قبال التشريع.

ومن هنا أورد الشبهات التي تمسك بها أعداد النظام الدستوري، كالقول بأن عقد المجلس النيابي تدخل في شأن الأمة!! والقول بأن انتخاب المجلس حقّ لنواب الإمام وحدهم، وردّ ذلك بالأدلة العلمية القاهرة، وبحث ضمن ذلك ولاية المجتهد المطلق وعدول المؤمنين، بما يكفي فيه حصول المنتصدي على إذن المجتهد دون أن يباشر المجتهد ذلك بنفسه.

ومن الشبهات التي أثبتت حول الحكم الدستوري ونظامه: عدم انطباق تمثيل النواب للشعب على باب الوكالة الشرعية، وكذلك القول بفساد التعويل على آراء الأكثرية، ففند ذلك. ثم عرض المصنف لمغالطات أخرى أثبتت جزافاً لعرقله الحياة الدستورية، وفندتها واحدة واحدة.

وكان الفصل الخامس غنياً بالإفاضة في شرائط صحة ومشروعية تدخل النواب في الأمور السياسية، وبيان وظائفهم وما ينبغي توفّره في كل عضو من أعضاء مجلس الشورى من العلم، والزاهة، والحرص على الدين والوطن، ومن ثم مسؤولية التصويت لأكفاء المرشحين لعضوية المجلس، بعد ذلك عرض لوظائف ممثلي الأمة الأساسية، وحصرها في ثلاث:

١- في الأموال العامة؛ موارد ومصارفها.

٢- تقنين القوانين ومطابقتها بأحكام الشريعة المقدسة على أحكام منصوص عليها، وعلى الشورى، وفي ترجيحات الولاية والعمّال والنواب العاميين أو المأذونين.

٣- تقسيم قوى الدولة وأعمالها.

وكانت الخاتمة في مقصدين مهمين:

الأول: في استقصاء قوى الاستبداد، وهي: الجهل، والاستبداد الديني، وسيادة التملق للحاكم، وتفريق الكلمة، والقمع والإرهاب، وتطبيع الاستبداد، وحشد قوى الدولة ضد الشعب.

الثاني: في علاج تلك القوى ومكافحة تلك الظواهر.

وهكذا رأينا أفكار الميرزا النائيني في هذه الرسالة تتحدث عن شخصية سياسية ودينية عميقة الجذور في استكناه البعد السياسي والتشريعي للحياة الدستورية، بما أعجب به كبار رجال السياسة وصانعي القرار العالمي.

وقد ظل الميرزا النائيني مجاهداً في هذا المجال، وقد عثر في الوثائق التي تركها تلك المراسلات الصادرة من العلمين الآخوند والمازندراني إلى القادة والأعيان والسياسيين في إيران وسواها، وجميعها من تجميع الميرزا النائيني بقلمه الشريف، وقد أمضاها العلمان المذكوران، وتلك خصيصة أخرى تكشف عن مدى اطمئنانهما وثقتهما المطلقة بالميرزا (قدس سره).

مؤلفات الميرزا النائيني:

- للتائيني عدة مؤلفات قيمة لها أهميتها الكبرى في مجال تخصصها، أبرزها:
- ١- ذخيرة العباد، رسالة عملية، طبعت في حياته عدة مرات.
 - ٢- وسيلة النجاة، رسالة عملية، طبعت في النجف الأشرف / ١٣٤٢هـ.
 - ٣- تعليقة على العروة الوثقى للسيد اليزدي / طبعت وحدها / ١٣٤٠هـ / وطبعت مع المتن والأصل / ١٣٤٥هـ.
 - ٤- مناسك الحج / علق عليها السيد محسن الطباطبائي الحكيم تعليقاً استدلالياً في كتابه: مناسك الحج / طبع عدة مرات.
 - ٥- رسالة: الصلاة في المشكوك / طبعت عدة مرات، كان آخرها بتحقيق وشرح حفيده الشيخ جعفر الغروي النائيني / طبع مؤسسة آل البيت لإحياء التراث / ١٤١٨هـ.
 - ٦- الفتاوى، صادرة بقلمه وخطه الشريف / امتنسخها ورثها على طريقة كتب الفقيه تلميذه الشيخ حسين الحل / طبع الجزء الأول منها بتحقيق وتعليق حفيده الشيخ جعفر الغروي النائيني / قم / ١٤٢٣هـ.
 - ٧- تنبيه الأمة وتزوية الملة / طبعت لأول مرة في بغداد / ١٣٢٧هـ / أفردناها بالحديث عن ألقها الديني وبرنامجها السياسي، في وجوب إقامة الحكم الدستوري.

وفاته وتأبينه ومدفنه:

كان الشيخ النائيني قد تجاوز الثمانين من العمر، فدهنته أمراض الشيخوخة وأعراض الكبر، وتدهورت صحته، ونقل إلى بغداد للعلاج، وتناوب على علاجه كبار الأطباء، فما أجدى ذلك نفعاً، فوفاه القدر، ولبي نداء ربه يوم السبت ٢٦ / جمادى الأولى / ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م، وحمل جنمائه من بغداد إلى النجف الأشرف بمظاهر التعظيم والتبجيل، ولدى وصوله إلى النجف أغلقت

الأسواق، وعطلت الأعمال، وشيع تشييعاً فحماً شاركت فيه الطبقات كافة من المراجع والعلماء والحوزة والكسبة ووجوه الناس وجماهير الشعب.

وقد تولى غسله العلامة المقدس الورع التقى الشيخ علي القمي قدس سره، وأقام عليه الصلاة المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني، ودفن في الحجرة الخامسة في الصحن الحيدري الشريف على يسار الداخل إليه من باب السوق الكبير.

وأقيمت له مواكب العزاء السيارة، والفوائح الكبرى في النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية وبغداد وبقية قصبات العراق بما لا يمكن حصره كثرة. وأصدرت جريدة الكرخ البغدادية عدداً خاصاً في تأييده، تصدرته كلمة بليغة للإمام محمد الحسين كاشف الغطاء.

ورثاه الشعراء: عبد الحسين الحلبي، محمد رضا المظفر، محمد علي اليعقوبي، محمود الجبوبي، مسلم الحلبي، علي الصغير، عبد المنعم الفرطوسي، مهدي الأعرجي، وقد أشار لذلك السيد الأمين في أعيان الشيعة ٥٥/٦-٥٦.

وبين يدي قصيدتان من أروع الشعر العربي في رثائه، الأولى لشيخ الخطباء وكبير الأدباء في عصره الشيخ محمد علي اليعقوبي، والثانية لسيدي الوالد الشيخ علي الصغير، وقد ألقينا في الحفل الأربعيني الذي أقيم في مسجد الهندي في النجف الأشرف.

قصيدة اليعقوبي في رثائه:

الإمام الثاني^(١)

أأنت عليك للملأ ازدحامٌ أم التقوى تُشيعها الأنامُ
نعيتَ فعال بالدينا اضطرابٌ وشبَّ بمهجة الدين اضطرابُ
هو النبا العظيم فليس بدعاً إذا قعدَ الأنامُ له وقاموا
بكي البلد الأمين عليك شجواً فحاربَ صوته البلد الحرامُ
وراع الخطب فارس فاستشاطت وشاطرت العراق به الشامُ
بكتك الآية العظمى وغيوث الهدى إن نابت النوب العظامُ
وعمَّ بك الأسي شرقاً وغرباً كما عمَّت مواهيك الجسمامُ
كأن النعش يوم حُملت فيه سحابٌ خلفه البدرُ التمامُ
ثمَّ لحمله الأيدي استلاماً «كما للناس بالحجر استلامُ»
ترف أمامه الأعلام سوداً ومحرَّ الدموع لها انسحامُ
أأجنحة الملائك مثقلاتٌ به أم تلك أعناقٌ وهامُ
أهالوا التراب منك على محيأ به في المحل يستسقى الغمامُ
فطفنا في ضريحك والمآقي تجودُ كأنها الغيث الركامُ
كأن عليه حائمة الأمان سرورٌ قطعاً على وردٍ حيامُ
تحنُّمٌ وجهُ هذي الأرض حزناً عليك وطبق الأفق الظلامُ
فلا الإصلاح هاطلة سماءُ ولا برقُ الصلاح بها يشامُ

(١) القيت في تابين كبير علماء عصره الحاج ميرزا حسين الثاني في الجامع الهندي بالنجف وكانت وفاته يوم السبت ٢٦٤٠ هـ سنة ١٢٥٥ م، وعمره ٨٢ عاماً.

(٢) ظ: محمد علي اليعقوبي / ديوان اليعقوبي / ٢٢٢-٢٢٤ / مطبعة النعمان / النجف / ١٩٥٧ م.

فجرحُ الدين بعدك ليس يوسى
فكم لك دونه وقفات عزٌ
بأقلام تفلُ البيض حداً
غداة تحكّم الأعداء فيه
فكنت له الحمام تذود عنه
ولا عجباً إذا ما مال بيت
وواسطة القلادة صدّعتها
هي الأيام لم تحفظ لديها
وحسبك في تصرفها اعتباراً
لحى الله الحوادث ليس تنبر
وكم بحشا الهدى منها كلومٌ
إذا الإسلام ناح فليس يلحى
فما شيد الهدى لولا حسينٌ
أتيح لك الحمام وكان يخشى
أقمت بماوراً مشوى (علي)
ثرى حصاؤها شأت الثريا
ورحت مزوداً عملاً وعماماً
مضيت وعمرك الثاني سيفي
وما الإنسانُ بعد الموت إلا
وهان الخطب بعدك مذ وثقنا

وصدع العلم ليس له التمامُ
تخبّرُ أنّك البطل الممامُ
وليس تردها بيض ولا مٌ
وكم للشرك في الدين احتكامُ
فأغمد في الثرى ذاك الحمامُ
الهدى فلقد هوى منه الدعامُ
يد الأيام فانحَلّ النظامُ
عهود لا ولا ترعى الذمامُ
فلا وصلٌ يدوم ولا انصرامُ
صوارمها ولا تخطي السهامُ
فهل يجدي العتاب أو الكلامُ
على مثل (الحسين) ولا يلامُ
ولا الإيمان قام له قوامُ
لقاك فكيف يصرعك الحمامُ
فطاب أبا علي لك المقامُ
وطال على السهى فيها الرغامُ
وزاد سواك في الدنيا الخطامُ
وكم ذكراً به نحيب الكرامُ
مآثر نستفيد بها الأنامُ
بأن حمى الشريعة لا يضامُ

فكيف ودونها من حارسها
 لقد فقد (الحسين) وما المعزى
 به الأحكام قد شدت عراها
 وكيف تضلّ قومٌ عن هداها
 ولو تبعوا أبا الحسن اقتداء
 سعى للمكرّمات وهم قعودٌ
 إذا النادي حواه فليس يدري
 وقلت لمن يرومُ علاه عفواً
 أبا حسن وأنت لنا غياث
 ففبك وقد سلّمت لنا عزاء

• • •

فقيد المسلمين العلامة النائيني

قصيدة سيدنا الوالد الشيخ علي الصغير

في الاحتفال التأييني الذي عقد في

مسجد الهندي في رثاء الميرزا النائيني

عجبتُ كيف طواك القبرُ يا علمُ
 وأن أرى اليوم قللنا نخفَ به
 وأن أرى صارمَ الإسلامِ يعمده
 طلبتُ فيك الرثا في أن يهود به

وما انطوى منك فردٌ فيه بل أممُ
 أيدي الرجال.. ولم تعر لها قدمُ
 بطن الثرى.. وهو ذاك الصارم الخنمُ
 فني فقال: وهل بعدَ الحسين فمُ

(١) تخلص فيها لتعزية الإمام السيد أبي الحسن الموسوي الأصبهاني.

ما حيلتي.. قد جرى في ذلك القلم
عاضوا غمار الأسي.. والقلب مضطرب
بجر من الخلق بالأرواح يلتطم
فشيعوا ذلك الدين الذي علموا

ولست أحسب أن يجري به قلبي
لخافت الملاء الأعلى عليك.. وقد
فليس نعشك إلا كالسفين على
حفت به علماء الدين قاطبة

• • •

ولو أرادوا كلاماً خانت الكلم
عري مسامعهم من قبله الصمم
حزناً.. فكل فؤاد ملؤه ضرر
فمن بلاد بأعري الحزن بصطدم
وغاب عتاء.. فغاب الحكم والحكم
إذ غاب من فيه عقد الفضل ينتظم
بعد (الحسين).. وما يجدي لنا الألم

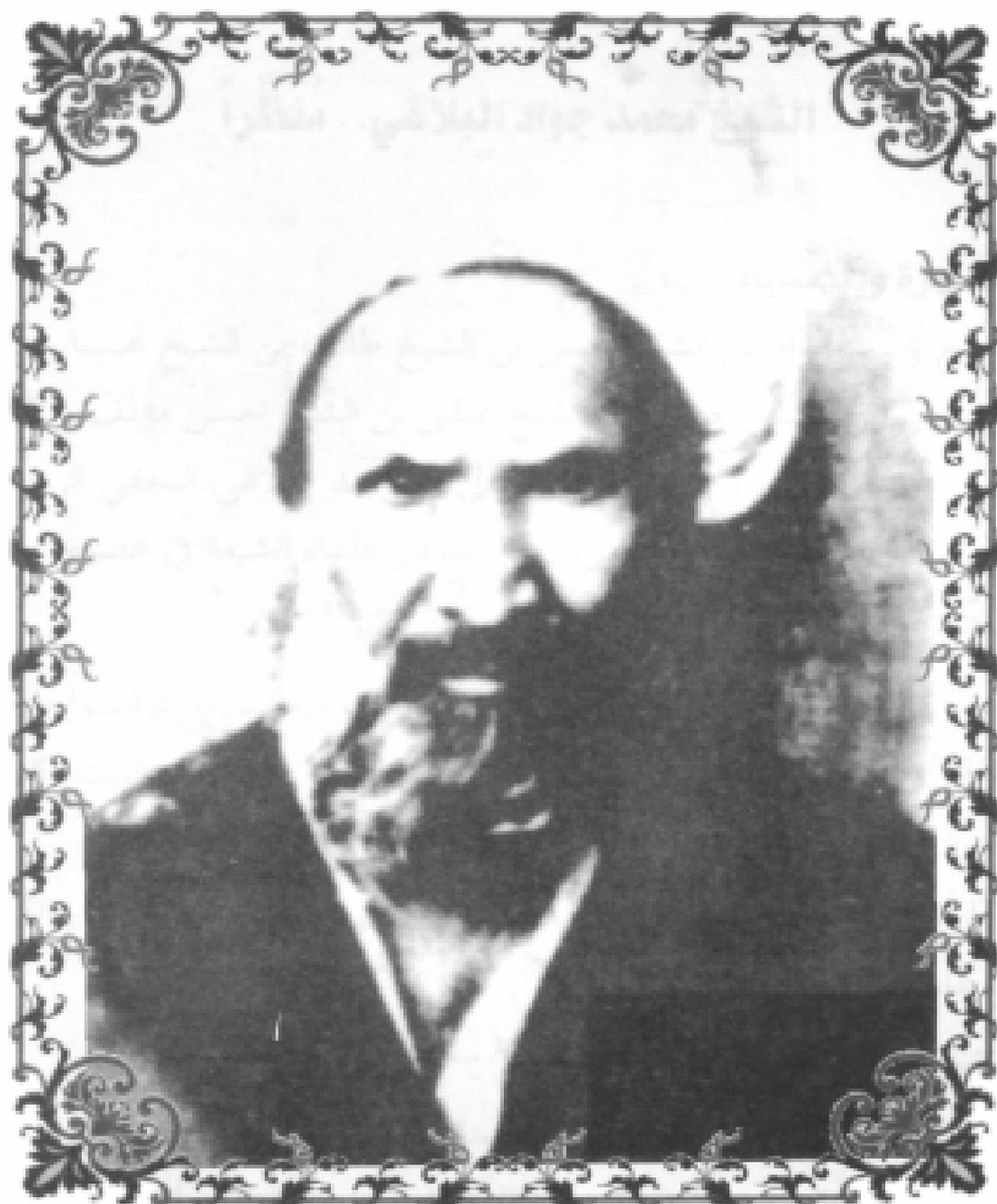
وواجمين ولم تنبس لهم شفة
ودوا -وقد طرق الأسماع نعيك- لو
إذ كان نعيك في الأفاق طبقتها
تجاوبت فيك أسلاك النعي أسى
خلا الندى.. فلا ذاك الإمام به
وأصبح الفضل منشوراً بمضيعة
فحسب ذاك الدين ما قاساه من ألم

• • •

وكان بدر الهدى... إن عمّت الظلم
والنفس بعنك عن لهج الرشاد عموا
هنا.. فما بالهم في القسمة اعتصموا؟
عليك... ها هي للتأبين تزدحم
وجداننا كل شيء بعدكم عدم

يا عيلماً كان فرداً في فضائله
القوم بعنك في لجج الهوى انغمسوا
تلاقفوا الملاء الأذن فحسبهم
تلك الجموع التي في دينها تزدحمت
وإنما فيك هذا اليوم تشدنا

• • •



الشيخ محمد جواد البلاغي.. مُنظراً

الشهرة والنسب:

الشيخ محمد جواد بن الشيخ حسن بن الشيخ طالب بن الشيخ عباس بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ حسين بن الشيخ عباس بن الشيخ حسن مؤلف (تنقيح المقال) بن الشيخ عباس بن الشيخ محمد علي بن محمد البلاغي النحفي الربعي، نسبة إلى ربيعة القبيلة العربية المشهورة. من مشاهير علماء الشيعة في عصره. علامة جليل، ومجاهد كبير، ومؤلف مكثر عبقري^(١).

انحدر من سلسلة علماء أعلام طيلة أربعة قرون متعاقبة، عرفوا بالجد والاشتغال والتحصيل العلمي العالي، والمثابرة على التفقه بعلوم أهل البيت كإبراهيم بن كابر، وهم مجموعة من العلماء والأدباء والشعراء والمؤلفين والبلاغيين. وآل البلاغي «من أقدم بيوتات النحف وأغرقها في العلم والفضل والأدب، أنجبت عدة من رجال العلم والدين»^(٢).

نشأته العلمية وأساتيده:

ولد علم الأعلام وحجة الإسلام وأستاذ المراجع العظام الشيخ محمد الجواد البلاغي عام ١٢٨٢ هـ^(٣) في النحف الأشرف موطن آيائه وأجداده بعد هجرتهم إليها من لبنان الأشم، ونشأ بها نشأة علمية متميزة وبعد أخذه

(١) ظ: آغا بزرك / نقيب البشر ١/ ٣٢٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وفي معارف الرجال ١/ ١٩٦ أنه ولد في ١٢٨٠ / محمد حرز الدين.

لمقدمات العلوم على خيرة فضلائها، ثمحض للدراسات العليا على طائفة كريمة من أعلام عصره، أبرزهم:

- ١- الشيخ محمد طه نجف.
- ٢- الشيخ آغا رضا الهمداني.
- ٣- المولى الشيخ محمد كاظم الخراساني.
- ٤- السيد محمد الموسوي الهندي.
- ٥- الشيخ محمد تقي الشيرازي/ قائد الثورة العراقية.

حتى إذا بلغ مرحلة متقدمة في الشوط الدراسي، عكف على دراسة النصوص، والآثار العالمية للديانات الإنسانية، وتخصص بعقائد الإسلام واليهودية والمسيحية، فكان نسيج وحده في اختيار هذا المنهج، ووحيد عصره في الاستتاج ودقة النظر، ومرجع المثقفين وقادة الفكر في عقائد الأديان.

ولدى إكمال متطلبات دراسته العليا في النجف الأشرف هاجر إلى سامراء المشرفة في صحبة الشيخ محمد تقي الشيرازي وحضر عليه عشر سنين «وعكف على الدرس والتدريس فيها، وصنف فيها كتابه: داعي الإسلام وداعي النصارى»^(١).

وغادر سامراء لدى الاحتلال الانكليزي لها، وقصد الكاظمية المقدسة، وأقام فيها سنتين يدعو إلى الثورة ومحاربة الانكليز، مطالباً بالاستقلال ومسانداً للأحرار^(٢).

ثم عاد إلى النجف الأشرف مريباً لجيل من العلماء، ومكباً على التأليف والتصنيف والردّ على الشبهات، ومناظرة المتحرفين على الإسلام، ويكفيه فخراً ومزلة أن من بين تلامذته من تسّم المرجعية العليا، ومن أبرزهم:

(١) جعفر النقدي/ الروض النضير / ٢٠٤.
(٢) ظ: علي الخاقاني / شعراء الفري ٢/ ٤٢٧.

١- السيد محسن الطباطبائي الحكيم (١٣٠٦هـ - ١٣٩٠هـ).

٢- السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (١٣١٧هـ - ١٤١٣هـ).

وله معهما أحاديث خاصة في التوجيه والرأي والمكاشفة، وكان له الفضل الأكبر في إعدادها إعداداً متميزاً، بما أصبح له أهلاً في مستقبل الأيام.

وقد أفاد العلمان البارزان من سيرة الشيخ البلاغي وزهده وورعه أروع الأمثلة، وأسمى مراتب السلوك والهدي العرفاني. فقد طلب سدة الروضة الحيدرية من السيد محسن الحكيم في شبابه أن يقيم صلاة الجماعة في الحرم الحيدري الشريف، وأصروا عليه إصراراً كبيراً، وكان السيد الحكيم قدس سره معروفاً بحسن السيرة ونقاء السريرة وطهر الضمير منذ شبابه المبكر.

يقول السيد الحكيم: فقلت في نفسي؛ أستشير أستاذي الشيخ البلاغي في الأمر، وفتحه في الموضوع، فوجد ذلك ضرورياً لما يعرف من جدارة تلميذه بذلك، ولكن السيد الحكيم راجع نفسه وأعرض عن الأمر، فما أراد الصدارة في عنفوان الشباب.

والسيد الخوئي عاش حياة مُرهقةً من الحرمان، فقرر ترك الدراسة والذهاب إلى بغداد بغية الكسب، ولكنه قرر الاستنارة برأي أستاذه الذي يعبر عنه في كتبه دائماً بـ «بطل العلم المجاهد».

يقول السيد الخوئي قدس سره، ذهبت إلى الشيخ البلاغي في رمضان وأنا مصمم على ترك الحياة العلمية، والتوجه نحو العمل نظراً للضائقة الاقتصادية المضنية، وحينما استقر به المجلس قرب الشيخ البلاغي نساء لا عن الحال!! فقال البلاغي: هذا شهر رمضان وأنا صائم، وأحنّ كثيراً إلى شرب قدح من الشاي، وليس إلى ذلك من سبيل، إذ لا يتيسر لي ذلك، والدني عندها شيء من السكر والشاي من مالها الخاص، ولا أجرأ أن أطلب منها ذلك، وأنا في حيرة بين الرغبة في الشاي، والاشفاق عن الطلب من الوالدة!!

يقول السيد الخوئي: فقلت في نفسي: هذا أستاذي الأعظم علي ماهو عليه من العلم والمثلة الرفيعة، لا يستطيع أن يشرب قدحاً من شاي في رمضان، وأنا أريد أن أترك حياة العلم لأني بائس محتاج!! وقررت حينذاك الصبر على الجوع ومواصلة الدراسة مهما بلغ الأمر.

في هذين المثلين دلالة إيجابية على ما يمتلكه الشيخ البلاغي من حبّ وولاء وريادة لدى هذين العلمين، باعتباره موجّهاً ومرشداً ودليلاً إلى النهج القويم.

خَلْقُهُ وَخُلُقُهُ:

وصف الشيخ جعفر آل محبوبة ذلك فقال: «كان نحيف البدن، واهن القوى، يتكلف الكلام، ويعجز في أكثر الأحيان عن البيان -أيام شيخوخته-... وكان لين العريكة، خفيف الروح، منبسط الكف، لا يمزح ولا يبح أن يمزح أحد أمامه، تبدو عليه هية الأبرار، وتقرأ على أساريره صفات أهل التقى والصلاح.

له في الحسين(عليه السلام) عقيدة راسخة وحبّ ثابت، فكم له أمام المناوئين للحسين(عليه السلام) من مواقف مشهورة، ولولاه لأمات المعاندون الشعائر الحسينية والمجالس العزائية، ولكنه تمسك بها والتزم بشعائرها، وقام بها غير قيام.

وله اليد الطولى في تحريض رجال الدين على إنقاذ الدار التي اتخذها البايون في كرخ بغداد بمحلة الشيخ بشار كعبة لهم يقدسونها، وجعلها حسينية تقام بها شعائر أهل البيت(عليهم السلام) حتى اليوم»^(١).

السيرة العطرة:

هذا المناخ يدعونا إلى متابعة سيرة هذا البطل المناضل في حياته الخاصة كما سمعتها من معاصريه ومشايخنا الماضين، وكما قرأناها في كتب التراجم.

هناك إجماع في الحوزة العلمية أن الشيخ البلاغي كان نادرة من نواذر الزمن في تصرفاته ومقرراته الخاصة والعامة. فهو في شبابه المبكر «فاضل

(١) جعفر محبوبة/ ماضي التجف وحاضرها ٢/٦٢-٦٣/ المطبعة العلمية/ التجف/ ١٣٧٤هـ

معاصر، مجتهدٌ بتحصيل العلوم، وأديبٌ شاعرٌ مصنفٌ، وهو من بيت كلهم علماء أتقياء... وله شعر حسن الانسجام»^(١).

وهو في كهولته «عالمٌ عليمٌ مهذبٌ، وفاضلٌ كاملٌ مذب، وآباؤه كلهم من أهل العلم»^(٢).

وهو في كهولته كان قد «صرف عمره في طلب العلم وفي التأليف والتصنيف، وله عدة مؤلفات في الردود»^(٣).

وهو في سيرته المتواضعة مثال يقتدى به في السلوك العرفاني، بعيد عن الاعتبارات الوهمية الزائلة، قريب من الواقع في رياضة النفس ونكران الذات، يقضي شؤونته الخاصة بنفسه دون الاستعانة بأحد، ويشرف على قضاياها الجزئية شخصياً، فلا يكلف أحداً.

وهو في حياته العلمية رمز من الرموز الكبيرة، بحسب العزلة ولايشعر بالاغتراب، واستغل ذلك للعمل الجاد المثمر، والنضال العلمي الخيبي، فلا يرى إلا كتاباً في طرس، أو باحثاً في درس، أو مفكراً في مسألة، أو محرراً لرسالة، أو محبباً عن أسئلة.

وكان مع أترابه وأقرانه دمث الأخلاق، نقي السيرة، عفّ اليد واللسان، رقيق الحاشية، يميل إلى الترسل والبساطة، ويتمتع بالوفاء الخالص.

وكان لاتصاله الوثيق بالسيد محمد سعيد الحبيبي النحفي قائد الجهاد ضد الانكليز، الأثر البارز في روحه الفذة، فقد كان عرفانياً رائعاً، وسلوكياً شامخاً، وإنساناً متكاملأً، يضاف إلى هذا كله؛ تأثيره بمناخه الأدبي، فعاد شاعراً من فحول شعراء العربية، وإن زهد بالشهرة والصبب الذائع، لأنه يحيا حياة العازفين عن حبّ الظهور.

(١) علي آل كاشف الغطاء / الحصون المنيعه ١٨٦/٩.

(٢) جعفر النقدي / الروض النضير / ٣٠٤.

(٣) محسن الأمين الحسيني العاملي / أعيان اليمه ٦٨/١٧.

وكان معاصره الشيخ آغا بزرك الطهراني، قد قيّمه تقيماً دقيقاً في قدراته وقابليّاته ونضاله في سبيل الإسلام، فقال: «وكان من أولئك الأقداد النادرين الذين أوقفوا حياتهم، وكرّسوا أوقاتهم لخدمة الدين والحقيقة، وقد وقف قبالة النصاري وأمام تيار الغرب الجارف، فمثّل لهم سمو الإسلام على جميع الملل والأديان، حتى أصبح له الشأن العظيم والمكانة المرموقة بين علماء النصاري وفضلاتها»^(١).

ويقول السيد محسن الأمين الحسيني العاملي زميله ورفيقه في النضال العلمي: «صاحبنا في النجف أرام إقامتنا فيها، ورغب في صحة العاملين فصاحبنا وخالطناه حضراً وسفراً عدة سنين إلى وقت هجرتنا من النجف فلم نر منه إلا كل خلق حسن وتقوى وعبادة، وكل صفة تحمد، وجرت بيننا وبينه بعد خروجنا من النجف مراسلات ومحاورات شعرية ومكاتبات، في مسائل علمية، وكان شريكنا في الدرس عند مشايخنا في النجف»^(٢).

لم يحاول الشيخ البلاغي مجدداً دنوباً على الإطلاق، وكان مجده الشامخ في قلمه السيال، ولم يطلب جاهاً فله الواجهة في عشوعه وإتابته وتضرّعه إلى الله تعالى، ولم يتصدر للزعامة وهو أهل للزعامة الدينية، واكتفى بالصلاة جماعة في مسجد قرب بيته، فتأتم به طائفة من الأعلام، فإذا انتهى من ذلك بدأ بتدريس محاضراته في القرآن الكريم بأسلوب جديد وعرض جديد، يمثل ذلك كتابه النفيس: آلاء الرحمن في تفسير القرآن، ومما يؤسف له أنه لم يكمل، فقد فاجأه الموت قبل إنجازه.

وتحدث عنه معاصره الشيخ جعفر محبوبة مؤرخ النجف الأشرف، فقال: «هو ركن الشيعة وعمادها، وعزّ الشريعة وسنادها، صاحب القلم الذي سبح في بحر العلوم، التاهل من موارد المعقول والمنقول، كما من صحيفة حبرها،

(١) آغا بزرك / نقياء البشر ١ / ٢٢٢ وما بعدها.

(٢) محسن الأمين العاملي / أعيان الشيعة ١٧ / ٦٨.

وألوكة حرّرها، وهو بما حَبَّر فضح الحاخام والشماس، وبما حرر ملك رقّ الرهبان والأقساس، كان مجاهداً بقلمه طيلة عمره، وقد أوقف حياته على الذبّ عن الدين، ودحض شبه الماديين والطبيين، فهو جُنّة حصينة ودرع رصينة، له بقلمه مواقف قلّت جيوش الأحماد، وشتت جيوش العادين على الإسلام والطاعنين فيه، وله إلمامٌ ببعض اللغات الأجنبية، وهو مع تبحره في العلوم الروحية ذو سهم وافر من النظم، فهو شاعر محسن مجيد»^(١).

ويقول الأستاذ علي الخاقاني:

«ومن نظر سيرة المترجم له يجده قد تأثر بسيرة الأولياء الذين جاوزوا ومضوا ولم يكن لهم من قصد سوى القيام بما يجب عليهم من خدمة البشر والعقل والحق، وقد كان (قدس سره) مثال هذه السيرة التي تجمعت الحق وهدفت خدمته، فقد تخصص للدفاع عن الإسلام الذي سما على جميع الأديان، وذبّ عنه أمام تيار الغرب الجبار، فكان يستمد الصمود من مبدئه، والشجاعة من موجدته، وقف وقفة خللته في قلوب خصومه النصارى فضلاً عن المسلمين، وعرفه علماءهم أكثر من معرفة أبناء وطنه له»^(٢).

النضال العلمي في مسيرة الشيخ البلاغي:

كان نضال الشيخ البلاغي العلمي منسقاً مع نضاله الاقتصادي، فقد عاش حياة الفقر والحرمات شأنه بذلك شأن المكافحين الذين لا يجردون إلى سدّ الرمق سبيلاً، وكان رائده المركزي الدفاع عن الإسلام أولاً، وإغناء التراث بأصيل الأفكار متحدياً العقبات والأزمات.

بدأ قدس سره مسيرته العلمية بالدرس الحوزوي الجماد، حتى إذا تكاملت أدواته في التحصيل تفرّغ للتصنيف والتأليف، فكان في آفاق عصره يمثل الآراء الجديدة المتطورة فيما تناول من بحوث طريقة، كانت مفاجأة للمناخ العام،

(١) جعفر محبوبية / ماضي النجف وحاضرها ٦٢/٢.

(٢) علي الخاقاني / شعراء الغري ٤٣٩/٢.

وقد يكون فيها حرق لنواميسي بيثة النحف الأشرف في اقتصارها على الفقه وأصوله، أو على التفسير وشؤونه، أو على علم الدراية والرواية والرجال، وهو وإن برع في هذه المجالات كافة، إلا أنه جرّد من نفسه مناظلاً منظرّاً عن مبادئ العقيدة الإسلامية ضد الحملات الصليبية المنظمة، وفي قبال المدّ الصهيوني المتصاعد، فنفرغ لدراسة اللغة العبرية ميدانياً، وأتقنها إتقاناً تاماً من خلال إقامته ببغداد، جاور فيها اليهود، فرع في تعلم لغتهم عملاً بما ينسب إلى أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام)، أنه قال: «من تعلّم لغة قوم أمن مكرهم» وهكذا كان.

لقد درس الشيخ البلاغي التلمود اليهودي بروية، وأناة، فردّ على الدسّ الصهيوني في أبعاد شتى. وخرّ التبشير المسيحي فأوقف نفسه على صدّ المحمات الظالمة، وتفنيد الزعمات المشبوهة، وكشّف الانحراف المستهدف بتلك الكراريس والنشرات والمؤلفات التي تناولت الإسلام بالتحريح.

وقد تابع (قدس سره) دعوات الزندقة والكفر والإلحاد، فجاهها بالإبطال، وهو يقع الحجة بالحجة، ويعاود الدليل بالدليل، وقد دافع من هذا الخلال عن التوحيد دفاع المستميت، ونفى الإشراك والتثليث، وحمل على الشرك الخفي والجلي، ونزّه الباري عن التشبيه والتجسيم ودعاوى الصورة.

وكان في هذا المجال قد لهض بعء المسؤولية الكبرى، وأداء الأمانة الفادح، فكم من موقف له مع المتطرفين من اليهود والنصارى ردّهم فيه على الأعقاب، وكم من شبهة لدى المنحرفين أوقفهم في تفكيكها على الصواب.

ودعا إلى وحدة المذاهب الإسلامية، وحمل على سياسة التفريق بين المسلمين حملة شعواء، ودافع عن مبادئ أهل البيت (عليهم السلام)، ونشر مرتكزات التشيّع على أساس سليم، فأبطل فتاوى الوهابيين، وسفّه أحلام النواصب، وهو بذلك يحمل لواء لإصلاح بيد، ويرفع راية الإسلام بيد أخرى. وليس غريباً

عليه بنضاله هذا أن يعهد إلى الأذهان جهود المسلمين الأوائل، وينشر في الأفاق علوم الأساطين ومعارفهم الكبرى، فكم من مبحث نشره باسم مستعار، وكم من مؤلف لم يذكر فيه اسمه، رائده بذلك الوصول إلى حقائق الأشياء وإيصالها للمجتمع الإسلامي دون دواعي الشهرة ومظاهر البروز.

«ولقد سئل يوماً عن سبب ذلك، فقال: المقصود من عملي إبراز الحق والدفاع عنه من أي طريق كان، فلا فرق بين أن أكون قد جئت به أنا أو غيري، فالغاية العمل»^(١).

والحقاقني قد أفاد هذا من الشيخ آغا بزرك من دون الإشارة إليه. يقول الشيخ آغا بزرك: «وقد كان من خلوص النية وإخلاص العمل بمكان، حتى أنه كان لا يرضى أن يوضع اسمه على تأليفه عند طبعها، وكان يقول: أنا لأقصد إلا الدفاع عن الحق، ولا فرق عندي بين أن يكون باسمي أو اسم غيري، ومع كل ذلك أصبح ناراً على علم، وبلغت شهرته أقاصي البلاد، وذلك لما عاجله من المعضلات العلمية والمناقشات الدينية التي أقيم لها الوزن الراجح في عواصم أوروبا. وقد اتصل به أعلام (لورنדה) وغيرها، وكانوا يفرعون إليه في المسائل العويصة، ومن المستفيدين منه «المستر خالد شردراك» فإنه كان يعول على المترجم له في المشاكل. وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى الإنجليزية للاستفادة من مضامينها الراقية»^(٢).

وكان تطلعات الشيخ البلاغي في مؤلفاته وبحوثه تتسم بالأصالة والإبداع، وكان وراء ذلك الهدف المركزي الأول المتمثل بالنصح لأمة محمد (ﷺ)، والإخلاص للمبادئ الإسلامية العليا؛ وهكذا كان في دفاعه عن الهدى، ودعوته إلى دين المصطفى، وذوده عن حياض الإسلام.

(١) علي الخاقاني / شعراء الغري ٢/ ٤٣٩.

(٢) آغا بزرك / نقباء البشر ١/ ٣٢٤.

وكانت روحه السلوكية في رياضة النفس لائحة السمات والمعالم على النهج الذي اختطه فيما كتب وصنّف، وكان صداها متجاوباً فيما ابتكر ووجد، فهو لا يرى نفسه شيئاً، وهو يقهرها على الاتصاف بسيرة الأبرار والصالحين سلوكاً وعملاً «كان متواضعاً للغاية يمارس حاجياته بنفسه، ويختلف على الأسواق لا يتباع ما يلزم له»^(١).

وبهذا يقترن الغرض السلوكي بالغرض العلمي الذي تمحض له.

مؤلفات البلاغي وآثاره:

يمكن تصنيف آثار الشيخ البلاغي ومؤلفاته إلى ثلاثة مجاميع رئيسة:

١- كتب التخصص الدقيق في علوم الشريعة الفراء.

٢- كتب الرد على الشبهات وأعداء الإسلام.

٣- كتب الدفاع عن مبدأ أهل البيت (عليهم السلام).

وهذه الحقول الثلاثة قد استوعبها البلاغي في مجاميعه التأليفية النادرة، وهو حينما يجاهد لإخراجها قد لا يستطيع طبعها، فبقي أكثرها مخطوطاً، وطبع قسم منها.

«كان في كل كتاب يكمل عنده لا يستطيع طبعه وإخراجه، حتى بلغ به الحال غير مرّة أن باع آثاثة بيته لطبعة ولا انتفاع الناس به»^(٢).

وينبغي أن نشير إلى أن كتب العلامة البلاغي في عصره كانت تمثل قفزة نوعية في عالم التأليف، فقد سلك فيها منهجاً جديداً في البحث والأفكار، اعتمد أسلوب الجدل الحرّ في قضايا العصر الساخنة، حتى عدّ فيها من الخالدين.

يقول المحقق الثبت الشيخ آغا بزرك (قدس سره):

(١) علي الخاقاني / شعراء القرني ٢ / ١٤٠.

(٢) المصدر السابق.

«وفي الحقيقة لم يمت من حَلَف ما خلفه المترجم من الآثار التي تهتدي بها الأجيال، ويحتج بها الأبطال، فإن في مؤلفاته ثمراتٍ ناضجة قدّمها المترجم لرواد الحقيقة»^(١).

وإنني أهيب بأسرة آل البلاغي، وشياهم اليقظ أصحاب مشاريع خيرية ودينية عديدة، أن يتوجهوا إلى هذه المؤلفات الفريدة بإحيائها نشرأً يتناسب مع أهميتها التراثية، وبعنوان «موسوعة الشيخ البلاغي» أو «الأعمال الكاملة للشيخ البلاغي» وترصف جميعها في طبعة أنيقة يتداولها الجيل الناهض المتحفز، سيما وأن أغلبها مخطوط، وأن المطبوع منها لا تتوفر نسخه، وفي هذا العمل إحياء معنوي للعلامة البلاغي، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

وفيه إثارة لأجداد هذه الأسرة العريقة في العلم والشرف. وفيه أيضاً بعث للتراث الإمامي المتطور.

ونحن بدورنا في هذا البحث الاستذكاري للعلامة البلاغي (قدس سره) الشريف، نشير إلى حملة هذه المجموع الخالدة بحسب الإيجاز والاختصار، ونرمز إلى المطبوع منها بحرف (ط) وإلى المخطوط بحرف (خ).

المجموعة الأولى: وهي تتضمن كتبه في تفسير القرآن العظيم والفقه والأصول وأجوبة المسائل الشرعية، وأبرزها:

١- آلاء الرحمن في تفسير القرآن/ طبع منه الجزء الأول والثاني والثالث/ وهو من أنفس التفاسير لغة وأسلوباً وطرحاً.

٢- أجوبة المسائل البيعدادية في أصول الدين/ ط.

٣- رسالة في وضوء الإمامية وصلاتهم وصومهم -ط- بالإنجليزية.

٤- الأصل العربي للرسالة المطبوعة بالانكليزية -خ-

(١) أغا بزرك/ نيقبأ البشر ١/ ٣٢٤.

- ٥- العقود المفصلة في حل المسائل المشككة /ط/
 ٦- تعليقة على مباحث البيع من مكاسب الشيخ الأنصاري /ط/
 ٧- أجوبة المسائل التبريزية /خ/
 ٨- رسالة في القبلة، وتعيين بعض البلدان المهمة في العالم بحسب الاختلاف بخطوط الطول والعرض /خ/
 ٩- رسالة في مواقيت الإحرام للحج والعمرة /خ/
 ١٠- رسالة في ذبائح أهل الكتاب /خ/
 ١١- رسالة في التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري /خ/
 ١٢- رسالة في حرمة مسّ كتابة المصحف للمحدث /خ/
 ١٣- رسالة في أحكام الفسالة /خ/
 ١٤- رسالة في الخيارات /خ/
 ١٥- تعليقة على كتاب الشفعة من جواهر الكلام للشيخ محمد حسن الجواهري /خ/
 ١٦- رسالة في منجزات المريض /خ/
 ١٧- رسالة في إقرار المريض /خ/
 ١٨- رسالة في الرضاع /خ/
 ١٩- رسالة في فروع الرضاع على المذاهب الخمسة /خ/
 ٢٠- رسالة في التقليد /خ/
 ٢١- رسالة في الأوامر والنواهي /خ/
 ٢٢- رسالة في العول والتعصيب /خ/
 ٢٣- رسالة في صلاة الجمعة /خ/
 ٢٤- رسالة في اللباس المشكوك /خ/

٢٥- تعليقة على العروة الوثقى للسيد محمد كاظم اليزدي /خ/
وهذه الكتب تكشف عن مدى القدرات الهائلة في التفسير وفروع الفقه
وأحكام الشريعة التي ضبطها العلامة البلاغي ضبطاً، وهي دليل اجتهاده المطلق من
دون ريب.

المجموعة الثانية: وهي تنتظم جهود الشيخ البلاغي في الردود على
الشبهات، وقضايا اليهودية والمسيحية والتبشير وأعداء الإسلام وأبرزها:

٢٦- الهدى إلى دين المصطفى -جزءان- في الردّ على عبدة الثالوث /ط/
٢٧- أنوار الهدى في إبطال بعض شبه الإلحادية /ط/
٢٨- الرحلة المدرسية أو المدرسة السيارة في ثلاثة أجزاء، في الردّ على
الملل الخاطئة، طبع مرتين/ وترجم إلى القارسية وطبع.

٢٩- نصائح الهدى /في الردّ على البابية/ ط/
٣٠- أعاجيب الأكاذيب /في مفتريات النصارى /ط/
٣١- التوحيد والتثليث /في الردّ على النصارى /ط/
٣٢- الشهاب /في الردّ على كتاب (حياة المسيح) /خ/
٣٣- المصاييح / في الردّ على المذهب القادياني /خ/
٣٤- الردّ على كتاب (بنايع الكلام) لبعض المسيحيين /خ/
٣٥- رسالة في الردّ على: جرجيس سائل وهاشم العربي /خ/
٣٦- رسالة في الردّ على كتاب (تعليم العلماء).

المجموعة الثالثة: وهي تنتظم عدة مؤلفات للعلامة البلاغي في الدفاع عن
مبدأ أهل البيت (عليهم السلام)، وردّ افتراءات أعدائهم.

٣٧- البلاغ المبين /في الألهيات /ط/
٣٨- إبطال فتوى الوهابيين بهدم قبور أئمة البقيع /ط/

٣٩- رسالة في إبطال فتوى الوهابيين أيضاً /ط/

٤٠- إلزام المتدين بأحكام دينه /خ/

هذه أهم مؤلفات العلامة البلاغي جهدت باستخراجها من كتب التراجم والرجال والأدب، واعتمدنا في أغلبها على ما ذكره الشيخ آغا بزرك في نقيب البشر ١/٣٢٤-٣٢٥.

وهي ثروة فكرية فارعة، ضمت أشثاتاً من العلوم والمناظرات والمخاورات والأدلة والحجج والبراهين في مجالاتها المختلفة.

البلاغي في شاعريته الفذة:

يعدّ العلامة البلاغي في طليعة شعراء عصره، ولم يكن الشعر بمهمة أساسية في مسيرته الثقافية، ولكنه شهر الشعر سلاحاً في معركته ضد الانحراف والشبهات المعاصرة، وكان في ذلك شاعراً جزلاً متميزاً، وسأورد بعض شعره في هذا المجال وأمثاله.

فله قصيدة حافلة بالحجاج المنطقي، أجاب فيها أحد شعراء بغداد، وهو يناقش أمر الحجة المنتظر(عج) عام ١٣١٧هـ وإليك الأصل، ونعقبه برّد البلاغي عليه:

أيا علماء العصر يا من لهم حمرٌ	بكلّ دقيقٍ حارٍ في مثله الفكرُ
لقد حار مني الفكر في القائم الذي	تنازع فيه الناس، والتبس الأمرُ
فمن قائلٍ في القشر لبّ وجوده	ومن قائلٍ قد ذبّ عن لبّ القشرُ
وأول هذين الذين تقررا	به العقل يقضي والعيان.. ولا نكرُ
وكيفَ وهذا الوقت داعٍ لئله	ففيه توالى الظلم وانتشر الشرُ
وإن قيل من خوف الطغاة قد انخفى	فذاك لعمرى لا يجوزُه الحجرُ
وإن قيل من خوف الأداة قد انخفى	فذلك قول عن معائب يفتُرُ
ومن عيب هذا القول لاشك أنه	يؤول إلى حين الإمام وينحُرُ

وإن قيل أن الاختفاء بأمر من
فذلك أدهى الداهيات ولم يقل
أبعجز رب الخلق عن نصر حزبه
وما أسعد السرداب في سرمن رأى

وقد ردّ عليه البلاغي:

أطعت الهوى فيهم فعاصاني الصبر
أنستهم سهل القفار ووعرها
أحبا سفر سيان أغتنم السرى
بذاملة ما أنكرت ألم الجوى
يضيق بها صدر الفضا فكأنها
نحن إذا ذكرتها بديارهم
وشلاللة أدبتها بصبايبي
أروح وقلبي للواعج والجوى
وأحمل أوزار الفرام كأنه
وكم لذّ لي خلع العذار وإن يكن
علقت بهم طفلاً فكانت ثمالي
ومازج دري حبه يوم ساغ لي
نعمت بحبيهم ولكن بليتي
ونائين تدنيهم إلي صبايبي
فمن نازح قد غيب الرسم شخصه
أطال زمان البين والصبر عاني
إلام وكم تنكى بقلبي جراحة

له الأمر في الأكوان والحمد والشكر
به أحد إلا أحو السفه الغمر
على غيرهم حاشا فهذا هو الكفر
له الفضل عن أم القرى وله الفخر

فها أنا مالي فيه نسي ولا أمر
فما راعني منهن سهل ولا وعر
من الليل تغليسا إذا عرس السفر
وما صدّها عن قصد ما مهمه قفر
بصدر مذبذب عني عن كتفه السر
حين مشوق هاج لوعته الذكر
إذا حاجها شوق الديار فلا نكر
مباخ وأحفاني عليها الكرى حجر
غرام به ينحط عن كاهلي الوزر
لحي آل المصطفى فهو لي عذر
مودتهم لا ما يقلده النحر
ولولا مزاج الحب ما ساغ لي در
بيئتهم والبين مَطْعْمُهُ مر
فمن أعين غابوا وفي كيدي قرّوا
ومن غائب قد حان من دونه السر
وما يصنع الوهّان إن خاتة الصبر
من البين لا يأتي على قعرها سر

فكم سائلٍ عنه تسيلُ مدامعي
 فيا سائلاً سمعاً لأية مُعجزٍ
 إنا رضعنا صعبَ الفكرِ قدي قد كبا
 فما الحجرُ في التقليدِ إلا حجارة
 لتدرك فيه الحسن والقبح مثل ما
 فإن قلت بالعدل الذي قال ذو النهي
 ودنت بتزييه الإله وإنه
 وجانبت قول الجبر علماً بأنه
 وأقررت لله اللطيف بأنه
 وأوجبت باللطف الإمام وأنه
 وعانيت فيمن مات فهو لذي الحصى
 تؤسس ببيان الصواب على التقى
 وفي حجر الثقلين هاد إلى الذي
 إذا قال حجر الرسل لن يتفرقا
 وما إن تمسكتم تبيك إنهم
 ولما انطوى عصر الخلافة وانتهى
 وزاد يزيد الدين نقصاً وبعده
 تنادي لإحياء الهدى عنرة الهدى
 وكم بنلوا في الوعظ والزجر جهلهم
 وكم تدبوا لله سرّاً وجهرة
 إلى أن تفتانوا كاهراً بعد كاهر
 ولا مثل يوم الطفِّ يوم فجيعة

بتذكاره وكفأ كما يكفُ القطرُ
 بآياته لا ما يزخر فيه الشعرُ
 (لعل لك) في دحض الغار بك الفكرُ
 وليس بغير الجحد يصفو لك الحجرُ
 يحسّ بحس الذائق الحلو والمرُ
 به وله يهدي بمحكمه الذكرُ
 غني فلا يلجيه في فعله فقرُ
 ينوبُ أصول الدين من وهمه كسرُ
 حكيم له في كل أفعاله سرُ
 به من عصاة الخلق ينقطع العذرُ
 شفاء إذا أعبى بأدوائه الصدرُ
 ويطلع من أفق اليقين لك الفجرُ
 تنازع فيه الناس والتبس الأمرُ
 فكيف إذن يخلو من العنرة العصرُ
 هم السادة المهادون والقادة الغرُ
 فلف بساط العدل وابتدأ الشرُ
 دهي بالوليد القرود أم الهدى عقرُ
 فما عاقبهم قتل ولا هالم ضرُ
 ولم يجحد بالغاوين وعظ ولا زجرُ
 وقد خلصا منهم له السر والجهرُ
 وما دولة إلا وفيها لهم وترُ
 لذكراه في الأيام ينقصم الظهرُ

إذا سفحت من ذوبها الأدمع الحمرُ
 إليه وآذان الوري صكها وقرُ
 ويظهر من مكنون أسمائه وفرُ
 عصائب يفرها به البغي والغدرُ
 خليل فأضحى ربح همهم الحمرُ
 وكانوا بما هموا لجدهم العشرُ
 كعيسى ويحيى آيةً وله الفخرُ
 من العلم لا ساجي العباب ولا نزرُ
 أهل بعد هذا في إمامته نكرُ؟
 يراه له في علمه وله الجهرُ
 وفيه لآل المصطفى يدرك الوترُ
 يشد له بالروح في ملكه الأزرُ
 ومعلوها قسطاً ويرتفع المكرُ
 على قتله وهو المؤيده النصرُ
 (إلى وقت عيسى يستطل له العمُ
 وعن أمره منه النهوض أو الصبرُ
 ولكن بأمر الله حير له السترُ
 غداً يخبثيه من حوى السر والجرُ
 وتعنو له حتى المثقفة السمُ
 قرب اختفاء فيه يستقر النصرُ
 يفر أحو بأس ليكنه الكرُ
 على موعد فيها إلى ربهم فرُوا

يذيب سويدا القلب حزناً فعاذر
 ومد أعذروا بالنصح لله والدعا
 وشاء إله العرش أن يعضد الهدى
 تألب أحزاب الضلال لقتله
 وهوا به عبطا كموسى وجده الـ
 فأغشاهم عنه وغشاه نوره
 وقام لخمسي بالإمامة آية
 إذا أم معصوم من الآل زاحر
 وكان كداوود فسل هيثمكم
 وغاب بأمر الله للأجل الذي
 وواعده أن يحيى الدين سيفه
 ويخدمه الأملاك جنداً وأنه
 (وإن جميع الأرض ترجع ملكه
 (وإن ليس بين الناس من هو قادرُ
 فأيقن أن الوعد حق وأنه
 فسلم تفويضاً إلى الله صابراً
 ولم يكن من خوف الأداة اختفاؤه
 (وحاشاه من حين ولكن هو الذي
 (ويرهب منه الباسلون جميعهم
 أكل اختفاء خلعت من عيفة الأذى
 وكل فرار خلعت حيناً فرعاً
 فكم قد تمادت للنبيين غيبة

وإن يوم الغار والشعب قبله
ولم أدر لم أنكرت كون اختفائه
أنحصر أمر الله بالعجز أم لدى
(فذلك أدهى الداهيات ولم يقل
ودونك أمر الأنبياء وما لقوا
فمنهم فريق قد سقاهم حمامهم
(أيعجز رب الخلق عن نصر حزبه
وكم عتف بين الشعاب وهارب
(فهلأ بدا بين الوري متحملاً
وإن كنت في رب لظول بقائه
أبرضى ليب أن يعمر كافر
ودونك أبناء النبي به تزد
فكم في (ينابيع المودة) منهل
وفي غيره كم من حديث مسلسل
ومن بين أسفار التواريخ عندكم
وكم قال من أعلاكم مثل قولنا
فكم في يواقيت البيان كفاية
وذي روضة الأحباب فيها مطالب الـ

(١) تضمن هذا البيت ذكر أربعة كتب (١) اليواقيت للشعراني (٢) البيان للكني الشافعي

(٣) كفاية الطالب، أيضاً له (٤) فصل الخطاب للخواجة بارسا البخاري الحنفي.

(٢) وهذا البيت تضمن ذكر ثلاثة من الكتب (١) روضة الأحباب في سيرة النبي

والأصحاب، تأليف السيد جمال الدين عطاءالله (٢) مطالب السؤول لمحمد بن

طلحة الشافعي (٣) الفصول المهمة لنور الدين الصباغ المالكي..

نبوة فيها وهي تذكرة^(١) ذكرُ
 على كل تأريخ بتاريخه نصرُ
 شقات لدى مرآة أسراره السر^(٢)
 بسع لياليها له ارتفع السترُ
 وكل لديكم عارف ثقة برّ
 ذري وفي أعبارهِ لكم خبرُ
 (له الفضل عن أم القرى وله الفخرُ)
 على الناس من أم القرى يطلع البدرُ
 غداً أفقاً من خطه يضرب السترُ
 سحاب ومنها يشرق البرّ والبحرُ
 وتستبت الغبرا ويستكشف الضرُ
 بهم تدفع الجلى ويستزل القطرُ
 يحج وفيه يسعد النحرُ والنفرُ
 وزمزم والأستار والخيف والحجرُ
 كما غاب بين الناس إيلس والخضرُ
 ففيه توالى الظلم وانتشر الشرُ
 لعمرك (قول عن معائب يفتُرُ)
 لعلم عليم عنه لا يعزب الذرُ
 يكون إذا ما جاء بالعجب الدهرُ

مناقب آل المصطفى لشواهد الـ
 وذا الشيخ أضحى في فتوحاته^(٣) له
 ولاح بمرقاة الهداية في المكا
 وللحسن الشيخ العراقي قصة
 وصدقه الخواص فيما يقوله
 وعنه شفاها قد روى أحمد البلا
 وما أسعد السرداب حظاً ولا تقل
 لكن غاب في السرداب يوماً فإئما
 ولم يتخذهُ البدر برحاً وإئما
 وها هو بين الناس كالمس ضمها
 به تدفع الجلى ويستزل الحيا
 كما قيل في الأبدال والقطب أنهم
 ولا عجب إن كان في كل حجة
 ويعرفه بيت الحرام وركنه
 ولكنه عن أعين الناس غائب
 وقولك (هذا الوقت داع لئله
 يعيبك فيه السامعون فإنه
 فما أنت والداعي فدعه مسلماً
 وقد جاء في الآثار أن ظهوره

(١) وفي هذا البيت ذكر لثلاثة كتب (١) المناقب لأخطب خوارزم (٢) شواهد النبوة للجامي

شارح الكافية (٣) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي.

(٢) الفتوحات المكية لمحي الدين ابن العربي.

(٣) وفي هذا البيت ذكر أربعة كتب (١) المرقاة لعلي المتقي (٢) هداية السعداء للقاضي الدهلوي

(٣) الكاشفات للمولى علي أكبر المؤودي (٤) مرآة الأسرة للعارف عبد الرحمن.

من القذف بعد المسخ والخسف ما يبرو
ويحملها من جهلها المركب الوعر
على دينة ضعفاً كما يقبض الجمر
وينفخ من حافات زاهره العطر
بكل رباط فيه يتسم الثغر
حميداً.. ومن (عبد الحميد) لها نشر
وذي علماء الأمة الأنجم الزهر
(ولا يرتضيه العبد كلاً ولا الحر)
يكل بمضمار الجياد بك الفكر
به العقل والنقل اليقينان والذكر
وأنهم في عصرهم لهم الأمر
أحاديث يعي عن تواترها الحصر
هو القائم المهدي والواتر الوتر
بنور الهدى.. الحمد لله والشكر^(١)

ويعرو أناساً قد عمادوا بغيهم
وتغلو الوري إذ كان يقتادها العمى
حيارى بلا دين.. وذو الدين قايض
فكيف؟ وهذا الدين يزهر روضه
وهاهم ملوك المسلمين.. وعملهم
وذي راية التوحيد يخفق ظلها
وهذا أمر المؤمنين وعدله
فدغ عنك وهماً نمت في ظلماته
وإن شئت تقرب المدى فلرما
فمد قادننا هادي الدليل عما قضى
إلى عصمة الهادين آل محمد
وقد جاء في الآثار عن كل واحد
تعرفنا ابن العسكري وأنه
تبعنا هدي الهادي فأبلغنا المدى

وله قصيدة أخرى في ذكرى ميلاد صاحب الأمر، مطلعها:

حيّ شعبان فهو شهر سُعودي وعد وصلي فيه ولية عدي

وله قصيدة في معارضة ابن سينا في النفس التي مطلعها^(٢):

هبطت إليك من المحل الأرفع عنقواء ذات تعزز وتمتع

فقال رحمه الله في مطلع قصيدته^(٣):

نعمت بأن جاءت بخلق المبدع ثم السعادة أن يقول لها ارجعي

(١) علي الخاقاني / شعراء الغري ٢ / ٤٤٢-٤٤٩.

(٢) المرجع نفسه ٢ / ٤٤٢.

(٣) المرجع نفسه ٢ / ٤٤٩.

وفاته:

توفي الشيخ البلاغي يوم الاثنين ٢٢ شعبان / ١٣٥٢هـ وصار ليوم وفاته دويّ في النجف عند العلماء وأهل الفضل والدين، وشيّع بأحسن تشييع وتوقير، ورفعت أعلام الحزن أمام نعشه الطاهر، وجيء بجثمانه إلى الصحن الحيدري الشريف، وصلي عليه، وحددوا به عهداً بمرقد أمير المؤمنين (عليه السلام) ودفن في الحجرة الثالثة من الصحن من الربع الجنوبي الغربي^(١).

• • •

(١) محمد حوز الدين ٢٠٠/١ معارف الرجال: تحقيق محمد حسين حوز الدين / طبعة قم / ١٤٠٥هـ.



الشيخ عبد الكريم الجزائري.. مجاهداً

الولادة والنسب:

الشيخ عبد الكريم بن الشيخ علي بن الشيخ كاظم بن الشيخ جعفر بن الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن الشيخ أحمد (صاحب آيات الأحكام) ابن إسماعيل النحفي الجزائري.

من أبرز زعماء عصره، وألمع قادة النجف الأشرف، ومن العلماء الأبرار العاملين، وصفوة المجاهدين العراقيين. يحظى بتأييد شعبي عظيم، ويتمتع بسمعة وطنية إجماعية، يسحر الجماهير ببيانه، ويستقطب الجموع النائرة بأدائه، لم يكن عوداً للطغاة، ولم يتنازل لحظة واحدة للمستعمرين، حتى عاد مثلاً للنائر الصامد المجاهد.

ولد في النجف الأشرف ١٢ / جمادى الآخرة / عام ١٢٨٩ هـ - كما حدث هو بذلك نقلاً عن خط والده رحمه الله.

أسرة آل الجزائري:

من أعرق البيوت العربية المعروفة في النجف الأشرف علماً وعملاً وأصالة وشهامة، وأنبأها عفةً وورعاً وقداسة «ظهر فيهم عدد كبير من الفقهاء الأعلام والأدباء والشعراء، من لدن عصر جدهم الشيخ أحمد المتوفى في سنة ١١٥١ هـ»^(١).

(١) آغا بزرك / نقباء البشر / ١ / القسم الثالث / ١١٧٣.

والمرحوم له أكبر علماء هذا البيت الشريف ممن عاصرنا، ورث ذلك عن آبائه وأسلافه الأعاظم، وجده الأعلى الشيخ أحمد الجزائري مؤلف قلائد الدرر المعرف بـ «آيات الأحكام» مفخرة هذا البيت رفعة ومجداً وتأصيلاً.

وآل الجزائري أسرة نجفية سكنت النجف الأشرف منذ عدة قرون، هاجرت إليه من قصبة «الجزائر» جنوب العراق، واستقرت بجوار أمير المؤمنين (عليه السلام) لطلب العلم، فيهم الشباب الإسلامي والعربي المنحمن، وفيهم العلماء والمؤلفون والشعراء والكتاب، ونبع منهم الكثيرون في فنون شتى ممن عاصرناه، لاسيما العلم البارز الشيخ محمد الجواد الجزائري أخو المترجم له، فقد كان بطلاً جريماً، ومناضلاً صلباً، وعالمًا فحلاً، وشاعراً كبيراً، وأديباً ممتازاً، له «حل الطلاسم» في الرد على إيليا أبي ماضي في طلاسجه، و«نقد الاقتراحات المصرية» في تيسير اللغة العربية، و«فلسفة الإمام الصادق» وسوى ذلك من الآثار ودواوين الشعر.

كان نائراً جريماً ضد الاستعمار البريطاني، وذروة في الاتجاه الوطني الخالص، حكم عليه بالإعدام من قبل الانكليز عام ١٩١٨م باعتباره العضو البارز في جمعية النهضة الإسلامية، وأحد رجال ثورة النجف الأشرف ضد الانكليز، وخفف عنه الحكم بالسجن والإبعاد إلى المحمرة، نتيجة تدخل زعيم الثورة العراقية، الشيخ محمد تقي الشيرازي الحائري، وتوفي عام ١٩٥٩م، ودفن في النجف الأشرف بمقبرة الأسرة، الواقعة في أول شارع مسجد الجزائري في محلة العمارة من النجف، والتي أزيلت آثارها ضمن التخطيط الطاغوتي لأكساح معالم النجف الأشرف في الثمانينات من القرن العشرين، فدخلت ضمن الشارع العام.

أساتيدته وحياته العلمية:

يقول الشيخ آغا بزرك:

«في تلك المعاهد العلمية الدينية العالية التي كان يسديرها الكاظميان الخراساني واليزدي وأضرهما من الفحول والأساطين والمحققين؛ درس المترجم

له وتلقّى، وفي تلك النوادي الأدبية وحلّيات السبق التي كان يتبارى فيها أمثال السيد إبراهيم الطباطبائي -بحر العلوم- والسيد جعفر الحلبي، والسيد محمد سعيد الحويبي ونظرائهم من النوايغ نشأ وتأدب، وفي ذلك العصر الذي ازدهرت فيه الحياة العلمية في النجف الأشرف، وغصّت بطلاب العلم، وشيّدت فيه المدارس الدينية، وراجحت أسواق العلم والأدب، ظهر المترجم له مشاراً إليه بالبنان، مرموقاً بين أئدانه من الفضلاء والأدباء ووجوه أهل العلم. وقد أطلق اسم (العشرة المبشرة) على عشرة أشخاص، معظمهم من أعلام الأدب، كانوا صفوة ممتازة، والمترجم له واحد منهم، وهو آخرهم وفاة^(١).

وبعد دراسة الشيخ الجزائري مقدمات العلوم العربية والبلاغية والمنطقية اتجه نحو الفقه والأصول وعلوم الشريعة، فحضر الأبحاث العالية لدى مراجع عصره، وأبرزهم:

- ١- الشيخ محمد طه نجف.
- ٢- الشيخ محمد كاظم الأحوند الخراساني.
- ٣- السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي.
- ٤- الشيخ حسين آل صاحب الجواهر.
- ٥- الشيخ فتح الله الأصفهاني المعروف بشيخ الشريعة.

ولدى تكامل شخصيته العلمية استقل بالدرس والتدريس في البحث الخارج، وقد تخرج في بحثه هنا كوكبة من الأعلام، وطائفة كبيرة من أفاضل العصر العرب والمهاجرين.

وأقام الجماعة إماماً في مسجد آل الجزائري المبارك في محلة العمارة، وقد أزيلت آثاره لدى الحملة الإجرامية الكبرى في تغيير معالم النجف الأشرف العبادية والعلمية والأثرية بهدم أكثر محلة العمارة الحافلة بالعلماء وكبار القادة

(١) آغا بزرك/ تقيباء البشر / القسم الثالث / ١١٧٥.

الروحيين، فهدمت الدور والمدارس العلمية والمساجد والمؤسسات باسم الإعمار الكاذب، إذ لازالت النحف القديمة عراب كما أراد لها الطفلة إلى اليوم.

«وكان باب داره يفتح من أول الصبح، ولا يغلق إلا بعد مضي ساعات من الليل، يرتاده طلابه في مجلس درسه الصباحي في الفقه، فينهلون من معينه العذب، ويستزيدون من طلعتة البهية وخلقه الرضي، ويختلف طبقات الناس من ذوي الحاجات، فيستقبلهم بنفسه ضاحكاً مرحباً، ويبادر على قضاء حوائجهم مهما استعصت، وفي أي جهة كانت فيخرجون بقلوب فرحة ووجوه ضاحكة، وقد قام للكثير من النحفيين وذوي البيوت والشرف، وأهل العلم منهم خاصة، بخدمات كثيرة لا يأتي عليها عدّ، فقد أعانهم بجاهه على الدهر، وخلصهم من الظلمة... وكان لتواضعه وأدبه النفسي، وأخلاقه الفاضلة، أنسر فقال في نفس جلسه ومصاحبه»^(١).

وقد وصفه معاصره الشيخ جعفر آل محبوبه بقوله:

«هو اليوم من نوابغ العلم، وأعلام النحف المشاهير، ومن رجال الإصلاح، له مكانة سامية وشأن رفيع في نفوس مواطنيه، وله اليد في القضية العراقية، وأحد المراجع والمستشارين فيها، له حوزة علمية يحضرها بعض طلاب العلوم الدينية»^(٢).

وقد حضرت مجلسه هذا في الأعوام الأخيرة من حياة الشيخ الجزائري، فرأيت البشر الطافح على حدّ سواء، ولمست آثار الإصلاح بارزة السمات في التخاطب وآثار الحديث، ورأيت أصوات التدريس عالية في النقاش والاستدلال والمناظرة، وأعجبت بأداب المجلس في عاداته وتقاليده العربية الأصيلة، ووقفت

(١) آغا بزرك/ نقياء البشر ١ / القسم الثالث/ ١١٧٨.

(٢) جعفر محبوبه / ماضي النحف وحاضرها / ٨٦/٢.

مندهشاً عند ظاهرة عريقة لدى العلامة الجزائري في استقباله للشباب والتبسم بوجوههم، والاعتداد بهم، فهو يراهم أمل المستقبل للإسلام والوطن، وهما شغله الشاغل، وهدفه المركزي الرائد، وثمة ظاهرة أخرى، فهو يرحب بالكبير والصغير بعبارة مهذبة نابغة من القلب، ويعظم أهل الدين تعظيماً بالغاً، ويلاحظ من حضر مجلسه من مختلف الطبقات بعناية فائقة، فيسأل عن الحال، ويكثر من الدعاء، ويشجع الشعراء والأدباء، ويعنى بحملة الرسالة ودعاة الإصلاح، ولا يمل ولا يكلّ من تلبية الطلبات في قضاء الحوائج وإغاثة المهوفين، ولا يمتنع من الوساطة في سبيل ذلك لأعلى مركز في الدولة، وله بذلك ثلاث وسائل: إرسال الموفدين من قبله للتحدث في الأمر الذي يوصي بإنفاذه، استعمال جهاز التلفون والاتصال مباشرة بالمسؤول الذي يتعلق الموضوع به، كتابة الرسائل إلى من يعينهم الأمر بذلك، وهو يتقرب إلى الله بهذه الأعمال التي كشف بها الكروب وأغاث المحرومين.

وكان علي كثر مشاغله، وتعدد تطلعاته، واختلاف واجباته، وتراكم مهماته القيادية والإصلاحية، مكباً على التحصيل والاجتهاد العلمي، مشغراً ساعديه للاشتغال بفقهاء أهل البيت وعلم الأصول، وقد ذكر له مترجموه جملة من الرسائل والآثار منها:

- ١- تعليقه على الرياض.
- ٢- تعليقه على مكاسب الشيخ الأنصاري.
- ٣- شرح مباحث الظن والقطع من رسائل الشيخ الأنصاري.
- ٤- شرح على العروة الوثقى لأستاذ السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي، وصل فيه إلى آخر كتاب الحج^(١).

• • •

(١) ظ: جعفر معبوبة / ماضي النجف وحاضرها ٨٧/٢.

مميزاته وخصائصه:

أجمع المتحدثون عن العلامة الجزائري، والمشاهدون لآثاره في السرّ والإحسان والنبل والفضل والخلق القويم، وكما رأته شخصياً أنه ذلك الرجل الأمثلة في المنهج والمسار، والعقري المستقيم في الخلق والأدب والكمال، ذلك أنه «امتاز بصفات عدمت عند الكثير من إخوانه الذين عاصرناهم، فهو صلب في رأيه، رقيق في شعوره، دقيق في حسّه، يرصد النكته، ويوجه الناس مهما غلظوا إلى حيث يهوى ويشاء من الحديث، ويهيمن على أحاسيس جلسائه كإنسان تعمق في نفس كلّ منهم، فجاد بها حسب مقياسها وقابليتها»^(١).

وذكره صاحب الحصون المنيعه فاعتبره لطيف المعشر، حسن المذاكرة، قويّ الحجّة، صادق اللهجة، مع نقيّ وديانة، وتمسك بالشرع والأمانة»^(٢).

ورأته فوق هذا كله: مناراً يستضاء به في شمائله، وشعلة متوقدة من الذكاء والحيوية ودقة النظر، وليس من الفضول أو المغالاة أن نجده قويّ الشكبة، رابط الجأش، لا تهره الصدمات، ولا تثنيه العقبات، أريحي الطبع، هادئ المزاج، مطمئن الضمير، عفاً اليد واللسان، تغلب عليه روح الفكاهة البريئة، فإذا جدّ الجدّ عاد ابن بجدتها نضالاً وصيالاً، كثير الاعتداد بالأخوة الصادقة، بعيد النفس عن المطامع والمكاسب، شديد التعلّق بالمبدأ، جمّ الإذلال للذات، يتواضع وكأنك قرينه، ويتغافل وكأنك حبيه، ترفع عن صفائر الأمور، وتمسك بالأعالي من الآمال. يقطر غيرة وحمية، ويتفحّر حماساً ووطنية، ما من عقبة إلا اقتحمها، ولا عزيمة إلا احترقها، ثبت الجنان صلب العقيدة، هو بين إخوانه كأحدهم، له ما لهم وعليه ما عليهم.

وإذا أخذ في الحديث والبيان، فهو سريع البديهة، رائع الأسلوب، مشرق العبارة، يتصدر ديوانه العلمي فيخوض غمار المسائل، ويترأس محافل قومه فلا

(١) علي الخافاني / شعراء القري ٥/٥٠٦.

(٢) علي كاشف الغطاء / الحصون المنيعه ٩ / ورقة ٢٢٢.

بصدر إلا عن الرأي الصراح، نشأ في بحبوحة من المجد الشامخ، وتفيأ ظلال الشرف التليد، لم تخدعه المناصب في شبابه، وقد رشح لوزارة المعارف العراقية في أول وزارة بعد الاحتلال البريطاني فرفض ذلك، ولم يصنع للمطامح وقد وآتته فتأى عليها، سلك مسلك الزاهدين في الحياة، وعاش طاهر الذليل من أضرار الدنيا، له من تقواه بحر حافظ، ومن نبلة أروع خدين، يؤثر الآخرين ولا يستأثر بشيء، ويشارك الناس آلامهم وأفراحهم، نذر نفسه للبلاد، وسعى في مشاكل العباد، لم يبخل بجأه على أحد، ولم تطلب إليه الشفاعة فنكص، وهكذا كان رحب الصدر والفاء، مبذول الجاه والوساطة، لا يكل عن الإحسان، ولا يتوان في المعروف، مسارعاً لاستباق الخيرات، ومواظباً على قضاء الحاجات، وهنا يلتقي لدى العلامة الجزائري الهدف الديني بالهدف الاجتماعي، ويبدو المحور الانقاضي معانقاً للمحور التشريعي، فلله درّه، وعلى الله أجره.

يضاف إلى هذا كله شدته في ذات الله، وثباته على القول الثابت، وهو مما شاع ذكره، وفاح نشره، وبقي فخره.

يقول الشيخ آغا بزرك أعلى الله مقامه متحدثاً عن هذا الملحظ: «من مواقفه المشرفة ما حدث بينه وبين الشيخ عزعل الكهفي أمير عربستان الذي كانت له به أوثق الصلات والعلائق، وكان يكنّ للمترجم له حياً واحتراماً لاحد له، فقد دعاه للوقوف بوجه الانكليز ومحاربتهم، فأبى إلا أن يمالتهم، فقطع صلته به، وأبرق له بقوله: (فرّق بيني وبينك الإسلام) وله مثل ذلك كثير مع الذين تساهلوا في أمر الدين والوطن»^(١).

وهذا النوع من الصلابة لا يتوافر إلا عند أولئك القلائل الأفذاذ الذين نلوا أنفسهم للإسلام، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، والنحيف تعلم

(١) آغا بزرك / نقيب البشر ١ / القسم الثالث / ١١٧٦.

بطبقاتها الصلة الوثقى بين الشيخ الجزائري والشيخ خزعل، ومدى الارتباط بكل شيء، في سبيل المبدأ.

وكان العلامة الجزائري حريئاً مع المسؤولين، محاسباً لهم، لاتأخذه في الله لومة لائم، ولا يثنيه عن قول الحق خوف أو اضطراب، همه المصلحة العليا، وعمله لخير البلاد، ومحمضه للصالح العام، ولا تنازل عن هذه الثوابت الخيرة في مسيرته التضالية وجهاده المستميت.

يقول الشيخ آغا بزرك في هذا الملحظ: «لقد عرف المترجم له في النجف والعراق طويلاً كزعيم ديني وقائد محنك، واحتل في التأريخ صفحات ناصعة البياض، فبالرغم من أن داره كانت خلال السنين الطوال مهبط الملوك والأمراء والزعماء والقادة، ومختلف الرحالات والكبراء، لم يسمع عنه أنه جرّ نفسه مغتماً أو هادن ظالماً، أو تواضع لحاكم، أو أساء تصرفاً، أو رضي لنفسه السكوت عما كان يراه ويسمع به.

وكان يحضر مجلسه عند زيارة المسؤولين له أهل العلم وأعيان البلد، فكان لايفتر عن تقديمهم وتحميلهم مسؤولية تصرفاتهم، وإسداء النصيح والتوجيه لهم، وحثهم على خدمة البلد، ورعاية الدين وأهله، والشعب ومشاكله.

وكان مرجعاً لمختلف طبقات الناس وللمراجع وزعماء الدين أيضاً، فما حدثت حادثة إلا وتهافتوا على داره، ويحثوا المشاكل معه، واسترشدوا برأيه في معالجة الأمور، وكان شديد الرأي أصيل التفكير، طوييل الأناة بعيد النظر، يقظاً محنكاً، وكان الحجة السيد أبو الحسن الأصفهاني - المرجع الأعلى في عصره - في أوج عظيمته وزعامته يكبره ويستشير به في أموره. ويستأنس برأيه في كثير من الأمور العامة، وظل مرهف الحسّ سالم التفكير إلى أيامه الأخيرة»^(١).

(١) آغا بزرك / طبقات اعلام الشيعة / نقياء البشر ١ / القسم الثالث / ١١٧٧-١١٧٨.

وثمة ناحية أخرى، أن الفقيد على منزلته الرفيعة، كان يسكن داراً متواضعة في محلة العمار في الشارع المسمى باسمه، وكان أيضاً في حالة اقتصادية صعبة، مكثياً بما قلّ وأغنى، في كفاف من العيش، وضحك من الرزق، زاهداً قانعاً، شاكراً ذاكرأ، صابراً محتسباً، لا يفتأ لسانه لهجاً بذكر الله تعالى، مسبّحاً بحمده، شأنه بذلك شأن علمائنا الأبرار، فكان بحق من أوتاد الأرض الذين يستدفع بهم اليبلاء والعناء.

وكان مع ضائقته المالية أياً النفس كريم اليد، فإذا وصل إليه شيء من الحقوق الشرعية، قسمه بين تلامذته، وأنعم به الفقراء والمساكين، ولم يدخر شيئاً على الاطلاق.

العلامة الجزائري في جهاده الوطني:

وقد اندمج الشيخ الجزائري اندماجاً كلياً في حومة الجهاد الوطني، وشارك مشاركة ظاهرة في حركة الحرية والدستور منذ عهد المولى الشيخ محمد كاظم الآخوند (ت ١٣٢٩هـ) وحارب إلى جنب المجاهدين الأحرار ضد الاستعمار البريطاني لدى دخوله العراق في ١٩١٤، واستقر في محافظة العمارة عام ١٩١٥م بعد انسحاب العراقيين والعثمانيين من القرنة إثر هزيمة الجيش العثماني، وخطط أو وافق أو دعم ثورة النجف الأشرف ضد الانكليز في ١٩ / آذار / ١٩١٨م، وكانت جمعية النهضة الإسلامية بجناحيها العسكري والروحي تسترشد بنور آياته الصائبة، وساند قائد ثورة العشرين الشيخ محمد تقى الجزائري الشيرازي وكان من المقربين إليه، وشاور قادة الثائرين في كيفية الانقضاء على الاحتلال البريطاني، والتقى زعماء العشائر في الفرات لإعلان الثورة، وشارك بفاعلية قصوى من أجل حصول العراقي على الاستقلال السياسي، وكان أبرز رجالات ثورة العراق هذه في ١٩٢٠م ومن المخططين لها والعاملين في صفوفها، والمكتوبين بحماتها، والمدافعين الحقيقيين عن الشعب

العراقي بيده ولسانه وماله، ولقي من جراء ذلك أصناف المموم والغموم، وتعرض لأشتات المكاره والابتلاءات، كل ذلك بإزاء أداء رسالته الإصلاحية في الإخلاص للدين والوطن والأمة، فقد نصح لأمته، وناضل من أجل وطنه.

يقول الأستاذ علي الخاقاني: «فهو عربي بزعمه، ومسلم في دعوته، وجعفري في مذهبه، يريد العروبة والإسلام، والإسلام للوحدة، والمذهب للهداية، والجميع لله سبحانه.

جاهد الإنكليز على حدود العراق، وطاردهم في جبهة الحويزة، وبذر البذرة الأولى في تشكيل الحكومة العراقية، فكان موفقاً في جهاده، منصوراً في مطاردته، مباركاً في بذرته»^(١).

ولعل الشيخ آغا بزرك طاب ثراه من أولئك القلائل الذين عرضوا للجهاد العلامة الجزائري في صفحات مشرقة من أضواء نضاله الفكري والبطولي والعسكري والاجتماعي في تكثيف معتمق، وشذرات معبرة، فقال:

«والمترجم له -الجزائري- من رجالات العراق البارزين والشهائدين الإسلاميين المعروفين، وحياته حافلة بالمفاخر والمآثر والكفاح والجهاد في سبيل ربه وأمته ووطنه، وفي الحقيقة إنها سجل يوضح جانباً من تأريخ العراق في الخمسين سنة الأخيرة، لأنه شارك في معظم الأحداث مشاركة فعالة، وعمل على معالجة كثير من المشاكل والوقائع بحكمة وإخلاص، وقد مرّ عليه نصف قرن وهو أحد أقطاب النجف، ورجال الرأي، وقادة الفكر، وأبطال الجهاد، وأعيان العلماء.

لمع اسم المترجم له أول ما لمع في معركة المشروطة والاستبداد، فقد كان ممن انحاز إلى جانب المحجة الخراساني، الذي تزعم الفريق الأول، وكان من مؤيديه وأعموانه، ويعرف معاصروه دوره في تلك المعركة

(١) علي الخاقاني / شعراء الفري ٥/٦٠٥.

جيداً، وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى ودخل الأتراك الحرب إلى جانب الألمان، يادرت القوات البريطانية في عبادات لاحتلال جنوب العراق، وعندها أفتى علماء النجف الأشرف بوجوب الدفاع عن بيضة الإسلام، والوقوف في وجه الكفار، وبالرغم من الظلم والاستبداد الذي عاناه العراقيون زمناً طويلاً من الأتراك، فقد وقفوا معهم جنباً إلى جنب، وانتظموا في جبهات حربية قادها المجتهدون بأنفسهم، ونزلوا معها ساحات القتال، كجبهة الشعبية التي قادها السيد محمد سعيد الحبوبي وأعوانه، وجبهة القرنة التي قادها السيد علي الداماد والمترجم له بإشراف شيخ الشريعة الأصفهاني، وغيرهما من الجبهات ذات النطاق الواسع».

«وقد كان المترجم له في طليعة العلماء الذين اشتركوا في الصف الأول من المجاهدين، كما عمل على إثارة المتنفذين ودعاهم للوقوف في وجه الانكليز المحتلين لما كان يتمتع به من كلمة نافذة في الأوساط الدينية والوطنية والعشائرية... وظلّ كذلك يخوض غمار الأحداث في تلك الظروف الراهنة حتى قامت الثورة العراقية، فكان من رجالها البارزين، ومن مستشاري الحجة الشيخ محمد تقي الشيرازي، ومن الوسطاء بينه وبين رجال العشائر والوجوه والأعيان، لأنه كان مسموع الكلمة - كما قلنا - مطاعاً لدى الكلّ لما عرفه الجميع من إخلاصه ونمردته للمصلحة العامة، وهو أحد الأربعة الذين انتخبهم النجفيون للمطالبة بحقوقهم، وانتدبوهم لتمثيلهم، وعرض مطالبهم على حكومة الاحتلال البريطاني»^(١).

(١) انتخب الشعب العراقي من خلال قيادته الروحية في النجف الأشرف خمسة من

العلماء والوطنيين ليكونوا مندوبين عن الشعب في طلب الاستقلال، وهم:

- ١- الشيخ عبدالكريم الجزائري.
- ٢- الشيخ عبدالرضا الشيخ راضي.
- ٣- الحاج محمد جعفر أبو الثمن.
- ٤- الميرزا أحمد نجل زعيم الأحرار المولى محمد كاظم الخراساني.
- ٥- الشيخ إسحاق نجل الميرزا حبيب الله الرشدي.

وكان العلامة الجزائري منذ شبابه المبكر مجاهداً وطنياً مخلصاً، ولدى إعلان الجهاد ضد الإنكليز في النجف الأشرف، وتحرك الحواريين الثلاثة لمحاربة الإنكليز في الشعبية والكوت والأهواز، التحق بجهة الأهواز بعد انسحاب العراقيين من القرنة في ١/حزيران/١٩١٥م واستقر هو والشيخ مهدي الخالصي، والشيخ جعفر الشيخ راضي، والشيخ حسن علي القطيفي والسيد محمد بنجل السيد محمد كاظم اليزدي، وقد مكثوا في لواء العمارة، وشكّلوا جهة نائبة لقتال الإنكليز هي جهة الحويزة والأهواز. وقامت بينهم وبين الإنكليز عدة حملات انتصر فيها الثوار على الإنكليز.

وقد ذكر الأستاذ السيد محمد علي كمال الدين رحمه الله إحدى هذه الحملات فأطراها بقوله:

«وحرى بنا أن نظري الأعمال التي قام بها البطل الشيخ عبد الكريم الجزائري، فقد كان محور هذه الحملة، وقائد سياستها»^(١).

ولدى هزيمة الثوار بالشكل المعروف الذي ذكرناه في حديثنا عن السيد محمد سعيد الحويبي، عاد العلامة الجزائري إلى النجف الأشرف، ليعمل من جديد في خط آخر هو عطف ثورة النجف الأشرف ضد الاحتلال البريطاني في ١٩ آذار/ ١٩١٨م.

وقد اعتبر السيد عبد الرزاق الحسن العلامة الجزائري من مؤيدي «جمعية النهضة الإسلامية» التي أسسها أخوه البطل المجاهد الشيخ محمد الجواد الجزائري والسيد محمد علي بحر العلوم ورفاقهما، والتي هدفت إلى تخليص العراق من براثن السيطرة الأجنبية، وتأليب المسلمين على الأجانب الكافرين، ضماناً لاستقلال البلاد وتحريرها من ريق الاستعمار^(٢).

(١) محمد علي كمال الدين / النجف في ربيع قرن / ١٧٤.

(٢) ظ: عبدالرزاق الحسيني / ثورة النجف / ٢٠-٢٤ باختصار وتصرف.

وكان للعلامة الجزائري دور التوجيه والنصح الكرم لثوار النجف ضد الحاكم البريطاني الكابتن مارشال عام ١٩١٨م، إذ احترق الثوار الحصار المضروب على النجف و«عملوا الاتصالات اللازمة مع بعض الأبرار المتحمسين للثورة، ومن أبرزهم: العلامة الهمام الشيخ عبد الكرم الجزائري، والشيخ محمد رضا الشيبلي، والعلامة السيد عيسى كمال الدين، والسيد محمد سعيد كمال الدين، والسيد محمد علي بحر العلوم، واتصلوا بغيرهم من الوطنيين المخلصين، وأعارفهم تماماً بمقاصد ومرامي الإنكليز... وأن على العلماء الأبرار والوجوه الفاضلة أن يثبوا الوعي بين سواد أبناء البلدة»^(١).

وعدّ الأستاذ كامل سلمان الجباري العلامة الجزائري: «في طليعة المجاهدين في الحرب العالمية الأولى، وكان إلى جانب الدولة العثمانية في حربها الطاحنة ضد الإنكليز في العراق، ولما تخلّت من العراق الذي أصبح تابعاً للإنكليز، انضمّ إلى قادة الرأي العام في العراق في مناوئته سلطات الاحتلال، وبذل النفس والنفيس في إنقاذ العراق من هذه الهنّة؛ وكان من أقطاب ثورة العشرين، وكان عضواً في الثوار، وعاوناً لكبار العلماء»^(٢).

أما الأستاذ محمد علي كمال الدين رحمه الله، فقد عدّ العلامة الجزائري أهم عضو في الطبقتين الروحية والمتحددة في النجف الأشرف اللتين تكونتا لإنقاذ البلاد من الاحتلال، وقد أعطى قائمة بأسماء رجال الطبقتين من الثوار المطالبين باستقلال العراق وإعلان ثورة العشرين، بل كان أيام الثورة محور الحركة وبحري التفكير للثورة والثوار والعلماء والمجاهدين والمتقنين، يسانده في جهاده هذا الشيخ جواد الجواهري وزعماء القبائل مع أفراد الطبقة الأولى^(٣).

(١) مذكرات حميد عيسى حبيبان / ضمن النجف الأشرف ومقتل الكابتن مارشال / تأليف كامل سلمان الجبوري / ٤٦١ / دار القارئ / بيروت / ٢٠٠٥م.
 (٢) كامل سلمان الجبوري / النجف الأشرف ومقتل الكابتن مارشال / ٢٤٤.
 (٣) ط: محمد علي كمال الدين / النجف في ربيع قرن / ٢٤٤ / تحقيق: كامل سلمان الجبوري / دار القارئ / دار المواهب / بيروت / ٢٠٠٥م.

وذلك أن الثورة العراقية بقادتها، قد أسست لها مكتباً سرّياً في أحد دواوين الصحن الحيدري الشريف، وفي مكتبة الأستاذ عبد الحميد زاهد أحد شباب الثورة، وقد تكونت في هذا المكتب فكرة الثورة ونضجت عام ١٩٢٠م، وعند ذلك تشكلت في النجف الأشرف أربع طبقات للرأي والتخطيط والعمل والتنفيذ بعد الاتصال المباشر بزعماء الفرات الأوسط.

وهذه الطبقات: الطبقة الروحية، وطبقة المثقفين، وطبقة التجّار والوجوه والأعيان، وطبقة الشباب والمحاربين.

وكان العلامة الجزائري لولب الطيّقتين الأولى والثانية.

واجتمع علماء النجف الأشرف في دار شيخ الشريعة ليلة السادس عشر من شهر رمضان ١٣٣٨هـ. أ. كتبوا وثيقة لانتداب هؤلاء العلماء لتمثيل الفرات الأوسط والعراق تمثيلاً قانونياً صحيحاً أمام حكومة الاحتلال في العراق^(١).

وكان العلامة الجزائري هو المتحدث باسم الشعب العراقي أمام الحاكم البريطاني في عدة مواقف حاسمة، وكان قوله الفصل الذي لم يستطع الحاكم السياسي الانكليزي مقاومته، سيما في الاجتماع الأول الذي مثل به المندوبون العراقي أمام السلطة البريطانية. فقد طلب الحاكم السياسي البريطاني لعموم لواء النجف والشامية، عدم الهياج والبلاد، ومنع المظاهرات، فجاهمه الجزائري بقوله: «إن دوي المحافل في النجف دويٌّ مشروع من كل الوجوه، لم يقصد منه إثارة القلاقل وتعكير صفو السلام، فالنجف لا تريد في قيامها الجديد أن تجدد عهد الحركات الأولى!!

النجف تريد أن تحتفظ اليوم بأصول المدنية الحقّة، فإذا كان النداء لطلب الاستقلال، والهتاف لتأييد الحكومة العربية، مخالفاً للقوانين الدولية، فلماذا

(١) محمد علي كمال الدين / النجف في ربيع قرن / ٢٥٢ / تحقيق الجبوري-

لانتعده الأمم الأخرى كذلك حينما يقع مثله في بلادها. وإن أؤكد لحضرتكم أنا لانستطيع كمّ الأفواه وحبس الأصوات، كما أنا لانسأل عن وقوع الحوادث والاضطرابات إذا لم تحقق الحكومة تحقيق رغبات الأمة.

قال الحاكم السياسي: قد يتعذر على الحكومة تحقيق أمان الأمة على الفور.

قال الجزائري: لا بدّ من تنفيذ المطالب المدرجة في الطلب، وإلا فإن المغبة

سيئة والعاقبة وخيمة»^(١).

ولم تنفع كل الاحتجاجات، وكذبت وعود البريطانيين، وفقد الشعب العراقي الثقة بالاحتلين، فصمّم العلماء والزعماء والمثقفون وأهل الرأي من الشعب على التخطيط إلى الثورة، ففانحوا بذلك الشيخ محمد تقي الجزائري الشيرازي، فألزمهم بالمطالبة بحقوقهم سلمياً أولاً، ثم بالتوسل بالقوة الدفاعية إن لم يستجب الانكليز لذلك، واعتبر الثوار هذا الإعلان من قبل الشيرازي إفتاءً بالثورة، فقامت الثورة في النجف الأشرف وكربلاء المقدسة والفرات الأوسط، بإطلاق الرصاص الأولى التي حرر بها زعيم الظواالم من السجن الشيخ شعلان أبو الجون في ٣٠ / حزيران / ١٩٢٠ م.

وكان ذلك اليوم إعلانها الفعلي والعملية فقامت على قدم وساق، واستجاب لها الشعب العراقي لاسيما الفرات والجنوب والكاظمية وبغداد استجاب تسراوح بين التأيد والحماس، وبين حمل السلاح والانخراط بصفوف المجاهدين.

وكان دور العلامة الجزائري مشرفاً في الإشارة والإرادة والقيادة والاندماج الكلّي، وانتهت الثورة بتشكيل حكومة عربية بإشراف دار الاعتماد البريطاني، وكان الاستقلال شكلياً، بإرادة بريطانية وإدارة عراقية، ولكنها ضعيفة مسيرة غير مخيرة، فكثرت الاضطرابات والمظاهرات والاحتجاجات، وحرّم علماء النجف الأشرف انتخاب المجلس التأسيسي، وعارضوا الحكم البريطاني المغلف،

(١) المرجع نفسه / ٢٦١.

وقاطعوا الدولة بكل مرافقها لاسيما بعد تسفير الشيخ مهدي الخالصي، وسفر الميرزا محمد حسين الثاني، والسيد أبو الحسن الأصفهاني بمن معهما من العلماء وحوزة النجف الأشرف.

وكان الجزائري سائحاً على الحكم، ناقماً على رجال الدولة من بغداد ولواء الدليم، معلناً غضبه في أكثر من مناسبة، معبراً عن معارضته من خلال مواقف حاسمة، سجلت استنكاره حيناً، وأصحرت بتوجهه الرفض حيناً آخر. وبالإمكان تلخيص ذلك الاستنكار وهذا الرفض بمشاهد حية نابضة على شكل نقاط رئيسة، منها:

١- اعتذاره عن قبول منصب وزارة المعارف في أول وزارة عراقية، واستهجانه لهذا التكليف الذي لايناسب مقامه الروحي.

٢- رفض المجلس التأسيسي الكاذب الذي شكّل في ١٩٢٤م في وزارة عبد المحسن السعدون، وإعلان تحريم المشاركة فيه.

٣- استنكر (قدس سره) المعاهدة البريطانية العراقية التي عقدت عام ١٩٣٠م، وكانت تكييلاً للشعب العراقي في حريته وكرامته وثرواته واستقلاله، يجعل العراق مرتبطاً بتبعية الانكليز رغم الاستقلال المزيف، وكان إنكاره هذا علنياً أمام وفود الأحزاب القومية والوطنية التي قابلته في داره في النجف الأشرف.

٤- تجاوبه مع حركة الفريق بكر صدقي، لاتأيدها لها، ولكن لغرض معارضة توري السعيد ونظامه ورجال الدولة.

٥- تأييده المطلق لحركة الضباط الأربعة بقيادة رشيد عالي الكيلاني ضد الانكليز عام ١٩٤١م، بما أعلنت عنه من رفض الوصاية البريطانية وتشكيل حكومة الدفاع الوطني، وأبرق لرئيس الوزراء الكيلاني مباركاً لهضته بفك العراق من الارتباط بالسلطة البريطانية، وتخليص الشعب من الاستعمار

والتبعية، ولما قضى على الحركة من قبل الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله، وهرب منفذوها إلى الخارج، لم تستطع الحكومة أن تتعرض للعلامة الجزائري ولا العلماء الآخرين بسوء، نظراً للمنزلة العليا التي يحتلوها في نفوس طبقات العراقيين كافة، وحذراً من الاضطرابات.

٦- رفض الشيخ الجزائري معاهدة «بورتسموث» التي ربطت شؤون العراق ببريطانيا، وأتعى بالأئمة على الحكومة العراقية لاستحفاها أمام الإنكليز.

٧- استنكر العلامة الجزائري قرار التقسيم لفلسطين، وقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، وأهاب بالجيوش العربية أن تحرر فلسطين من برائن الصهيونية العالمية، ودعا الحكومات إلى مدّ العون والمساعدة المالية والعسكرية والسياسية لشعب فلسطين من أجل إنقاذها من الخطر المحدق، وإرجاع أراضي فلسطين إلى أهلها الشرعيين.

٨- شجب العلامة الجزائري الاعتداء الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م من قبل فرنسا وبريطانيا وإسرائيل، وأضرب عن التدريس والصلاة جماعة كبقية مراجع النحف الأشرف، وبارك قيام المظاهرات الوطنية المستنكرة للاعتداء.

٩- آذر جميع الأحزاب القومية والوطنية في العراق لإنقاذ الشعب من الاستعمار الإنكليزي على أيدي العراقيين الخونة من السائرين بركابه، وأنكر على البريطانيين تدخلهم في شؤون البلاد، وطالب الحكومات المتعاقبة بالعدل والإصلاح، ورفض كل أشكال القمع والإرهاب والعنف والطائفية والعنصرية الذي تمارسه السلطات ضد أبناء الشعب العراقي.

١٠- أيد ثورة الرابع عشر من تموز بحذر، ودعا زعماءها إلى العمل في سبيل المصلحة العامة، وأنذرهم عواقب الظلم والطغيان، وأبرق بذلك إلى الزعيم عبد الكريم قاسم، فكانت العناية بذلك كبيرة إذ أجابه الزعيم بريقة شكر جاءت فيها العبارة الآتية:

تسلّمت برفقتكم الأبوية أيها المجتهد الأكبر.

١١ - حرّم الشيوعية والانتساب إلى الحزب الشيوعي عند المدّ القوضوي في العراق ١٩٥٩م، واستنكر إعدام الضباط الأحرار، وقاطع الدولة ورجال الثورة. وعلى إثر ذلك ضوبق ولده الوحيد الأستاذ الشيخ أحمد الجزائري، وهو شاب متيقظ ينبض بالطاقة والحيوية، أديب، شاعر، جريء، وقف في صدّ المبادئ الهدامة، ودعا إلى عروبة العراق وأصالته القومية، وكان على خطر من موقفه، فغادر العراق والنحاً إلى القاهرة، فاستقبله الرئيس جمال عبد الناصر بالحفاوة والتقدير، ومكث هناك ثلاث سنين حين فاجأه القدر بحادث مؤسف، وتوفي بعد والده بقليل في يوم الأحد ١٩ / رجب / ١٣٨٢هـ، وكانت ولادته عام ١٣٤٢هـ فكان عمره الطاهر أربعين عاماً، ولدى وفاته غمر الأسى والأسف النحف، وقد شيع تشييعاً رسمياً حافلاً في القاهرة، وصلى على جثمانه الإمام الأكبر محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، ودفن في القرافة مقبرة القاهرة الكبرى، وأدرج في الخالدين.

شاعرية العلامة الجزائري وشعره:

لم تزل النحف الأشرف حاضرة الشعر العربي، كما هي عاصمة العلم الشرعي، ومن الطبيعي أن تجد الشعر والنثر يسيران جنباً إلى جنب مع العلم والفنون الأخرى، ولا غرابة أن تجد نظم الشعر سحية فطرية عند الشباب النحف بعامة، ولدى رجال الدين بخاصة، فقلما تجد بيتاً يخلو من ديوان المتنبي، أو الشريف الرضي، أو البحري، أو مهيار الديلمي، وسوى ذلك. ومحافل النحف العلمية، وجمعياتها الأدبية، وبمحاسنها العامة، تعبر للشعر أهمية كبرى، باعتباره إحدى لمسات تراث الأمة، فقيه محل الشاهد، وبه عظة المعتر، وفيه الحكمة السائرة، ومحالاته كثيرة في النصف الأول من القرن العشرين، وأهمها مدح أهل البيت (عليه السلام) وراثتهم لاسيما الإمام الحسين (عليه السلام)، ومحافل التائبين، ومناسبات الأعراس والقدوم من الحج، وقضايا الوطن والبلاد العربية.

والمترجم له في شبابه كان شاعراً شأنه بذلك شأن أقرانه من فضلاء الحوزة العلمية، سيما وقد أدرك السيد الخبوي، والسيد إبراهيم الطباطبائي بحر العلوم، والشيخ محسن الحضري، والشيخ جواد الشبيبي، وأضراهم من شعراء الطبقة الأولى في النحف الأشرف، وقد تأثر بذلك تلقائياً، ونظم الشعر عفويّاً، وله بذلك موشحات راقصة على غرار الموشحات الأندلسية، وقصائد عمودية ضمن أوزان الشعر العربي.

وسوف أضع يدي على نموذج من موشحاته، ونماذج قصيرة من شعره، وجميع ذلك من الشعر المقبول، فهو لم يتمخض للشعر شأن الشبيبي والجواهري مثلاً، وإنما نظمه في أول شبابه بدوافع عقائدية أو أدبية أو أخوانية.

نموذج من موشحاته:

للجزائري عدة موشحات تمثل آفاق الشباب في الحب البريء، وله موشح رقيق نظمه باقتراح من صديقه الشيخ خزعل الكعبي أمير المحمرة، جاء فيه:

زارني بختلس الليل البهيم	من خوف رقيب
ذو قوام هو إن مرّ النسيم	كالغصن الرطيب
وغدا يفتر عن در نظيم	بالثغر الشنيب
وتغني لي بالصوت الرعيم	مثل العندليب

•••

شادن رقى علينا بالوصال	من بعد الصدود
وأنى يسعى ولكن بالخيال	من خوف حسود
وعلينا عينه ترمي نبال	شقت للكبود
هو قد قيد قلبي بحبال	لكن من جمود

•••

قلبي في يديك
أشكوك إليك
مما في شفقتك
فالأمر إليك

* * *

تحببي وعميت
منهن دهب
مذ فيك بليت
إذ فيك رميت

* * *

فألقب رهين
ولسدان وعين
من ماء معين
بجنز الـوتين
كالبدر المنير
كالغصن النضير
كالظبي الغرير
قلبي كالأسير

* * *

من در لـاه
إذ تشبه فـاه
ظنته إله
من فرط سناه

يا مليكاً لايسأ تاج الكمال
كلما تخلف وعدي بالمطال
فاسقني من ريقك العذب الحلال
وأحيني من بعد صدّ الوصال

باللما العذب وفي سود الجفون
وآبلائي أنا من هذي العيون
زادني حبك وحداً وشجون
ورمت عينك لي سهم المنون

لاتلمي يا عنولي في هواه
رشاً بالحسن يوماً ما حكاه
هل لظام ما حوته شفتاه
خرّدت لي سيف غنج مقلناه
لاح للنـاظر في طلعتـه
وغدا يجتال في قامتـه
ورنا نحوي في مقلته
رشاً قد صار في أسرته

قد سقاني حمرة تحبي النفوس
وجلالها للندامي كالعروس
لو رأته نور عيـاه المحوس
قد كسى الأعمار حيناً والشموس

تحتسب الـ دلال
عن مثل الـ لال
من تحت القـ ذال
في طـ ف خـ ال

برزت كالشمس من برج الخدور
وتجلت إذ جلت ليل الشعور
وتجلى لعيون الصب نور
حيذا للصب يوماً لو تزور

ربات الـ ال
من فرط الـ ال
من حسن الـ ال
من لـ الـ ال

سلبت في شعرها مني الشعور
قد كساها الله نوراً فوق نور
وعليها فلك الحسن يدور
قد أدارت حمرة تشفي الصدور

نماذج من شعره:

له قصيدة تفيض بالحب والتقدير والإكبار في رثاء المجدد السيد حسن

الشرازي عام ١٣١٢م وهي:

ورزؤك هـونَ النوب الصعابا
فيا أعطى الرميّة من أصابا
كأن اليعث قد حان اقترابا
تحسّى منه كل الناس صابا
أراب الـ دين منه ما أرابا
اتخذت من التراب إليك غابا
به كل بوالـ مـ صابا
بغيتك الشريعة والكتابا
تود بأن تشاطرك الـ هابا
لأجريت الدموع حشى مذاها

مصائبك طبّق الدنيا مصابا
أصبت بسهم واثرة المنايا
فما للناس قد صعقت حيارى
أرى كأمأ سقيت الحنف فيه
فيا لله من جليلٍ مُلمّ
تغيّب بـدر أوج المهدّما
أرى السهم الذي أرداك أضحي
فيا علم الشريعة قد فقدنا
ويا نفس الإمامة كل نفس
فلو أن الدموع تبل وهداً

ولو رد المنون هديل تُوح
فكم عَضَّتْ أناملها المعالي
بفقدك ارتجحت باب الأمالي
لطوقت الرقاب نداءً وعزاً
لقد عَمَّرتْ إقليم المعالي
أنصفاً إن كفك وهي غيث
تنوب عن الغمام لهم نوالاً
فكيف بطيب بعد نواك عيش
على أعتاب من تقف المطايا
ومن يرحى لحادثة الليالي
فليت نوى بك اليوم استقلت
لقد ضيقت طارقة المنايا
وقد خربت أهلة المعالي
ذهبت بصارم يأي انغماداً
به الكون اطمأن وليس نكراً
وأشرق فيه وجه الدهر بشراً
تعود لا يرد سؤال داع
أبحراً دون ساحته وقفنا
إذا وردوا نذاك رأوك ببحراً
نضبت فما لظائمة المعالي
ملأت بذكرك الأفاق حمداً

لصيرت الحنين عليك دابا
عليك وكم قرعن عليك نابا
وكتت لكعبة المعروف بابا
ويوم رحلت أذلت الرقابا
وبعدك عاد ميناها خرابا
على العافين تودعها الترابا
وما ناب الغمام لها منابا
ومن جدوي يديك العيش طابا
رجا أو باسم من نحدو الركابا
إذا ما الدهر بالحدثان نابا
ظللنا في مجاهلها اغترابا
بموقع هولك الخطط الرحابا
كأنك قد نعقت به غرابا
وصيرت التراب له قرابا
إذا ما بعده رام انقلابا
وأظلم بعد رحلته اكتتابا
فأسرع مذ دعا الختف الجوابا
فما عمنا للحتفه عبابا
ولو وردوا سواك رأوا سراها
يسبغ لها على الظمأ الشراها
ونحن اليوم نملؤها انتحابا

وله مؤرخاً صنع باب الإمين العسكريين في سامراء عام ١٣٤٣هـ

لذَّ باب النجاة باب الهادي
 كم لركب الزوار فيه مناخُ
 هو باب الرجا إلى مرتجيه
 لحمى العسكري منه دخولُ
 بضريح أضحي مزاراً وملجأ
 ضمَّ قبرين، بل وبدرين يهدي
 فهما جُنِّي ودرعي وحرزي
 وإماماي.. قد طويت على هـ
 وبوادي ولاهما هت شوقاً
 أهل بيت الوحي الألى غرس الله
 فحقيق إذا لجأنا ولذنا
 فهو باب النجاة للخلق أرخ

فهو باب به بلوغ المراد
 قد حذاهم من جانب الله حادي
 وأمان اللاجي وري الصادي
 وضريح الإمام نجل الجواد
 وأماناً لحاضر ولبادي
 بهما الخلق في طريق الرشاد
 وملاذي ولاهما وسنادي
 ذا ضميري... في ميداني ومعادي
 لست ممن يهيم في كلِّ واد
 ولاهم وحبهم في فؤادي
 بفنا العسكري... وباب الهادي
 (وهو باب به بلوغ المراد)

وله مؤرخاً عام صنع باب المراد لرواق الإمام علي (عليه السلام)، وذلك عام

١٣٤٣هـ، وقد كتب على الباب نفسه:

قف باب المراد باب علي
 هو باب الله الذي من أتاه
 واخلع النعل عنده باحترام
 قد لجأنا بحب من حل فيه
 أنا في الحب والولا رافضي
 يا سفين النجاة لم أر إلا
 يا إمام المهدي بيابك لذنا

تلق للأجر فيه فتحاً مينا
 خائفاً من خطاه.. عاد أميناً
 فهو أضحي سر الإله ذقينا
 وبقينا من العذاب بقينا
 لم أجد غير حبه لي دينا
 أملني فيك للنجاة سفينا
 من ذنوب أبكين منا العيوننا

لك جننا.. فاشفع لنا وأجرنا
 ففتح الله للورى بعلي
 قـل لقـصـاد بابـه ادخلوه
 فهو بابٌ به الرجاء أرغوة
 يوم لا مال نافع أو بونا
 باب خير بأثونه أجمعينا
 بسلام لكم به آميننا
 (ذاك باب المراد للزائرنا)^(١)

وفاة العلامة الجزائري وتأبينه:

كان الشيخ الجزائري قد عانى أواخر عمره المبارك من أعراض الشيخوخة، فانهارت قواه، وتدهورت صحته، يضاف إلى ذلك أنه كان كثير التحسر على لقاء ولده الشيخ أحمد، ويحزن إبه حنياً عميقاً، ويسأل عنه الراح والغادي، ويأسف أن لا يحضر موته، ولا يشاهد طلعه، ولا يحظى بقربه، وتداعت الأسباب والمؤثرات، وقد تجاوز التسعين من عمره الحافل بجلائل الأعمال، ولزم فراش المرض مدة طويلة، حتى لقي نداء ربه يوم الأحد ٥/صفر/١٣٨٢هـ الموافق ٧/تموز/١٩٦٢، فارتجت النجف الأشرف بعموم طبقاتها، وأغلقت المدينة أسواقها، وعطلت العلماء أبحاثها، وعرجت النجف على بكرة أيها تشييعه، فشيع تشييعاً ضخماً عظيماً في ظروف عصيبة، ودفن في مقبرة الأسرة في محلة العمارة في الشارع الذي آخره مسجده، مقابل الزقاق المتصل بمسجد الشيخ صاحب الجواهر، وقد شملها الهدم المتعمد، فأصبحت في الشارع العام.

وأقيمت له فواتح كثيرة، أبرزها فواتح المراجع العظام، وفاتحة الأسرة، وفواتح الحوزة العلمية والكسبية والتجار والطبقات الأخرى.

وفي ذكرى الأربعين أقيم له احتفال تأييني مهيب في ذكرى الأربعين، شاركت في إحيائه وفود الفرات وزعماء العشائر، وشخصيات بغداد، يتقدمهم العلماء الأعلام، والهيئة العلمية، وجماهير الأمة، وذلك في مسجد الجزائري، وقد آتته قادة الفكر، ورجال السياسة، وأعلام الأدب أمثال: علامة العراق

(١) ظ: نماذج أخرى والنماذج نفسها في شعراء الغري ٥ / ٥١٠-٥١٨ للأستاذ علي الخاقاني.

الشيخ محمد رضا الشبيبي، والزعيم الوطني الشيخ محمد مهدي كبة، والأستاذ الدكتور عبد الرزاق محي الدين، ورتناه من الشعراء: الشيخ محمد علي اليعقوبي، والشيخ عبد الغني الخضري، و كاتب هذه السطور، وسوى هؤلاء من الأدباء والكتاب والشعراء، وهي تعدد مآثر الفقيه ومواقفه النضالية الحافلة. وأشادت بذكره الصحافة العراقية، وتحدثت ذكره، وأشادت إلى حياته الجهادية، وأبانت بعض الصفحات المشرقة من نضاله في سبيل الإسلام والأمة والوطن.

وأرخ عام وفاته صديقنا الأستاذ السيد محمد سن الطالقاني بقوله:

يا ضيعة الإسلام في فقد مَنْ	كان لأهل العلم نعم الزعيم
صرخ من المجد هوى للثرى	ودوحة الفضل غدت كالريم
مضى الذي كان لأهل النهى	وقادة الرأي الملاذ العظيم
خلف أهل الدين أيدي سبا	من بعده.. والحزن فيهم مقيم
يدر سماء العلم والمجد فد	أرخته (غاب بعد الكرم)

— ١٣٨٢هـ —

قصيدة المؤلف في رثاء العلامة الجزائري:

كان المؤلف شديد التأثر بالشيخ الجزائري منهجاً وسلوكاً، وكان الشيخ يشمله بحبه وعطفه الأبوي، ويقربه إليه، فكان من الوفاء المحض أن يشارك بهذه القصيدة التي كان لها دويٌّ في محافل الأدب، وعنوانها:

«فقيه العروبة والإسلام»

فجعتَ بخطبك الجليلِ البلادا	وأنكلتَ العقيدةَ والجهادا
فقدنا أمة.. ولربُّ فردٍ	بفادجِه نقيس الافتقادا
وربُّ فجيعةٍ فجعتَ أوفاً	وربُّ رزيةٍ رزأت عبادا
سبقتَ إلى الكفاح، فكنتَ فداً	صلياً... واكبَ الحنَّ الشدادا

مداها غير شخصك إذ تمادى
قد انتكصوا.. وسقرت الجلادا
يوم وغى.. وأشجع من بنادى
وكنت الجمر مقتدحاً زنادا
بنى بجهاده وطناً وشادا

وسرت لغاية قصوى تماشى
وأعلنت الجهاد على طغاة
وثرث.. فكنت أصدق من بنادى
وكنت البدر متقدماً ضياءً
وكنت أجل بانٍ بعري

•••

كرمت عقيدة.. ووفرت زادا
فكنت أجل حامٍ عنه زادا
قد ادزعوا عقيدتهم عنادا
على مستعمر... فغدا رمادا
بها التوحيد قد بلغ المرادا
صحائفها قد امتلئت سدا
تعذُّ القول رأياً واعتقادا
وعرّى عن بوارقه التحادا
كسيف العسكري إذا تفادى
وحقق بالبراعة ما أرادا

فقيد العرب.. والوطن المفدى
حيث الدين من غدر ومكر
وقدت من «الفرات» جنود حق
أحالوا «ثورة العشرين» ناراً
وعاضوها معارك داميات
فكم لك من مواقف عالجات
كانك مذ وقفت بهم عطياً
كمي شق مدرجة العوالي
ورأي العبقري إذا تمادى
ورب فتى أحاط بما تمنى

•••

بها الطغيان يمتشدُّ احتشادا^(١)
وترفع من جابرة عمادا

أبا النحف الأغرّ دجت خطوب
أرتنا كيف نعلي من طغام

(١) المورد بكامله يشير إلى اضطهاد الفقيد طيلة الفترة المظلمة التي مرت على العراق أثناء المد الفوضوي، فقد احتجز في داره قرابة ثلاثة أشهر، وبلغت المضايقة ذروتها عند وفاة شقيقه البطل المجاهد العلامة الشيخ محمد جواد الجزائري الذي حكم عليه بالإعدام من قبل الإنكليز، وتخلص من بعد اللثام والتي... وقد فرق تشييعه، واستهين بمظاهر مراسيمه الجنائزية في ١٩٥٩م.

فطاوالت المهجان به الجيادا
تضام..!! وأنت تحرسه اعتدادا
ألفت لحفظ ساكنه السهادا
إليك بأن تزار وأن تعادا
وقد منعوا عليك الارتيادا
عليك.. لما أطقت الاضطهادا
فعند الموت قد ظلموا «الجوادا»
ولم تفننا لشعبكما سنادا

خلا الميدان من قصبٍ وسبق
أبي النحف المقدس وهو حصنٌ
يعفك ساكنوه.. وأنتَ برُّ
وضايقتك «الرفاق» فلا طريق
غداة عليك قد ضربوا حصاراً
ولولا فرض تجرمة أطلت
لن ظلموا عملاك وأنتَ حيٌّ
كان لم تعملوا جنباً لجنبٍ

به يبدو لنا العجب إزديادا
سحاب أمطرت كمدأ معادا
وهزّ تلاطم الموج الجمادا
مخدرّة.. وأحلاماً بدادا
بسوق العقل مذ أضحى كسادا
وعشنا في عقائدنا فسادا
تلاقفها انعكاساً وأطرادا
فلما استمطرت مطرت جرادا»

ومن عجب الزمان.. وكل أن
تمادى الحكم وانددت هيباً
لقد بلغ الرى سيل الرزايا
ونحن نعيش أعصاباً عحافاً
فقدنا الوعي جوهرة وعقدأ
تركنا ديننا سفهاً وجهلاً
وعدنا كالسفينة في حضمٍ
«فكنا كالزروع شكت محولاً»

إذا ضلّ الشباب خطيً وحادا
تسر إلى الأمام بكم رشادا
وهبوا من رقادكم شدادا
ومزرعةً قد احتشدت قتادا

شباب الدين والأمل المرجى
لكم من سفر «أحمد» معجزات
فسيروا للجهاد بلا توانٍ
ولا تقنوا.. فدرب الحقّ دام

وحدت النصر جمعاً واتحاداً
 يد التزعزعات.. فالتمسوا الحياداً
 وتطمع أن ترى قنصاً مصداً
 تكابر في محاجة عناداً
 يبران المغاور والوهاداً
 وكان لجرحنا الدامي الضماداً
 ضماناً، واجتماعاً، واقتصاداً

ولا تفرقوا زماً.. فإني
 ومهما صافحت.. شرقاً وغرباً
 مصائد تستجد بكم شباكاً
 وهيئات التلوث في مباد
 ثقافة «أحمد» وهدى «علي»
 كتابُ الله ثقفا عقولاً
 وأكرم بالشرعية من نظام

محمد حسين علي الصغير

التجف الأشرف



السيد حسين الموسوي الحماي . حوزياً

هو السيد حسين السيد علي السيد هاشم الموسوي الحماي النحفي ينتهي نسبه إلى الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام).

فقيه معظم، وأصولي بارع، وأستاذ ملهم، أحد أئمة الدين، ومن أبرز مراجع التقليد في النجف الأشرف.

ولد في النجف الأشرف عام ١٢٩٨ هـ - ١٨٨١ م في أسرة كريمة تعمل بالكسب وتحترف التجارة.

وكان أبوه رجلاً جزلاً متورعاً، واسع الأفق، متورّ التفكير، فطلب إليه المُتَرَحِّمُ لَهُ أن يتخذ مسلكاً جديداً في حياته لا علاقة له بمسلك أسرته الشريفة، ذلك المسلك هو الاتجاه لطلب العلم، والسعي لمدارج الكمال المعرفي في ظل مبادئ أهل البيت (عليهم السلام)، والخوض في غمار بحرهم الفياض بالعلوم الإلهية والأحكام الشرعية. فأذن له بذلك مغتبطاً، وشجعه عليه مستبشراً.

نشأته العلمية:

اتجه الشاب نحو درس الحوزوي في النجف الأشرف، وقد شدّ أزره أبوه مباركاً، فقرأ العربية والمنطق والبلاغة والفقهاء الفوتائي، وأتقنها اتقاناً عجبياً ولم يتجاوز العشرين من عمره الشريف، وتفرغ للفقهاء والأصول وعلم الحديث في السطوح والسطوح العالية، وسرعان ما بزغ نجمه وبرز اسمه، وتلألاً توهجه، وإذا بالشباب من أبرز فضلاء الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

جاء في إحدى ترجماته: «ليس العمّة، ودخل في سلك الروحانيين وطلاب العلوم الدينية، وأفردت له غرفة في المدرسة البادكوبية، بإشارة من مؤسسها السيد حسين الترك حيث أن السيد الحماصي من العرب، والمدرسة منشأة باسم الترك من أهالي أقفقاز، وبادكوبا، وأذربيجان، ومكث فيها مايقارب خمساً وعشرين سنة، وهو يزاول الدرس والتدريس وكان مولعاً بطلب العلم... ومن شدة حرصه على طلب العلم أنه كان يذهب إلى أهله في ليلة الخميس والجمعة فقط، وبقية الأسبوع يبقى في المدرسة ليلاً ونهاراً حتى في أوقات أكله ومنامه»^(١).

وما إن وجد السيد الحماصي قدس سره من نفسه القابلية على مواصلة الدرس العالي والبحث الخارج حتى لازم مراجع عصره، وحضر أبحاثهم، وانخرط في سلوكهم، وعمل إلى جانبهم، ولمس منهم أساتذته شعلةً من الذكاء، وكتلة من الجد والاجتهاد، فقرب منهم منزلة، واحتل مقامه الأسمى.

قال الحجة المحقق السيد محسن الأمين العاملي متحدثاً عنه:

«وواصل الدرس والتدريس بتقدّم حتى جاءت الحرب العالمية الأولى، فكان من العلماء الذين لبوا داعي الجهاد، وسار تحت لواء السيد مهدي الخيدري حتى نهاية تلك الأحداث التي استمرت ستة أشهر، فعاد إلى النجف منصرفاً إلى ما كان عليه»^(٢).

وقد وصفه الدكتور محمد هادي الأمين أنه:

«فقيه أصولي، عالم فاضل مجتهد، من كبار العلماء، ومراجع العصر، وأهل الفضل والكمال والتدقيق، ومن سادات العلماء المرزبين الناهيين، يمتاز بطهارة الضمير، وطيب السريرة، وصفاء القلب»^(٣).

(١) مجلة الموسم الهولندية / إصدار محمد سعيد الطريحي / ١٩٨٨ / العدد السابع / المجلد الثاني / المؤسسة العالمية لتوزيع الكتاب / بيروت / ١٩٩٠م.

(٢) محسن الأمين الحسيني العاملي / أعيان الشيعة ١٣١/٦. تحقيق: السيد حسن الأمين / دار التعارف للمطبوعات / بيروت / ١٩٨٦م.

(٣) محمد هادي الأمين / معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام ٤٥١/١ / الطبعة الثانية / ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

كان السيد الحمادي مثلاً نموذجياً للعالم الحوزوي المتخصص، وبقي على هذه المنهج لم يجد عنه طرفة عين أبداً حتى وفاته، وسبب ذلك عشقه الواقعي لحياة العلم الخالص، فوهب للعلم حياته، فأعطاه ثماره، وألقى عليه بظلاله، فكانت نشأته في هذا الضوء نشأة مباركة، وتوجهه لايشوبه شيء من نزاع الدنيا، أخلص لله في نيته، فأثار دربه بالعلم.

أساتيد وشيوخه:

كانت توجهات السيد الحمادي طاب ثراه متنوعة الجوانب، مفتحة على سبيل من العلم لاينضب، فنهل من ذلك المعين الدافئ حتى المعارف الحوزوية الضرورية للطالب اليقظ المتحفظ، مما لايدل له من الانكباب عليها والتخصص بها، فكان الفقه والأصول أول أهدافه، والحكمة والفلسفة من متمات مسيرته، وقد درس ذلك على أعلام عصره، وأبرزهم:

- ١- زعيم الأحرار المولى الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني.
- ٢- المرجع الأعلى السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي.
- ٣- آية الله الشيخ فتح الله الأصفهاني المعروف بشيخ الشريعة.
- ٤- الميرزا محمد الطهراني.
- ٥- الشيخ علي النوري.
- ٦- السيد علي أصغر الهزار حريمي.
- ٧- الفقيه المتبحر الشيخ علي باقر الجواهري.

وهذه الصفوة المختارة من الأساتيد هم مدار البحث العالي في التدريس، وقادة الحوزة العلمية في الإفادة والإبداع، ودعائم الفلسفة الإلهية والحكمة في الإنارة المعرفية.

ويبدو أن عمدة حضوره في البحث الخارج كانت تنقلب بين المولى الآخوند، والسيد الطباطبائي اليزدي، وشيخ الشريعة.

يقول السيد محسن الأمين الحسيني العاملي:

«وظلّ ملازماً درس الخراساني اثنتي عشرة سنة، وبعد وفاته لزم درس اليزدي ثمان سنين، ثم لزم درس شيخ الشريعة حتى وفاته، كما حضر مدة درس الشيخ علي الجواهري.

وبعد وفاة شيخ الشيعة استقل بالدرس والتدريس طيلة عشرين سنة»^(١).

ومهما يكن من أمر، فقد كان أساتيدَه يقدرونه حق قدره، لاسيما المولى محمد كاظم الأخوند صاحب «كفاية الأصول» إذ بدا عليه أنه كان يقبض بإفاضة تلميذه، ويعتزّ بسماع جدله ومحاورته ونقاشه، فقد سمعت أنه في إحدى هذه المباحثات استمع إليه مسروراً وهو يناظر أحد زملائه بحضور أستاذه، فأعجب بذلك، ولما خرج السيد الحمّامي قام الشيخ الأخوند وودع ووضع شيئاً في جيبه، ولما خرج تفقّد هذا الشيء وإذا به ثلاث ليرات عثمانية، وهو مبلغ ضخم آنذاك، ويعتبر تعبيراً عن الرضا عن تلميذه، وأنه ممن ينبغي أن يشجع ويلتزم.

خصائص السيد الحمّامي ومميزاته:

عرف عن السيد الحمّامي قدس سره -و كما رأيت- إنساناً متواضعاً، ورجلاً مجبولاً على فطرته، فهو ذو نفس ولوية وذات قدسية، يقطر العرفان والسلوك في إشارته، ويندفع الإنسار والسرّ في منهجه، لم يعرّ الدنيا أيّ اهتمام، ولم يسعّ إلى الجاه طرفة عين أبداً، ولم يعتر بالمظاهر البراقة، وزهد في الاعتبارات الزائلة شأنه بذلك شأن علمائنا الأبرار قدس الله أسرارهم.

ولو أردت أن أعطيك صورة متكاملة عن ذلك دون مبالغه، لقلت: إنه مترسل في حديثه، ذو سريرة طاهرة، وأخلاق مرضية عالية، وشمائل إنسانية متدفقة، صابر، ذاكر، محتسب، زاهد، منيب، قانع، فقير، محتاج، قد لا يجد إلى قوت يومه سبيلاً.

(١) محسن الأمين / أعيان الشيعة ١٣١/٦ طبعة دار المعارف / بيروت.

روى الحجة السيد محمد تقي بحر العلوم قدس سره، أنه في أحد الأيام لم يجد في داره ما يتغدى به، وكان بحاجة إلى الطعام، فقصد السيد الحمّامي في داره عسى أن يجد عنده شيئاً مما يسدّ به الرمق، وطرق الباب، وفتح السيد الباب، وإذا به في ساحة الدار، وبين يديه كتاب «جواهر الكلام» وهناك حشفٌ في الدار ظاهر للعيان، فسأله عن سبب بغيثه في الظهر، فأخبره بالحقيقة، فقال: وأنا لاغذاء لديّ على الإطلاق، وأنا جالس هنا لحراسة أولادي من الوقوع في هذه الحفرة الكبيرة، إذ انخسفت (البالوعة) ولا مال لدي لإصلاحها.

هذا الرجل قريب من نفوس الجماهير، محبوب لدى الخلائق، ذو بسمة ملائكية، وترحيب كريم، وبشر طافح على الوجه، يحترم كل أحد، ويبتذل كل إنسان في منظور واحد يتمثل بحسن الظاهر والورع، والحمل على الصحة، وذلك سيماء الصالحين.

وكان شديد الإيثار، يؤثر على نفسه وهو في خصاصة، فقد جمع له أهالي محلة العمارة في النحف الأشرف عدة مراتٍ مبالغ من المال لشراء دار له، فهو لا يمتلك داراً، ولكنه كان يصرف ذلك المال في شؤون المحتاجين، وتلبية رغبات الفقراء، وسدّ متطلبات رجال الدين، فقد أجرى على الجميع مرتبات شهرية منظمّة -قدر الإمكان- مما يردّه من الحقوق الشرعية على ضآلتها، ولكنه يوصلها إلى أهلها ومستحقيها دون احتجان.

ولم تكن طريق السيد الحمّامي معبّدة بالورود، فقد كانت المعيشة في ضنك مرهق، والحياة الاجتماعية في فقر شامل، وهو في حياته ضمن مجموعته العلمية، وكالأخرين في قوت بسيط، وضائقة مالية، وكان يكتفي بالزر القليل لإعالة أهله وعائلته الكبيرة، ولم ينعم بالرفاهية إلاّ لماماً آخر حياته.

يقول صديقنا العلامة الجليل الشيخ محمد جواد مغنية طاب ثراه وهو يتحدث عن أيام تحصيله العلمي لدى السيد الحمّامي -: «درستُ ست سنوات متوالية عند السيد الحمّامي لم أحضر خلالها على أستاذ غيره، ولازمته ملازمة الظلّ لصاحبه، وكان أستاذي أفقر أستاذ في النحف الأشرف، وكنت أنا أفقر تلميذ فيها، وكنتُ أشعر أنني من أحبّ تلاميذه إليه، وأقربهم لديه.. كان أستاذي على حاجته وكثرة عياله يبدو منطلقاً دائماً، مرحاً ساخرأً، وكثيراً ما أن يتخذ من حاجته موضوعاً للتفكّه والتسلية.

لقد كافح السيد الحمّامي بقوة وتقى، وصبر على الفقر والألم، مجاهداً في سبيل العلم والدين أكثر من خمسين سنة، وكان نتيجة هذا الصبر الطويل والجهد المتواصل أن ابتسمت له الأيام بعد العبوس، ولانت له الدنيا بعد الشدة، وأطاعته الظروف بعد الشوز، فأصبح عالماً، وأستاذاً، ورئيساً، ومرجعاً للطائفة، وآناه الله من فضله ما يرضيه ويكفيه، فوقى ديونه، ووسع على عياله، واشترى داراً، وأعان تلاميذه بما تيسر»^(١).

السيد الحمّامي في ثلحات من مسيرته العلمية:

أكبّ السيد الحمّامي على الدرس والتدريس طيلة ستين عاماً من الزمن، أخذ لنفسه ما شاء، وأعطى لغيره ما استطاع، وهو بيت الوعي، وينشر العلم، ويهدي إلى الصراط المستقيم، بإرادة صلبة، وسعي حثيث. لم تشغل السياسة باله، ولم يجعل نصيباً لها من وقته، ورأى أمنيته المنشودة تربية جيلٍ فاضل متكامل، وما عشم أن التزم طبقة من الروحانيين تدرّساً مضمناً في السطوح في شبابه، والسطوح العالية في أوائل كهولته، حتى نبغ منهم أفراد كثيرون، اعتنوا دعاة مرشدين، وعلماء ناهيين، وزعماء مكانة في المجتمع العراقي، وأديباء مبدعين في محافل النحف الأشرف.

(١) محمد جواد مغنية / تجارب مغنية / ١٢-١٤ / بيروت / ١٩٨٠م.

وكان قدس سره يحيي ليله بالمطالعة والتحضير والعبادة والإنابة، ويتابع أبحاثه بالمراجعة والتدقيق إلى ما بعد منتصف الليل، ويسرج لهاره بالإفادة والإضاءة والتدريس القويم، وما رؤي في محفل ديني، أو محضر اجتماعي، إلا وهو يناظر ويحاور ويجادل ويناقش ويقرر، وحلقات درسه الأولى تغصّ بفضلاء العصر، وأعلام النحف، وشباب الخوزة العلمية من عرب ومهاجرين، فإذا انتهى من درس في السطوح والسطوح العالية بدأ الدرس الآخرون وكان هذا ديدنه قبل طلوع الشمس إلى قبيل الزوال. وفي أيام التعطيل يؤم مجالس النحف العامة -آنذاك- وصوته يدوي بأمهات المسائل؛ والإشكالات العلمية ترد عليه من رجالات العلم، فيحيب جواب الواثق من وجهة نظره، المستدل على رأيه بالحجج والبراهين القاطعة، وكأنه في حلبة سباق يحرز بها قصب السبق، وفي ميدان حجاج يحقق فيها مطالب العلم اللباب، فتنتصت له القلوب قبل الأسماع، وتصفي له العقول قبل الأجسام، فهو ابن بجدتها وفارس حليتها.

وكم رأيتُه وهو يفوص في بحر العلوم يستخرج جواهره وآلته، في صوت جهوري وبُحِيّةٍ محبوبية وبيان مشرق، وكأنك في الرعيل الأول من تلامذة الأئمة (عليهم السلام)، وهم ينشرون علمهم، ويؤدون الأمانة إلى أهلها، وهو فوق هذا كله منضبط النفس، قويّ الشكيمة، لا يقترب من المزاج ولا يخلط الجدة بالهزل، بل حياته كلّها جدّ وكدّ وجهد، لم ييذر أيامه، ولم يفرط بشيء من وقته الثمين، فهو بين تحرير المسائل وتحرير الأحكام، وإرشاد الضالّ وقمع الضلال، وكان في هذه المسيرة النموذج الأرقى للمرجع المنتور الحذب المشفق على إقامة صرح الإسلام، وإشادة معالم الدين، وإحياء سنن النبي وآله الطاهرين. وقد عدّ -بحقّ- الأستاذ محمد علي جعفر التميمي بأنه:

«زعيم أهل الفضل، يدير شؤون أهل العلم وطلاب الدين المقدس بمصدر رحب، وأخلاق قدسية سامية، جذابة للنفوس بروحانيتها، فهو أبّ ديني لأهل

العلم، ومرباً أخلاقياً للحوزة العلمية، وإلى مقامه السامي تقصد العلماء، وتتوجه الطلاب من مختلف الأقطار الإسلامية، فهو كعبة آمال العلماء، والمقصود المنشود لأهل الفضل من المهاجرين لطلب العلم للإفادة من فاضل علمه وغزير فضله، وترتشف من مناهل فيض أخلاقه، وعبر قدسيته»^(١).

قلَّه درّه أبا ومرتباً، قد شمر عن ساعديه للنضال العلمي، وكرّس حياته كلها للمناخ الحوزوي، لا يشبه عن ذلك عائق، ولا يقصّر به شوط طويل، فكم من عفة في طريقه، وكم من مشكلة بإزائه، وهو صلب العود، قد توكل على الله تعالى فكلا العقبات والنكبات، وجعل الآخرة بين عينيه، فتجاوز تلك المصاعب والمتاعب ليوم الخلود الأبدى، فكان مثلاً مصداقياً لأية النفس في القرآن العظيم، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٢).

مرجعياته الدينية:

حينما توفي المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني ٩/ذي الحجة/ ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م سعى أهل العلم والفضل والمروءة أن يؤدي السيد الحمّامي طاب ثراه، الصلاة جماعةً بمقامه من الصحن الحيدري الشريف على عین الداخل إليه من باب الفرج الذي يلي سوق القاضي في النجف. فكان ذلك موضع ترحيب الحوزة العلمية، وأقام السيد الحمّامي الجماعة، واثمّ به أهل العلم وجمهير الناس، وكان أحد مراجع التقليد، يُعاود بالمسائل الشرعية، وتعرض عليه الاستفتاءات، ويرجع إليه طائفة من المؤمنين في أحكام الحلال والحرام؛ وقد لخص هذا العبء الثقيل إلى جانب المراجع العظام: السيد محسن

(١) محمد علي جعفر التميمي / مشهد الإمام / ١٦٥.

(٢) سورة التوبة / ١٢٢.

الحكيم والشيخ محمد رضا آل ياسين، والأغا السيد حسين البروجري، والسيد عبد الهادي الشيرازي، والسيد محمود الشاهرودي وبقية أساطين المرجعية العليا قدس الله أسرارهم.

وكان السيد الحماصي في ترسله المعروف، وسلامته الذاتية، ذا بصيرة نافذة وهمة عالية، فاستقبل مهماته الجديدة بصدر رحب، واستجابة مرنة للتكليف الشرعي، لا أكثر ولا أقل.

وتعدد المرجعية من آلاء الله تعالى على الإمامية، ففي كل عصر من عصور التاريخ، ومنذ المرجع الأعلى الأول بالمعنى الدقيق الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان العسكري الكاظمي البغدادي (ت ٤١٣ هـ) وإلى عصرنا الحاضر، نجد في الميدان العلمي أكثر من مرجع واحد، ونلمس أكثر من ساغ إلى الكمال المرجعي، لئلا يتعطل الشرع وتخبر أشعة أهل البيت (عليه السلام)، وهذا هو التنافس المشروع والعمل المقبول، قال تعالى: ﴿لَوْ شِئِنا لَجَعَلنا مِنْ دُونِكَ أَهْلَ السُّبُلِ فَاصْبِرْ إِنَّ وِجْهَنا لِلْعَالَمِينَ﴾^(١) فالعلم فوق الجميع، ومن ركب إليه الطريق السوي، وفقه الله إليه، أما المرجع الأعلى، فظهوره واضح للعيان بشهادة أهل الخبرة، وبالشيوع العام لدى أهل العلم، وبذلك يكون تكافؤ القرص. وليس ذلك من التفرق المزعوم كما يذهب إلى ذلك أعداء الإسلام، بل هو من الرحمة التي جعل الله بها هذه الأمة، فجعل الدعوة كثيرين، والمراجع متعددين، والعلم مشاعاً بين العلماء، فمن نبغ فيه، فهو أهل لاحتلال المنزلة العظيمة في شؤون الدين والدنيا، وليس ذلك حكراً على أحد على الإطلاق.

ومهما يكن من أمر، فقد برز السيد الحماصي طاب ثراه، كأحد المراجع البارزين، فأصدر تعليقاته على «وسيلة النجاة» للسيد أبي الحسن الأصفهاني، فأخذها المقلدون بعين الاعتبار، واستقبلها رجال الدين بالنظر العلمي، وكثر

(١) سورة الصافات/ ٦١.

مقلدوه في القصبات والأقاليم، فأصدر رسالته العملية في العبادات والمعاملات، وأسماها «هداية المسترشدين» ونفدت طبعتها الأولى، وأعيد طبعها مراراً لاتساع دائرة مقلديه.

وكان السيد الحمّامي قدس سرّه يميل إلى الانزواء وعدم الظهور، لانشغاله التام في الدرس والتدريس الذي استوعب ليله ونهاره، ولدى الاصطدام بالحقيقة الواقعة لهض بالأمر، وتهد بالمسؤولية، فكان مرجعاً مثالياً بطبيعته الفطرية. ما كان يُطلبها.. ولكن بمنحةً والله يعطي عبده تفضيلاً ولكنه لم ينسَ مشروعه العلمي، فدأب على البحث الخارج في «جامع المهدي» فقهاً وأصولاً ودرايةً، فكان رجل الفقاهاة المتميز، وبطل العلم الذي يشار إليه بالبنان.

«تخرّج في كلية درسه فطاحل العلماء، وجهابذة أهل الفضل، وهي تنتشر في بقاع الأرض لتقوم بواجبها الديني، وما فرض عليها الشرع الشريف من تليغ الأحكام»^(١).

وكان بحته العالي للدرس الخارج قد استمر أكثر من ثلاثين عاماً، فقهاً وأصولاً.

ولا أنسى ذلك اليوم الذي حضر بحته فخامة الدكتور محمد فاضل الجمالي رئيس الوزراء العراقي الأسبق عام ١٩٥٤م، كما حضر بحث الإمام الحكيم والإمام الخوئي، فخرج الدكتور الجمالي منبهراً، وأبدى رأياً جليلاً في هذا النوع من الدراسة، واعتبرها أرقى الدراسات الأكاديمية في العالم، كما ذكر ذلك بمذكراته.

وهي شهادة رجل علم ذي اختصاص بالتربية والتعليم لها قيمتها الموضوعية، وأهميتها الخاصة.

(١) محمد علي جعفر التميمي / مشهد الإمام / ١٦٥.

تلامذة السيد الحمّامي:

تخرّج في حلقة السيد الحمّامي قدس سره في البحث الخارج طائفة كبيرة من العلماء والدعاة وأهل الفضل، «وقد كثر تلامذته لما وجدوه فيه من سعة العلم وحسن البيان، فانتالوا عليه من مختلف البلدان الإسلامية العربية والفارسية والتركية والهندية واللبنانية والسورية... - وكان أول هذا الدرس في مسجد الشيخ الجواهري قدس سره- ثم انتقل إلى جامع الهندي، فجعل درس الأصول ليلاً، ودرس الفقه نهاراً، وهو إذ ذاك يباحث الخارج، ومكث مدة عشر سنوات، حتى شيّد الجامع المعروف بـ«جامع المراد»، فنقل درس الفقه صباحاً إليه، لأن الجامع شيّد باسمه، وتوسعت تلامذته حتى أصبح طلاب درسه يتجاوز الثلاثمائة أو الأربعمائة طالب»^(١).

ولم ندرك الطبقة الأولى منهم تاريخياً، وانقرضت الطبقة الثانية، ولا نعرف أسماء المهاجرين من الطلاب والمشتغلين، ولا نعرف -أيضاً- أسماء الطلبة الإيرانيين لمناداتهم بالشهرة من دون الاسم، ولست في أسنان أولئك التلامذة، وسأدون أسماء من أدركتهم من تلامذته، ممن ارتسمت أعيانهم في الذاكرة، وما لا يدرك كله لا يترك كله.

١- السيد أحمد الصافي النحفي.

٢- الشيخ أحمد الشيخ عبد علي زائر دهام.

٣- الشيخ أحمد سعد الساعدي.

٤- الشيخ باقر شريف القرشي.

٥- الشيخ باقر أبو خمسين المحجري.

٦- الشيخ جواد الساعدي.

٧- الشيخ جواد ميمس

- ٨- السيد جواد الموسوي.
- ٩- الشيخ جعفر محبوبة.
- ١٠- الشيخ جعفر يونس.
- ١١- الشيخ حسين زائر دهام.
- ١٢- الشيخ حسن شومان.
- ١٣- الشيخ حسين شرع الإسلام.
- ١٤- الشيخ حسن الشميساوي.
- ١٥- الشيخ حبيب العادلي.
- ١٦- السيد حيدر الحلو.
- ١٧- الشيخ حضر الحساني.
- ١٨- الشيخ سالم سميم.
- ١٩- الدكتور عبد الرزاق عبي الدين.
- ٢٠- الشيخ عبد الجليل العادلي.
- ٢١- الشيخ عبد المنعم الكاظمي.
- ٢٢- الشيخ عبد المنعم العكّام.
- ٢٣- الأستاذ عبد الكريم الدجيلي.
- ٢٤- الشيخ عباس العادلي.
- ٢٥- الشيخ عبد الحميد الصغير.
- ٢٦- السيد عبد الكريم الحماسي (نجل المترجم له).
- ٢٧- الشيخ عبد الهادي حموزي.
- ٢٨- السيد عبد الرزاق كمونة.
- ٢٩- السيد عبد علي الحلو.

- ٣٠- الشيخ عبود الخاقاني.
- ٣١- الشيخ عبد علي سميسم.
- ٣٢- الشيخ علي الصغير (درس عنده ربع قرن في السطوح والسطوح العالية والبحث الخارج).
- ٣٣- الشيخ علي ثامر.
- ٣٤- الشيخ علي حرز الدين.
- ٣٥- الشيخ علي الشيخ حسين سميسم.
- ٣٦- الشيخ علي الشيخ عبود سميسم.
- ٣٧- الشيخ غني العادلي.
- ٣٨- الشيخ فاضل جيوان.
- ٣٩- الشيخ قاسم محي الدين.
- ٣٩- الشيخ قاسم محي الدين.
- ٤٠- الشيخ كاظم ثامر.
- ٤١- علامة العراق الشيخ محمد رضا الشيبلي.
- ٤٢- شاعر العرب الأكبر الأستاذ محمد مهدي الجواهري.
- ٤٣- السيد محمد علي الموسوي الحمامي (النحل الأكبر للفقيد).
- ٤٤- الشيخ محمد جواد مغنية.
- ٤٥- الشيخ محمد حسن حيدر المظفر.
- ٤٦- الشيخ محسن زائر دهام.
- ٤٧- الشيخ محمد زائر دهام.
- ٤٨- الشيخ محمد تقي زائر دهام.
- ٤٩- الشيخ محمد حسين زائر دهام.

- ٥٠- السيد محسن الموسوي الحماي (تجل المترجم له).
- ٥١- الشيخ محمد حسين سميسم.
- ٥٢- الشيخ محمد حسين حرز الدين.
- ٥٣- الشيخ محمد الشيخ جعفر حيدر.
- ٥٤- السيد محمد السيد عبد الحكيم الصافي البصري.
- ٥٥- الشيخ محمد حسين الشيخ راضي نصار.
- ٥٦- الشيخ موسى الشميساوي.
- ٥٧- السيد نعمة الصافي.
- ٥٨- الشيخ نوري الجزائري.
- ٥٩- الشيخ هادي الشيخ شريف القرشي.
- ٦٠- السيد هادي عرب.
- ٦١- الشيخ هادي سميسم.
- ٦٢- السيد يوسف الحلوي.
- هذا عدا المهاجرين من اللبنانيين والسعوديين والبحرانيين واليرانيين والباكستانيين، ممن لاأعرف أسماءهم، أو لاأحضرني أسماءهم.

مؤلفات السيد الحماي:

- تنوعت آثار السيد الحماي قدس سره في التأليف، فشملت الفقه والأصول والفلسفة، وأبرزها:
- ١- هداية المسترشدين / رسالته العملية / طبعت مراراً.
- ٢- حاشية على «وسيلة النجاة» للسيد أبي الحسن الأصفهاني / طبعت عدة مرات.
- ٣- تعليقة على كتاب «الذخيرة» مطبوع.

- ٤ - مناسك الحج / مطبوع.
- ٥ - تقارير علم الأصول لدروس أستاذه المولى الشيخ محمد كاظم الخراساني / غير مطبوع.
- ٦ - حاشية على رسالة المرزا الشيخ محمد حسين الغروي النائيني «ذخيرة العباد» / غير مطبوع.
- ٧ - تقارير أساتذته في الحكمة والفلسفة / غير مطبوع.
- ٨ - المسائل التحفية / كتاب استدلالي لإجابة الأسئلة الفقهية والأصولية التي بعث بها إليه بعض علماء التحف الأشرف / أحاب عليها استدالياً / غير مطبوع.
- ٩ - حاشية على كتاب أستاذه الآخوند الخراساني «كفاية الأصول» غير مطبوع.
- ١٠ - حاشية على مكاسب الأستاذ الأعظم الشيخ الأنصاري / غير مطبوع.
- ١١ - تقارير في الفقه الإمامي / تلقاها عن أستاذه في البحث الخارج / السيد محمد كاظم اليزدي وشيخ الشريعة الأصفهاني / غير مطبوع.
- ١٢ - كتاب سؤال وجواب / يشتمل على طائفة كبيرة من إجاباته عن مختلف المسائل الفقهية / ورثه على منهج كتب الفقه في العبادات والمعاملات / غير مطبوع.

وفاة السيد الحمّامي وتأبينه:

اعتلت صحة السيد الحمّامي فجأة، فنقل إلى بغداد فوراً، وأدخل المستشفى للعلاج، واعتنت به الدولة عناية خاصة، فأفردت له جناحاً مستقلاً في مستشفى الشعب، إلا أن أعراض الشيخوخة وكثرة همومه قد تغلبت عليه، فلبى نداء ربه ليلة الثلاثاء ٢٣ / جمادى الأولى / ١٣٧٩ هـ - ٢٧ / ١١ / ١٩٥٩ م، وأذيع نبأ وفاته في الإذاعة العراقية، ونعته الصحف البغدادية، فحفّ الناس إلى تشييعه، ونقل جثمانه إلى التحف الأشرف، وشيخ

تشييعاً جماهيرياً ضخماً، شارك فيه المراجع العظام والعلماء الأعلام، ورجال الدين، وطبقات الشعب كافة، وأغلقت الأسواق والمتاجر، وعطلت الدروس والبحوث في الحوزة العلمية، وبعد أن صلى عليه ولده الكبير السيد محمد علي الموسوي الحاملي في الصحن الحيدري الشريف، وجُدِّدَ به العهد بزيارة ضريح أمير المؤمنين (عليه السلام)، حُبل على مشواه الأحرار في مقبرة خاصة إلى جنب «مسجد المراد» مقابل مسجد الشيخ الطوسي، وحينما دخل المسجد والمقبرة ضمن الشارع العام، نقل جثمانه إلى مقبرة خاصة قبال مسجد الخضراء، وتوسعت دورة الصحن، فكانت المقبرة ضمن الدورة، فنقل جثمانه إلى مقبرة أخرى في الربع الأول من شارع الإمام زين العابدين (عليه السلام) للداخل إليه من أول البلدة، وكان جثمانه الشريف مع هذه التنقلات التي استغرقت ربع قرن من الزمان، غضاً طرياً لم يغيره تطاول السنين على ما بلغني.

وأرخ العلامة الجليل السيد موسى بحر العلوم عام وفاته بقوله^(١):

يا للهدى من حادثٍ قد جرى له دم القلب من المقلتين
دهي الغربيين.. وراحت لظي أشجانهم تلستهم الخافقين
فقلت في موجز تاريخه: (روعت الدنيا بموت الحسين)

وأقيمت الفواتح على روحه الطاهرة من قبل المراجع والعلماء والحوزات العلمية والكسبة والتجار والوجوه والأعيان، وفي المساجد والحسينيات والمحافل في النجف الأشرف وبقية قصبات العراق، وقد قصدت فواتجه الوفود من مختلف البلدان العراقية، وهي تعزي المرجعية وأسرة الفقيد والحوزة العلمية بمصاها الجلل.

وقد آتته جملة من الشعراء بقصائد حزينة، كان لها الأثر في النفوس، ومن

أبرزها:

(١) السيد محسن الأمين الحسيني / أعيان الشيعة ٦/ ١٣٢ / طبعة دار التعارف.

«قصيدة الأستاذ أحمد الصافي النجفي في رثاء الحمّامي»^(١)

لم أرث قبلك عالماً دينياً إلا لأنك قد خلقت زكياً
ولأنت أستاذي... حبتك عالماً سمحاً.. وحلاً صادقاً ووقياً
لك فضلُ تربيتي لإدراك العُلا إذ كنتُ أسلكُ نهجك العلويّاً
مثلتَ سورةَ «أحمد» في عصرنا حتى لكدتُ أقولُ كنتَ وليّاً
قد كانَ درسُكَ للعقولِ مغذياً ولكلِّ روحٍ منهلاً روحياً
رغبتَ في الدينِ المحمودِ بسورةٍ عرضتَ لنا الدينَ الحنيفَ حلماً
وفرجتَ علماً سامياً بفكاهةٍ فيها سبقتَ شرابك القدسيّاً
وتحلُّ مشكِلَةُ العويصِ بديهةً لك.. لم تدع سرَّ العلومِ خفيّاً
عدتَ مطمئناً نحو ربِّك راضياً إذ عشتَ عمرَكَ راضياً مرضياً
ولقد وهبكَ دمةً من مدمعٍ ما كان إلا للعلاء سخياً
ورثاه العلامة الشيخ عبد المهدي مطر بقصيدة جاء فيها^(٢):

أيّ نفسٍ لك قد روضتها لم يخفُ ركبها يوماً عشارا
طبعت من لغة اللطف.. فلم تنفجر غيضاً.. ولم تقدح شرارا
عفةً لم تتخذ زبرجها مركضاً.. كلا ولا الدنيا مغارا
العفاة استقبلت محتها دهشة بعدك إذ عادت حيارى
لك نفسٌ في الرضا هادئةً تخمدُ النارَ إذا شبت أوارا

(١) مجلة الموسم الهولندية / العدد ٧ / ج ٢ / ٩٩٢.

(٢) محسن الحسيني الأمين / أعيان الشيعة ٦ / ١٣١-١٣٢ / طبعة دار المعارف.

ولقد كنتَ بعيدَ الأفقِ عن
فلذالك امتزجت فانصهرت
شربت حبك عبأ... أتري
قد فقدنا أيّ نفسٍ سمحةٍ
وحجّالٌ خفّة الطبعِ عن
فتنة الناس... وإن ماجت بحارا
في القلوب الطهر ذنيك انصهارا
كيفَ فجّرتَ مآقيها غزارا
لا تری ممن يدانيها تقارا
بملاّ النادي إذا اكتظّ وقارا

«قصيدة المؤلف في رثاء الإمام الحمّامي»

ورثاه المؤلف بقصيدة كان لها أثرها في الأحداث السياسية آنذاك، وهي تصوّر تأريخ حقبة زمنية من الصراع في العراق، وقد ألفت في احتفال تأييني مهيب للفقيد برعاية الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم قدس سره، في «مسجد عمران» الملاصق للصحن الحيدري الشريف من جهة باب الشيخ الطوسي. ونشرت في كرّاس خاص / إصدار مطبعة الغري الحديثة / ١٩٥٩ م.

وإليك القصيدة:

حفواً بنعشيك.. والجموعُ تكبرُ
وكانّ نعشك.. والزحامُ يحوطه
حفواً به.. وتصاعدت زفراتهم
وكانه نعشُ «الحسين» بكريلاً
وتساءلَ المتجمهرون.. أفاثداً
لله فقدك.. أيّ خطبٍ فادحٍ!
في حين أن المسلمين بحاجةٍ
حتى إذا نطق الزمان.. وأفصحاً
فكانه قلّك.. وأنتَ المحورُ
قلّك.. بتيّار القداسة يزخرُ
ناراً تشبّ.. وخذوة تتسمرُ
وإذا «الحسين» هو الفقيدُ الأكبرُ
فیر الردي؟ أم أمةٌ بك تقبرُ
فيه العقولُ من الأسى تتحيرُ
لموجّه.. بمهاده تتحرّرُ
أقداره عمّا تكنُ وتضمرُ

وَدَعَتَ مَعْرَكَ الحَيَاةِ.. وَعَالِماً حَسَنَاتُهُ بَعِيوبِهِ تَسْتَرُّ

• • •

يا رَاكِبَ التَّسْعِينَ.. صَبَحَكَ مَشْرِقُ
أرسلتَهُنَّ فرائِداً وعرائِداً
للهِ أَنْتَ.. فكم نَشَرْتَ «رَسَائِلًا»
حَقَّقْتَهُنَّ «مَكَّاسِبًا» و«جَوَاهِرًا»
وَأَقَمْتَ «مِخْتَلِكَ خَارِجًا» وإِزَاءَهُ
جَدَدْتَ مَا أَبْقَى لَنَا «الطُّوسِي» فِي
هَذَا هُوَ المَجْدُ الَّذِي مِنْ دُونِهِ
وَإِذَا جَمَعْتَ القَوْلَ فِيكَ.. فَأَمَّا

بِالنِّيرَاتِ.. وَأَفِيقُ لَيْلِكَ مَقْمَرُ
جِدُّ الزَّمَانِ بِهَا يَزَانُ وَيُسْفَرُ
فِيهَا عَقُولُ الوَاهِبِينَ تَحْرُرُ^(١)
فَالدَّرَ نَنظُمُ.. وَاللَّائِي نَشْرُ
فِي كُلِّ مِجْتَهَدٍ يَهْرُ المَنَرُ
أَنَارُو.. وَبِنِي «المَفِيدُ» الأَكْمَرُ
مَا شَادَهُ «كَسْرِي» وَحَقَّقَ «قَبِصْرُ»
مِنْ دُونِ عَزِيمِكَ مَا دَحَا «الأَسْكَندَرُ»

• • •

أَبْقِيَةَ السَّلَفِ الأَمَلِي تَأْرِيجُهُمْ
أَفْنَيْتَ عَمْرَكَ بِالصَّلَاحِ وَبِالتَّقْوَى
وَأَجَلُ عَمْرٍ فِي العَقِيدَةِ يَنْطَوِي
وَعَرَفْتَ أَنَّ العَمْرَ مَا يَبْنِي بِهِ
فَبَنَيْتَ مِنْ عَلِيَاكَ بِمِجْدَادٍ شَائِحًا
وَسَلَكْتَ دَرَبَ الصَّالِحِينَ.. وَإِنَّهُ
وَقَضَيْتَ فِي عِبِ الزَّعَامَةِ قَانِمًا
وَرَفَعْتَ لِلإِسْلَامِ بِنْدًا خَافِقًا
فَلتَبَقْ فِي التَّأْرِيفِ رَمِزًا خَالِدًا

فِيهِ الحَيَاةُ نَدِيَّةٌ تَنْعَطِرُ
للهِ تَعْمَلُ جَاهِدًا وَتَفَكَّرُ
وَيُظَلُّ مِنْهُ عَلَى الشَّرِيعَةِ بِمِجْرُ
بِحَدِّ.. نَجْمُ الأَفَاقِ عَنْهُ تَقْصُرُ
بِفَنِي الزَّمَانِ... وَذَكَرَهُ يَتَكَرَّرُ
دَرَبٌ بِهِ سَلَكَ «النَّبِيُّ» وَ«حَيْدَرُ»
كِي يَهْتَدِي بِكَ جَاهِلٌ مَتَحَيِّرُ
فِي ظَلَمَةِ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ بِمِخْطَرُ
يَطْوِي الزَّمَانَ.. وَسَفَرُ بِمِجْدِكَ يَنْشُرُ

• • •

(١) الرسائل والمكاسب والجواهر من أمهات كتب الدراسة في الحوزة العلمية.

فألوضع يعلنُ بالفناء وينذرُ
 أقوى من الموت الزوَام وأقدرُ
 فينا.. ويرهبو محتناه، ويشمرُ
 تحت الستارِ مسيرٌ ومدبرُ
 ذهبت سدى.. وطريقكم مستوعر
 والهولُ غداءُ بنا ومبكرُ
 مُهَجّ تذبوبٌ.. وأدمع تتفجرُ
 أين الحِفاظُ المرّ.. أين المنكرُ
 داءٌ بكل فظاعة سيشرُ
 نعتزّ في تأريخها.. بل نفخرُ
 أفلامٌ ذلّ.. غيهنّ مصوّرُ
 في محنة.. إنا تطاير عنبرُ
 ولسوف يسأم عيشه من يغمرُ

فألليل ولّى.. والصبحُ سيفرُ
 فالشرُّ أحرق.. والبلاءُ مسيطرُ
 وطغى بسطوته «الوباءُ الأحمرُ»
 يحدو بمن تمدّن ونحضرُ؟؟
 والمصلحون المخلصون تنكروا
 فحديثهم بالمولات يوطرُ
 تنهى وتحكم ما تشاء.. وتأمُرُ
 ويشعُ معروف.. ويغرب منكرُ

يا قادة التحف الأغرّ.. تأهبوا
 إن لم تصدوا الحادثات بعزيمة
 فتيقنوا بالشر! ينمو غرسُهُ
 والنايات سيستعيد فصولها
 هبوا.. فقد طال المدى؛ وجهودكم
 وتحشدوا.. فالليل قد بلغ الزبي
 فإلى متى نبقى.. وهذا حالنا:
 أين الجهاد الحرّ؟ يا أربابهُ
 إنا بلينا بالأناة.. وإلها
 طويت عهدٌ قد تسمى ذكرها
 واليوم قد عادت وتلك فضيحةُ
 يا للفجيعه.. كلّ أن نرغمي
 حتى ثمادى الغيُّ في طغيانه

يا راقدين على الهوان.. تيقظوا
 دال الزمان.. وغيّرت أوضاعه
 فسّ الظروف.. فحطمت آمالنا
 وتوافدت زمرُ المبادئ فحاة
 والدين.. ديين محمدٍ في عزلة
 والمسلمون بحالة يرثى لها
 والفوضوية ما تزالُ كأمسها
 فمضى لنا تصفو الحياة كما بدت

ويضيء تأريخ الكرامة ناصعاً كي يستقيم العالم المتدهورُ

•••

يا أيها الحفلُ المهيّبُ.. شكايَةٌ هطلت على الوطن الحبيب فذائفٌ في كلِّ أنٍ للفجائع مشهد
وبأرض «كر كوك» ضحايا أمةٍ و«الموصل الحدباء» أسدل دولها
ماذا يحدث شاعرٌ عن فتنةٍ ومتممٍ باسم «السلام» مغفلي
وإذا «السلام» على الشعوب كما انتهى وإذا بـ«أنصار السلام» عصابة
وإذا الجموع مستخرون لطغمةٍ فمضى لقب إلى الجهاد ككاتبٍ
تستافُ من نفع العقيدة عزمها

طفحت.. وها هي بالأسى تنفطر^(١) مشبوبة.. جمراتها تتسمرُ
وبكلِّ حيٍّ للفظائع منظرٌ قد لفها أجلٌ رموه مقدرٌ
سراً.. فصمتي من مقالي أشعرُ بالفوضوية سيلها يتحدّرُ
فإذا السلام هو الوباء الأصفرُ حَمَمُ الحروب صواعق تمطرُ
للأجنبي بقودها ويسيرُ «شرقية الأهداف» لا تستبصرُ
تتري.. يهَلُّ عزمها ويكبرُ وتبرُّ داجية الطيريق.. فيزهرُ

•••

ومثقفين.. وكلُّ ما في وسعهم باسم الثقافة والتمدن جردوا
يا للثقافة.. أيُّ سرٍّ غامضٍ؟ أمن الثقافة أن يغرب موكبٌ؟
إن الثقافة يا شباب.. وسيلةٌ

مرحٌ يدوم.. وكأسٌ حمرٍ تعصرُ سيقاً.. على نُظُم الثقافة يُشهرُ
هذا الذي فيه الثقافة تكفرُ أو أن يشرق موكبٌ متعسرُ
للمكرمات.. وحكمة.. وتندرُ

(١) المورد يتحدث عن مجزرتي «كر كوك» و«الموصل» إثر عقد مؤتمر «أنصار السلام» في الموصل في آذار/ ١٩٥٩م.

وتثبتت.. ونحس.. وتفكر
وتضام أنفسكم.. ويقفوا المحجر
في رأيه.. أو أن يحول مزمر
تسمو إلى ما لأينال وبصحر
بالموقوفات نتاجها يتمور
تبكي البلاد.. ويضحك المستعمر

وسما بما بذل «الوصي» و«جعفر»
بالخلق يتضح.. والأصالة يزخر
فيها كيان العالمين يُدهور
قبساً.. ولا غريبة تنور
غلاً بتقواه.. ولا متأخر
وهج يشع.. ورحمة تنطر
وهم بزعمهم أذل وأقصر
كلا.. ولا هو آلة تسخر
في ظلّه ينحو العديد الأكثر
وهو الطريق المستقيم الأزهر
عبر المحيط.. لها الكيان الأوقر
دور التطور فحة التطور
مُخصّر.. ونظامه متحرر

إن الثقافة يا شباب.. تعقل
ليس الثقافة أن يبدد شملكم
ليس الثقافة.. أن يصول مطبل
وثقافة التوثيق.. مدارج
وثقافة المترهلين.. نجارة
ولن تراد ثقافة من أجلها

دين بناه لنا النبي محمد
دين يسير مع التجدد توأم
ما فيه من رجعية الفكر التي
هو شعلة الإيمان.. لا شرقية
فوق الميول.. فلا قريب عنده
سن الفضائل.. فهي في قسامته
زعموه «أفيون الشعوب» مخدراً
ما الدين أفيون الشعوب كما ادّعوا
الدين فيض عوالم قدسية
والدين يلسم كل حرج مشخ
والدين من أقصى الخليج رسالة
جمع القدم إلى الحديث.. وقام في
فسيله متنور.. وترأته

أفقيه هذا العصر.. عفواً إن نبا
يا قائد النحف الأبرّ.. وحارس
أحييت شرع الله في «مستمسك»
ماذا أقول.. وكل معنى يرتمي
لك من كيانك منعة جبارة
وعليك من روح النبي محمد
وهذا كالنجم المخلق في السما
فاشبح فمجدك في القلوب مصور

شعري.. فمجدك من مقامي أكبر^(١)
الدين الأغرّ.. ومن به تبصر
فيه العقول - كريمة - تتحرر
عجلاً على قدميك حين أصور
وصلاية في الرأي لا تتغير
تقوى.. وإيمان.. وعلم مشر
ياد السنا.. عال الذرى.. متعطر
وافخر فجهدك في النضال سيشكر

• • •

(١) المخاطب سماحة الإمام السيد محسن الحكيم قدس سره، وقد حضر الاحتفال نفسه.



السيد عبد الله الموسوي الشيرازي . جريئاً

النشأة الأولى:

السيد عبد الله الشيرازي بن السيد محمد طاهر الشيرازي، ويعود بنسبه الزكي إلى الإمام موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام).

نسباً كأنّ عليه من رآه الضحى ألقاً.. ومن فلق الصباح عموداً زعيم محنك، وقائد جريء، وعالم عامل مناضل، وروحاني فذ متميز، من مراجع التقليد العظام في حاضرة النجف الأشرف منذ الخمسينات من القرن العشرين.

ولد في شيراز ليلة الأحد ١٣ / شعبان / ١٣٠٩ هـ الموافق لعام ١٨٩١ من الميلاد.

ونشأ في ظلال والده السيد محمد طاهر الشيرازي، وكان أحد أعلام بلده المرموقين، وعلى يديه أخذ مبادئ العلم وهو في الثالثة عشرة من عمره الشريف، وأتمى أوليات علم النحو واللغة والمنطق والبلاغة القديمة، ودرس الفقه الفتاوي، وحينما شرع في دراسة الأصول والفقه الاستدلالي فوجئ فوراً باعتقال والده واعتقاله وهو في التاسعة عشرة من العمر، ونفي إلى مدينة (سيوند) هو وأبوه، لاحتجاجهما على زيارة المنسوب البريطاني السير وليم كوكس إلى شيراز، وتحريم أيه استقباله، ولتبت

الجماهير المسلمة ذلك الحكم الشرعي، وعاد المندوب البريطاني من حيث أتى بخفي حنين، وكان ذلك في بدايات العقد الثاني للقرن العشرين، وكان لهذه الحادثة أثرها المستقبلي في مسيرة حياة السيد الشيرازي قدس سره وهو لم يبلغ العشرين من العمر، وقد حدد مسؤوليته التاريخية في الإصلاح بقوله: «الدين هو الإصلاح، والمصلح لا يتخشى التقى، ولا يهاب السحن والإعدام أبداً»^(١).

الهجرة إلى النجف الأشرف:

والنجف الأشرف مهوى أفئدة طلبة العلوم الشرعية، فهي عاصمة العالم الإسلامي في درس الخوزوي الحرّ، فلا حدود له، ولا قيود رسمية عليه، لأنه في منأى عن التوجيه المباشر وغير المباشر للدولة، وذلك لاستقلاله التام في البحث العلمي والعطاء المعرفي العظيم، من دون الالتزام بزمن معين أو وقت محدد عملاً بقول الرسول الأعظم (ﷺ): «اطلب العلم من المهد إلى اللحد».

غادر السيد الشيرازي في جمادى الأولى عام ١٣٣٣هـ - ١٩١٤م، وهذا التاريخ له أهمية كبرى في تاريخ النجف الأشرف السياسي والديني إذ انطلقت فيه جحافل المجاهدين لمحاربة الإنكليز لدى احتلالهم البصرة ثغر العراق الباسم، واتجه الركب الجهادي إلى الشعبية بقيادة علماء النجف الأشرف، وألقى السيد محمد سعيد الحبوبي بطل العلم والشعر والجهاد قلمه، وانتضى للحرب سيفه، وسار على بركة الله تعالى بما هو مفصّل في هذا الكتاب.

هبط السيد الشيرازي في النجف الأشرف طالباً في الحوزة العلمية، ونزل مدرسة زعيم الأحرار الشيخ محمد كاظم الخراساني (ت ١٣٢٩هـ) وكانت الكبرى من مدارسه العلمية التي شيّدها لطلاب العلوم الشرعية، وتقع في محلة الخويش من النجف الأشرف.

(١) أضواء على جوانب من حياة الإمام الشيرازي/١٢.

وكان السيد عبد الله الشيرازي قد أكمل في الحقبة بعد اعتقاله وقبل هجرته: دروس السطوح في الفقه والأصول، ولدى وصوله المبارك إلى النجف الأشرف التحق بمحلقات البحث العالي الخارج.

أساتيد وشيوخه في النجف الأشرف:

كان أساتذة البحث الخارج في النجف الأشرف عصارة الفكر الإمامي في التطور والتجديد في الفقه والأصول، وهما سبيل الاجتهاد في هذا المدرس العالي، وعند التحاق السيد الشيرازي بهذا المستوى الرفيع في الرابعة والعشرين من العمر، كان قد طوى صفحة من الدراسة المتخصصة سطوحاً في بلده الأصلي، وهنا تفتحت عيناه على مناخ جديد سرعان ما انجذب إليه وتفاعل معه، فالحلقات الدراسية بهذا المستوى كثيرة، وكانت النجف حافلة بعشرات الأساتيد الموضوعيين، وكان في طليعتهم نوابغ النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، وكان أبرزهم أستاذ الفقهاء والمجتهدين الميرزا الشيخ محمد الحسين النائيني الغروي (ت ١٣٥٥هـ) والشيخ آغا ضياء الدين العراقي (ت ١٣٦٠هـ) والمحقق الكبير الشيخ محمد حسين التنكابني الأصفهاني (ت ١٣٦١هـ) والسيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني (ت ١٣٦٥هـ) والشيخ محمد رضا آل ياسين (ت ١٣٧٠هـ) وأقرانهم ممن عرفوا بالعمق المعرفي، والإضافة النوعية في علم الأصول، والإضاءة المتوهجة في علم الفقه.

درس السيد الشيرازي عند الأربعة المتقدمين من هؤلاء الأساطين فقهاً وأصولاً وتربية أخلاقية عليا، وأفاد منهم مطالبه الأصولية ومبانيه الفقهية فيما بعد، إلا أن التصاقه بالأغا ضياء العراقي كان متميزاً حتى حسب عليه.

وكانت حصيلة ذلك أن عدّ من أبرز الطلاب علماء وعملاً، ومن المشتغلين والمحصلين حتى أجاز بالاجتهاد بعد اثني عشرة سنة من التحصيل العالي الدقيق.

وكان من أماني السيد الشيرازي أن يعود إلى بلده عملاً بقوله تعالى: ﴿فَلَوْ لَا كَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وبذلك أنهى الدور الأول من حياته في النحف الأشرف طالباً ومدرساً للسطوح في عام ١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م ليعود إليها بعد حين في رحلة كتب له فيها أن يكون أحد مراجعها في الفتيا والتقليد.

العودة إلى بلاده:

عاد السيد إلى شيراز في التأريخ المتقدم، ولم يطل به المقام فيها، بل التحق بالحوزة العلمية في «قم المشرفة» وكان مجدد حوزتها وقائد جيلها المتحفز الآية الكبرى الشيخ عبد الكريم الحائري قدس سره، فحضر بحثه ونهل من علمه، إلا أن الظرف السياسي بنا عصياً جداً، إذ كان مشحوناً بالإفرازات المضنية، فقد انتقل الحكم في إيران من القاجاريين إلى رضا شاه البهلوي عميل المحابرات العالمية، ودكتور إيران الكريه، فاستقر نظر السيد الشيرازي أن يتجه صوب حاضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) في مشهد المقدسة، ملتحقاً بالأغا السيد حسين الطباطبائي القمي قبل هجرته إلى كربلاء المقدسة ووفاته فيها عام ١٣٦٦هـ، والسيد يونس الأردبيلي، وهما من العلماء الأعلام البارزين، فشكّلوا مجتمعين قيادة صامدة بوجه التيار البهلوي الخارف. ولا تسل عن الأحداث الدامية التي شهدتها السيد الشيرازي في عراسان، والتي ذهب ضحيتها آلاف المعتصمين من الأحرار وعلماء الدين في حرم الإمام الرضا (عليه السلام)، وعند جامع «كوهرشاد» المائل حتى اليوم، فقد امتدت لغة المجاهمة مع رضا شاه من العلماء والناهين والمتحفزين، والنائرين بوجه الطغاة، وقد خالفوا الشريعة الإسلامية، وأطاحوا بالدستور الذي بذلت في سبيله أرواح الشهداء، ولدى اجتماع موسّع كبير في الجامع المذكور، أمر الشاه بمحصد الجميع حصداً بالبنادق والرشاشات في أكبر محرقة بشرية عرفها تأريخ عراسان الحديث، وسلم السيد الشيرازي من القتل، ولكنه اقتيد إلى معسكرات الاعتقال حيث الزنانات المعدة لأحرار الأمة.

الرجوع ثانية إلى النجف الأشرف:

ولدى تحرر السيد الشيرازي من سجون رضا شاه قرر العودة إلى النجف الأشرف، فلا مكان بإيران لمعارضى الشاه، فرحل عنها ميمماً وجهه شطر النجف الأشرف عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م ليتابع هذه المرة تدريسه في مريض أمير المؤمنين (عليه السلام)، وليقضى شطراً كبيراً من حياته العلمية في رحابها تجاوز أربعين عاماً، فكان أحد أساتذها البارزين، وعلمائها المعدودين، ولدى وفاة أستاذه السيد أبي الحسن الموسوي الأصفهاني في ١٠ / ذي الحجة / ١٣٦٥هـ كان أحد المائلين في بحثه الخارج، وأحد المعروفين بالتاريخ الناصع، وقد شهد بعدها مرجعية الشيخ محمد رضا آل ياسين الكاظمي، والسيد محسن الطباطبائي الحكيم، والسيد عبد الهادي الشيرازي، والسيد حسين الموسوي الحمّامي، والسيد محمود الشاهروودي وسيدنا الأستاذ الإمام الخوئي. قدس الله أسرارهم جميعاً.

وكان المترجم في عداد القادة المؤهلين للمرجعية، فكان له الأتباع والمقلّدون في جزء من العراق وإيران وسواهما. وأقام الصلاة جماعة في الصحن الحيدري الشريف فيما بين باب الفرج وباب القبلة، وبإزاء الميزان الذهبي لحرم أمير المؤمنين، وذلك بعد وفاة أستاذه السيد أبي الحسن، وكان الصحن الحيدري مزدهراً بإمام أعلام النجف الأشرف، فإمام جماعة السيد الشيرازي جماعة السيد حسين الحمّامي (ت ١٣٧٩هـ) فإذا اقتربت من باب القبلة واجهتك جماعة السيد محسن الطباطبائي الحكيم (ت ١٣٩٠هـ) وهي أكبر جماعة شهدناها في النجف الأشرف كماً وكيفاً ونوعياً، وإلى جنبها جماعة الشيخ حسين مشكور الحولاوي (ت ١٣٩٤هـ) ومن خلفها جماعة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (ت ١٣٧٣هـ) وإذا اجتزتها متقدماً نحو شمال الصحن طالعتك جماعة السيد محمد الحسيني البغدادي (ت ١٣٩٥هـ)، وبالقرب منها يبدو مدخل جامع الخضراء حيث جماعة السيد أبي القاسم الموسوي الخوئي

(ت ١٤١٣هـ) فإذا اتجهت نحو باب الشيخ الطوسي للصحن الحيدري كانت جماعة السيد ميرزا آقا الأصطهباناتي الشيرازي (ت ١٣٨٨هـ) بين مقبرة السيد محمد كاظم اليزدي وإيران العلماء، فإذا مررت بساباط الصحن الغربي حيث مسجد الرأس أبصرت جماعة السيد محمد جمال الهاشمي (ت ١٣٩٧هـ) فإذا دخلت إلى طارمة الروضة الحيدرية باتجاه الإيوان الذهبي أبصرت جماعة أستاذنا السيد محمد جواد الطباطبائي التبريزي (ت ١٣٨٧هـ) فإذا دخلت رواق الحرم الشريف شاهدت جماعة الشيخ محمد رضا آل ياسين (ت ٢٨/ رجب / ١٣٧٠هـ) ومن بعده جماعة الشيخ مرتضى آل ياسين قدس سره.

ولك بعد هذا أن تتنفس الروحاء لا الصعداء في هذا المناخ القداسني الرائع: جماعات متعددة، ووثوق متكامل في الجميع، وأعلام يؤمنون الناس، وأصوات تلاوة القرآن تتعالى حيث تختلط بتسيح المختين ودعاء الأبرار، والناس بين مكبر ومؤذن ومقيم ومأموم.

لدى وفاة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ١٣٧٣هـ انتقل السيد الشيرازي في جماعته إلى مكانه حتى مغادرته النجف الأشرف محتجاً على تصرفات النظام العراقي المقبور يوم السبت ٢٥ / ذي القعدة الحرام / ١٣٩٥هـ كما سنرى.

وبعد مغادرة السيد الشيرازي النجف الأشرف تقلص ظل إمامة الجماعة في الصحن الحيدري الشريف، ومن ثم ألغيت مراسيمها في ظل الحكم الإرهابي المقيت للطاغية صدام حسين، واحتفت آثار هذه المعالم القدسية، بعد أن أجهز على الحوزة العلمية وشعائر الله ليعود كل عراقي «أعرباً بعد المحرة» إلا أن الشعب العراقي ظل صامداً تجاه حركات التدمير كافة، فتعاهد المشاهد المقدسة، وزيارة الإمام الحسين (عليه السلام)، والترك بالسلام على المراجع العظام، واكتظاظ كل الطبقات في النفاف عجيب واصطفاف منظم في جميع العتبات

المشرفة حتى أنك قد لا تجد مكاناً لصلاتك في جميع الأوقات، مع شدة الرقابة وصرامة الإجراءات، وتعسف السلطة، وملاحقة أجهزة الأمن للشباب والمؤمنين من الزائرين، وكان ذلك تحدياً للنظام أذهله وأفقده رشده وصوابه، فماذا يفعل؟

﴿يُرِيدُونَ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

وستبقى العتبات المقدسة، والمرجعية الدينية العليا، والحوزة العلمية المباركة، مناراً يهتدي به السائرون.

خصائص السيد الشيرازي المتميزة:

أرايت البحر في تدفق أمواجه، والفجر في تباشير أضوائه، والحقل في نفحات أزهاره، والنسيم العليل في أشدائه، والأسد الغضوب في شجاعته وإقدامه، والطائر الوديع في هدوء تنقلاته؟؟ فذلك هو السيد عبد الله الشيرازي: بحراً في علمه، وألقاً في خلقه، وروحاً ندياً في سماحته وشمائله، وكياناً هادئاً في طبيعة ذاته، وليثاً خادراً في جرأته.

هذا الرجل الوقور في سمته، الوديع في طبعه، الرقيق في حديثه، المتزن في حركاته، هو نفسه الثائر إذ غضب، والجرم المتوقد إذا التهاب، والجرىء الذي لا يهاب سلطة، والسيف الذي يخضع رقاب الظالمين، عاش مجاهداً كريماً، ومات عزيزاً مرابطاً، لاتأخذه في الله لومة لائم، ولا تحجبه عن كلمة الحق صولة سلطان، ديوب في صمت ووقار، يتعد عن الصخب والضجيج، يدرع بالحزم والفتوة، تتحلى مظاهر الصلاح والإصلاح في سيمائه، وتبدو أمارات الإصرار من خلال عينين نافذتين بصرأ وبصيرة، حديد النظر، بعيد مهوى الفكر، كثير التأمل، طويل الخشوع والإنابة، وهو بعد بسيط جداً في تعامله، رقيق رقيق في حسن تأتبه للأمور، زاهد في حطام الدهر، حامل لهموم المسلمين، ينطق صدقاً ويقول حقاً، إن فاته عَرَضٌ لم يحزن، وإن أدرك ما أراد

لم يعطر، فإذا فاه بطوية نفسه، وكشف عن مخزون سره، فلا هدف في الين إلا العظة والاعتبار، بعيد عن الأثرة. قريب من الرحمة، يعظم أهل العلم، ويحفل الوافدين عليه، ويفتح قلبه لاستقبال شباب اليوم وأشياخ الغد، ويحتفي برجال العقيدة والثبات فهم قادة المستقبل، شغفت بسيرته المثلى في النجف الأشرف أربعين عاماً، وكنت أحد راحة نفسية بتقبيل يده فما سمح بذلك إلا مرة واحدة غالبته فيها فانتصرت، يتصدر مجلس مدرسته العلمية في النجف، فإذا دخلت عليه عائداً أو مسلماً أو معظماً لشعائر الله فحض كالصقر، وانتصب كالثمنال الشامخ، واستقبلني باسم كالبدر ليلة تمامه، وأجلسني إلى جنبه مسروراً، وأنا خجل مما يصنع تكريماً فهو قد تيف على السبعين وأنا في عنفوان الشباب، أروع ما يفاجئك منه صوت جهوري وحديث هامس، وأنبئ ما تشاهده فيه قداسته في ذاته، وطيبته في معاشرته، ومبالغته في رفيع آدابه، وبعد غوره في ترقب الأحداث، وشدة اهتمامه بشؤون الإسلام، وكان صادق الحدس ذكي الفراسة دقيق الملاحظ بتعليل تقلبات الوضع السياسي، لاتكاد تخطئ نظرتة الفاحصة، ولا يتهاوى إدراكه الثاقب بمنأى عن وقائع الإفرازات، فهو نسيح وحده في اليقظة والترصد والحذر، وهو فريد دهره في الفكر الناقد الأصيل.

ولك أن تتأمل كثيراً في حياته الخاصة، وتقف عند ممارساته الشخصية مما يجلب الانتباه، فهو لم يستخدم سيارة في تنقلاته في النجف الأشرف بين الحرم المطهر ومدرسته العلمية وهي بعيدة عنه بعض الشيء، وهو يقطع الطريق فيما بينها وبين الصحن الحيدري الشريف لأداء الفرائض جماعة، سراً على الأقدام، وسعياً حينئذ يصدر فيه عن تنظيم للوقت ومراعاة لمشاعر الناس، وهي تقطع عليه سيره بالسلام والتبرك بتقبيل يديه، فإذا أدى صلاة الظهر وانتهى منها، لا يأبى أن يحمل يده قوت عياله غداً، وما هو - في العادة - إلا قبضة من لبن طازج، أو حزمة من خضار حريف، يصاحبهما عدد يسر من أرغفة الخبز،

وهذا عنده لا ينافي وقاره المتناهي بالالتزام به، بل هو مندوب إليه في حد ذاته، فصاحب العيال أولى بحمل قوت العيال.

وإذا نظرت إلى هيئته في ملبسه، لم تجد إلا المنظر الاعتيادي فيما يلبس، فهو متواضع ارتفع به عن مستوى الذل، وتباعد فيه عن مظاهر الأبهة.

وبذلك نكون قد أوضحنا كشفاً ميدانياً مشاهداً فيما كان يعيش عليه وفيه من بساطة واسترسال وزهد وتقشف طيلة سنين كثيرة وطويلة، حفيف المؤونة بسيط القوت معتدل اللباس، قانعاً بما قسم الله له في عيش كفاف شأنه بذلك شأن أهل العلم العارفين وطبقات الشعب المتدنية في رزقها، فما خلق ليتملى من أطيب الطعام، ولا ليظهر بفاحر الثياب، وليس بمحشونة العيش ومرارة الحياة ومحشونة الملبس أن تعوقه عن الهدف المركزي في طلب العلم، ومواصلة تأمين هداية الناس، وحقيقة تقويم السلوك وتهذيب الذات في ضوء تعليمات أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وهكذا كان.

الجهاد الديني والنضال السياسي:

استطاع السيد الشيرازي أن يوفق بين الجهاد الديني في مسيرته القيادية، وبين النضال السياسي في حرأته الخارقة، ونظرة موضوعية فاحصة في هذا السياق العريض تطل بك على حقيقة تاريخية رائعة الأبعاد في السيرة الصامدة الرائدة، تلك هي الصلابة في المبدأ من وجه، والثبات في الموقف من وجه آخر، وتحطيم حاجز التردد من وجه سواهما!! هذا الثلاثي المائل في مسيرة السيد الشيرازي تقف عليه به حريفاً دون مبالاة بالمعوقات والأخطار والمضاعفات الميدانية، وتتطلع إليه فيها شجاعاً غيوراً ذا حمية فائقة على الدين وشؤون المسلمين، وتلمس فيه مجاهداً لا يمل من الكرّ والانقضاض على دعاة الكفر والتبعية وتفريق صفوف الأمة، يقدم إقدام من لا يهاب الموت، ويصطف اصطفاف الجندي المقاتل في ساحات الحرب، ينكر المنكر في قلبه ولسانه،

وينازل الطغاة في معاقلها وعقر دارها، ويقول كلمة الحق بصراحة محبة لدى شباب الأمة، ومقبولة عند رجالها وشيوخها، ذلك ما اتسم به السيد عبد الله الشيرازي رمزاً شاخصاً لا يفارق تقيمه في شخصيته النادرة الغذة لدى أعدائه وأوليائه على حدّ سواء.

وصاحب هذه المقدرة في الإنذار والاحتجاج والمناظرة لا يمتلك لنفسه صدأً عن المنهج، ولا لإرادته رذاً عن التخطيط المستقبلي المشرق، وذلك مما شجع العاجزين على النيل منه، واتهامه بالمجازفة والافتحام، وليس الأمر كذلك، بل هو ندب إليه الشارع المقدس: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

و لم يتمكن السيد الشيرازي من قسر نفسه على أضعف الإيمان، بل استطال إلى البعد الجماهيري حتى قاد المظاهرات الاحتجاجية على الطغاة، بل دعا في ذلك إلى الإطاحة بعروش الظالمين، وانتصر في هذه الدعوة، واستثمر هذه الشجاعة لإعلاء كلمة الحق.

وليس بإمكان البحث إحصاء مواقف السيد الشيرازي الحاسمة، ولا تسليط الأضواء الكاشفة لأغوارها، ولكن الناقد البصير والمؤرخ الثبت قد يمتلك عدة شواهد حيّة، ويستنتق وثائق ذاكرته العلمية ليقدّم نماذج على سبيل المثال من ذلك، فيقف القارئ على ما غير من التاريخ المدوّن وغير المدوّن وهو إلى النسيان أقرب، ومن الضياع على شف، «فالحافظون قليلٌ» وهنا أشير إلى جزء من هذه المآثر الخالدة في جرأتها وقوتها وأصالة أهدافها:

١- شجب المترجم له في الخمسينات من القرن العشرين التغفل الصهيوني في إيران تبعاً لسياسة الشاه الضالعة في ركاب الاستعمار العالمي، وحابه المسؤولين في إيران بالنقد والتحريج والاحتجاج، واستنكر التعاون بين حكومة الشاه وإسرائيل في المجال الاقتصادي والنساج السياسي، وربما التسليح

العسكري، ودعا الشعب المسلم إلى دعم القضية الفلسطينية ونصرة الشعب الفلسطيني، وحرمة التفارب بين إسرائيل وعملاء العرب ملوكاً وحاكمين وجواسيس وماسونيين.

٢- لدى الاعتداء الثلاثي على مصر من قبل فرنسا وبريطانيا وإسرائيل عام ١٩٥٦م التهمت النجف الأشرف شعلة نار من الحماس الوطني، واحتترقت الشوارع مظاهرات الجماهير المؤمنة احتجاجاً واستنكاراً، وشارك الشعراء بقصائدهم الثورية في إذكاء روح النضال وتأييد الرئيس جمال عبد الناصر رحمه الله بتأميم قناة السويس، وعظمت الأسواق في النجف خاصة، وبجنوب العراق عامة، فقد استنكر المراجع العظام هذا الاعتداء الوحشي وتبعهم مقلدوهم في القصبات والأقاليم، وقام لقيف من شباب أهل العلم بمفاتيح المرجعيات الدينية بغية الإضراب العام عن الدرس العالي وصلاة الجماعة ومعه كاتب هذه السطور بمفاتيح السيد الشيرازي قدس سره - وهو على سجادة الصلاة متهيئ لأدائها جماعة عند الأذان - حول ضرورة الإضراب عن الصلاة والبحث العالي الخارج، فمصر دولة عربية مسلمة يتعرض الآن إلى مهاجمة الطائرات وقصف المدافع وقذف الطوربيدات، وحينما استمع السيد إلى وجهة النظر قرر الإضراب فوراً، وغادر محراب الصلاة استجابة للتكليف الشرعي والوطني، واحتجاجاً على العدوان السافر، فكان من أوائل المنفذين للإضراب عملياً مع السيد الحكيم والحمامي، وآل مشكور والاصطهباناتي والخوئي والبغدادي والشاهرودي أثره البالغ في الوسط الشعبي والرسمي مما جعل حكومة نوري السعيد في أزمة وخرج شديدين حتى رضخت للأمر الواقع، وكانت قد أعلنت الأحكام العرفية وحالة الطوارئ في العراق، وصدرت الأوامر للجيش بإطلاق النار على المتظاهرين، مما سبب باستشهاد حملة الشباب النجفي، فأرسلت وفداً للاعتذار وإعطاء دية القتلى لذويهم، بما أوضحناه سابقاً في عمل مستقل^(١).

(١) ظ: المؤلف / أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف / ١٠٥-١٠٦.

٣- بعد قيام ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨م من قِبَل الضباط الأحرار بقيادة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم، ومساعدة كل من: العقيد الركن عبد السلام عارف والعقيد عبد اللطيف الدراجي، وبمباركة من الرئيس جمال عبد الناصر، تنفس الشعب الصعداء، وقد منحت الحرية أوائل الثورة لفصائل الشعب العراقي وللأحزاب السياسية، وقد استغل الحزب الشيوعي العراقي مع الأسف هذه الحرية من وجه، واختلاف قاسم وعارف من وجه آخر، فأثار القوضى وشجع التطاول على المقدسات، واستغل جماهير الجياع والمحرومين والطبقات المتدنية في العيش والسكن، بشعارات براقّة ووعود خلاّبة، فامتلك الشارع العراقي في أغلبية تكاد تكون ساحقة، وارتكبوا خطأً العمر في ارتكاب مجازر الموصل وكركوك والمسيب والنحف الأشرف وكربلاء المقدسة، ولقنوا المسيرات بأهازيج شعبية تتنافى مع ثوابت الإسلام، وأظهروا العداة السافر للمرجعيات الدينية، وأعادوا إلى الأذهان مقولة لينين «الدين أفيون الشعوب» وفلسفة الشيوعية الإلحادية بقرارها: «لا إله والحياة مادة» فضج الشعب بأجمعه، واستفزع القادة المستقلون والزعماء الروحانيون هذا الاستهتار بالقيم والمبادئ، وتستر الشيوعيون على جرائمهم وتبعاتهم بإظهار الولاء والتأييد للزعيم عبد الكريم قاسم، وأظهر العلماء عداةهم السافر للشيوعية، وأعلن القوميون معارضتهم للمبادئ الوافدة، واستمد المعارضون شرعيتهم ضد الشيوعية من فتوى سماحة الإمام الحكيم بقوله:

«لا يجوز الانتماء للحزب الشيوعي، فإن ذلك كفر وإلحاد، أو تسويج للكفر والإلحاد، أعاذكم الله وجميع المسلمين من ذلك، وزادكم إيماناً وتسليماً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»^(١).

وقد صدرت هذه الفتوى بتاريخ ٢٢ / شعبان / ١٣٧٩هـ أي بعد الثورة بسنة وثمانية شهور، وزاد الطين بلةً إعدام كوكبة من الضباط الأحرار في حركة الموصل، وتدخل السيد الحكيم لدى الفريق محمد نجيب الربيعي

(١) ظ: المؤلف / أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف / ١٢٨.

لإنقاذهم، إلا أن الزعيم عبد الكريم قاسم بضغط من الضباط الشيوعيين وقادة الحزب الشيوعي نفذ فيهم حكم الإعدام في ٢٠ / أيلول / ١٩٥٩ م.

والتهب المناخ السياسي حمراً متوقداً في العراق، واعتدي على الشعائر المقدسة اعتداءً سافراً، وعرج الحزب الشيوعي عن الاستراتيجية المعتدلة إلى الهجوم الهدّام على معارضيه وكل القيم والأعراف الإنسانية، وتلاقفت هذه الظاهرة طائفة من الشباب بالعراق، واتسع الخرق على الراقق، فاتبع المراجع فتوى الإمام الحكيم بفتاوى أخرى تتماشى مع الخط نفسه بإلقاء ظلال الإلحاد على المبدأ، وكان في طليعتهم الشيخ عبد الكريم الجزائري، والسيد عبد الهادي الجزائري والسيد الخوئي، والسيد عبد الله الشيرازي الذي أفتى «إن الشيوعية كفر وإلحاد وعين اللادينية» ومن ثم تأسست «جماعة العلماء» في النجف الأشرف من حَمَلَةِ الفكر الديني وقادة الوعي الاجتماعي برئاسة الداعية الإسلامي الكبير الشيخ مرتضى آل ياسين الكاظمي النجفي قدس سره لاشريف وقد ضمت فريقاً من العلماء العاملين والمجتهدين البارزين، وهم أبرز المعروفين بالأفكار الرائدة والاعتدال الموضوعي. فأصدروا البيانات العديدة تباعاً خلال عام (١٩٥٨-١٩٥٩) للحفاظ على أصالة الدين الإصلاحي، ورفض الأطروحات الدخيلة، والتبشير بثقافة الإسلام العليا، والتأكيد على الدور المرجعي والخوزوي في قيادة الأمة، وقد ساندهم المراجع فيما صدر عنهم متمثلاً بفتوى الإمام الحكيم، وهذا نصّها: «إن جميع ما أصدره فريق من أعلام أهل العلم باسم جماعة العلماء في النجف الأشرف، وما سيصدرونه من النشرات وغيرها مما يتضمن الدعوة إلى دين الإسلام، لهو من أهم الوظائف الشرعية التي يجب القيام بها في سبيل إعلاء كلمة الدين، وترويج مبادئه الشريفة وتعاليمه المقدسة،

فعلى عامة المسلمين العمل على موازرتهم والوقوف إلى صفهم، ومشاركتهم في تحمل هذه الدعوة الدينية المباركة»^(١).

٢٧ / جمادى الآخرة / ١٣٧٨ هـ - محسن الطباطبائي الحكيم

وكان في طليعة هؤلاء العلماء: الشيخ محمد طاهر الشيخ راضي / الشيخ محمد جواد الشيخ راضي / السيد إسماعيل الصدر / السيد محمد باقر الصدر / السيد محمد تقي بحر العلوم / الشيخ محمد أمين زين الدين / الشيخ محمد رضا المظفر / السيد محمد جمال الهاشمي / الشيخ حسن الشيخ محسن الجواهري.

وقد أيد سيدنا المترجم له «جماعة العلماء» وساندهم قولاً وعملاً، ووقف معهم مكافحاً ومدافعاً بكل ما يستطيع كما هو شأنه.

٤ - ولدى قيام الانتفاضة الشعبية في إيران بقيادة الإمام الخميني طاب ثراه في ٢٥ / شوال / ١٣٨٢ هـ الموافق ٥ / حزيران / ١٩٦٣ م وما نجم عنها من استشهاد الآلاف، واعتقال العلماء، وتجزيق شمل الحوزة العلمية - كما سيأتي تفصيله في ترجمة السيد محمد الشيرازي - كان للمترجم الدور البارز في الحفاظ على حياة السيد الخميني من جهة، وعلى تأييد الانتفاضة من جهة أخرى، وفي ظل كتاباته لعلماء إيران مشجعاً ومساعداً على التمرد المشروع ضد حكومة الشاه، وفي بث الوعي المعتمق بين صفوف الأمة في القضاء على النظام الإيراني المقبور، وفي اجتماعه مع المراجع العظام لإنقاذ السيد الخميني من الإعدام، وفي مقابله للوفود من الزائرين الإيرانيين للعبات المقدسة في العراق وتحريرهم على الثورة، وفي رسائله المتعددة التي اعتر بها السيد الخميني أحد مراجع التقليد عند الإمامية، والدستور الإيراني لا يبيح إعدام أيّ مرجع في أي حدث مهما عظم، وقد شكر له الإمام الخميني بعد إنتصار الثورة الإيرانية في شباط / ١٩٧٩ م هذه المواقف، واعتبره الساعد الأيمن له في «مشهد المقدسة» عند إقامته بها مهاجراً

(١) ظ: المؤلف / أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف / ١٤٢.

من وطنه الأم النحف الأشرف احتجاجاً على النظام العراقي في انتهاكه الحرمات، ومحاربه للإسلام والمراجع والعلماء وحوزة النحف الأشرف بخاصة مما ستطلع عليه لاحقاً. وبعد الثورة الإسلامية كان لسانها المعبر في خراسان، وقاد المظاهرات بنفسه، وألقى البيانات مباشرة، وكان قد سير الجماهير الحاشدة أمام دبابات الشاه إبان الثورة، وهتف بأسفاط نظام الشاه، وتعرض لكثير من الشدة والرقابة، وكان في خطر داهم حتى انتصار الثورة، وسمي موقع إقامته بمشهد «شارع آية الله الشيرازي».

٥- كان من أهداف الطاغية صدام حسين لدى تسلمه الحكم في العراق ١٧/٧/١٩٦٨ القضاء على النفوذ المرجعي باعتباره يشكل خطراً على النظام الحاكم نتيجة التفاف القواعد الشعبية حول المراجع العظام لأنها المثل الحقيقي لآمال الشعب العراقي، عنده تصدر وإليه تعود مما هو معروف من أصول الإمامية في الرجوع والتقليد لأئمة الدين وحماة الشرع المقدس، وكان الرئيس أحمد حسن البكر رئيساً لما يسمى بمجلس قيادة الثورة الحاكم، وكان صدام حسين نائبه في هذا المنصب الذي ينزع القرار صغيراً وكبيراً حصراً، فلا سلطة لأحد معه على الإطلاق، وقد استبد الطاغية بالحكم منذ اللحظة الأولى، ولم يكن للبكر إلا الاسم فحسب، وكانت المرجعية العليا في العراق ممثلة بالسيد محسن الحكيم، وكان وجوده ونفوذه العائق الوحيد دون تنفيذ مخططات الطاغية في العبث والإجرام والاضطهاد السياسي، فقرر الاضطدام معه مهما تكن النتائج، فالإرهاب الدموي وقتل الآلاف من أبناء الشعب والعنف الطائفي أدق ظواهر انفراد صدام حسين بالسلطة، وأنكر السيد الحكيم ممارسات النظام وزجّه الآلاف المؤلفة من المواطنين في المعتقلات الرهيبة، وتاهت أبناء التعذيب للسجناء إلى مسامع الطبقات كافة، وتعالى صدى التمييز الطائفي بصاحبه مصادرة أموال التجار وتعطيل القطّاع الخاص، وإلغاء إجازات

الاستيراد للكسبة وأرباب الإمكانيات المتوسطة، وتشكيل قوى المحابرات برئاسة الطاغية باسم «العلاقات العامة» وملاحقة الشعائر الدينية ومراسم عزاء وزيارة الإمام الحسين (عليه السلام) بشكل منظم ودقيق، ومضايقة الحوزة العلمية في التحف الأشرف، وإلغاء الإعفاء من التجنيد الإجباري للطلبة العراقيين، وعرقلة تمديد الإقامات لغير العراقيين، وقطع الرؤوس لأدن سب بغية إشاعة المناخ الدموي في العراق، والإمام الحكيم ينظر كل هذا، فقام برحلة إلى بغداد لتجميع أطراف الشعب العراقي دون تمييز، وإعلان مطالب الأمة من خلاله، والدعوة إلى الاعتدال ومراعاة حقوق الشعب في الحياة الحرة الكريمة، وكان ذلك في ربيع عام ١٩٦٩م، وامتدت مسيرات الحشود المؤمنة نحو الإمام الحكيم، وقد هبط الكاظمية المقدسة، تعلن ولائها وتمسك بقيادته الرشيدة، وتشجب صريحاً بممارسات الحزب الحاكم من دون التقييد بنظام أو قانون أو مجلس تشريعي، فكل هذا من الهراء لدى الطاغية، وإنما الأمر له بإصدار القرارات الطائشة والمرتبلة وهي تشرع حزافاً باسم «مجلس قيادة الثورة» ولا مجلس ولا قيادة، وإنما هو صدام حسين وحوله أزلام النظام من القتل والتمفلة وذوي السوابق السيئة في أحياء بغداد بما يطلق عليه اسم «الأشقياء» أو «الشقاوات» وهكذا كان يدار الحكم، والوزراء دُمى بقلبها صدام أتى بشيء بين الوعيد والتهديد دائماً، والترغيب والترهيب أحياء، فانصاعوا للأمر الواقع، من دون أن ينبس أحدهم ببيت شقة، فأصدر مجلس قيادة الثورة الموهوم بياناً باعتبار السيد محمد مهدي نجل الإمام الحكيم أحد الجواسيس، ووضع جائزة نقدية لمن يقبض عليه، فاختفى السيد مهدي مدة وجيزة وغادر بعدها العراق، حتى سقط مضرراً بدمه في السودان على يد شقاوات النظام وأجهزته المدربة فيما بعد.

قابل الشعب العربي والعراقي هذا البيان الكاذب بالسخرية والاستهزاء، وقابلته الحوزة العلمية في النجف الأشرف بالاحتجاج والاستنكار، وكنت آنذاك طالباً في الدراسات العليا بجامعة القاهرة، فنشرت جريدة «الأهرام» النبأ بالصفحة الأولى، وعلامات الاستفهام متتابعة حول فقراته، ولغة الإنكار التقريرية واضحة عليه، وهي تريد أن تقول أن النظام العراقي لا يستند على زعم شعبي وإنما يستند على الإشاعات والافتراءات والأكاذيب!! ولم يكن المراجع العظام في الحوزات العلمية في الأقاليم عامة، وفي النجف الأشرف خاصة بمعزل عن هذا الاستفزاز الحاقد والتحرك الجريء الفج، باستنكروا ذلك بالإعلان عن مقاطعة النظام في كل جزئية وكلية، واعتزل الإمام الحكيم الحياة العامة، واعتكف بمنزله في الكوفة الغراء، وحدد يوماً واحداً في الأسبوع لزيارة ضريح أمير المؤمنين (عليه السلام)، وكان ذلك اليوم مشهوداً إذ تتجمع عشرات الآلاف المحتشدة في الصحن الحيدري لاستقباله، وكان يشق طريقه إلى الروضة المطهرة بصعوبة بالغة كبرى حتى ليبدو عليه التعب والإعياء، فقرر شباب الحوزة العلمية أن يطوفوا السيد الحكيم لدى نزوله من السيارة بحزام من الفتيان الأشداء وهو يسير في وسطهم مطمئناً يلوّح بيده في الردّ على تحيات الجماهير، وكان مقرّ إقامته في الكوفة مدعاة لتقاطر العلماء والمراجع على زيارته والإثمار بأمره، ووقف السيد الشيرازي مجاهراً إلى جنب الإمام الحكيم متحدياً تلك المظاهر الممجحة التي تثيرها السلطة في وجه من يقدم عرضاً للسيد الحكيم، وكان السيد الشيرازي بالذات على استعداد أن يلبس كفته ويخرج إلى الناس، فيما لو أمر السيد الحكيم بالمجاهة القتالية، ولكن السيد الحكيم قدس سره كان متحرجاً عن سفك الدماء، ومتورعاً عن إنارة معركة لاتعلم نتائجها، فرأى أن الصبر على ذلك أحسن، فصبر ولاذ بالصمت الرهيب، وكان هذا الصمت الغاضب يثير القلق لدى السلطة، فقد عرف الشعب العراقي والعالم العربي والإسلامي سخط السيد الحكيم قدس سره على النظام

الحاكم، فسقط إثر ذلك شعبياً في جنوب العراق ووسطه وشماله، واقتصر تحركه ضمن تجمعات بدوية اعتمدت العنصر المذهبي أداة لها في إثارة الطائفية في مخططات إجرامية هائلة لا أول لها ولا آخر، نعم؛ عملت على تخلف الشعب العراقي عن ركب الحضارة العربي والإسلامي والعالمي عدة قرون، وسارت به إلى الوراء إذ فقد القادة الأمناء.

٦- وكان الكيان المرجعي مخيفاً للحزب الحاكم في العراق، فأخذ بالخداع والمناورة والتضليل، وأبدى أسفه المفتعل لتورط أبناء المراجع في السياسة المعادية فيما يزعم، وأنه لاعداء له مع العلم والعلماء، ولا مع النجف الأشرف و كربلاء، والكلم سواسية أمام الحكم لهم حقوقهم وعليهم واجباتهم، حتى إذ انتقل الإمام الحكيم إلى الرفيق الأعلى في ١ / حزيران / ١٩٧٠م، قلب الحكم للشعب ظهر المخن، إذ عاد لا يخشى أحداً، ولا يراعي ذمة ولا حرمة لأي كان، وكان الاتهام بالعمالة للغرب والتجسس لإسرائيل قائماً على قدم وساق، فبدأ بتهجير العراقيين من أصول إيرانية فيما بقول، وألقى بمئات الآلاف وراء الحدود بحردين عن أموالهم وممتلكاتهم ومقتنياتهم ودورهم ومجالاتهم، وصادر جميع ذلك جهاراً ونهاراً، ثم حمل حملة منكورة بتسفير العلماء ورجال الدين بحجة أنهم أجنب، فغادرها الإيرانيون والباكستانيون والهنود والأفغان والثبث وأبناء شرق آسيا، ثم عمدوا بالتضييق على العرب إهانةً واستخفافاً، فغادر النجف الأشرف السعوديون والبحرانيون واللبنانيون، وهم يشكلون نسبة عربية كبيرة، فقيت النجف الأشرف مقتصرة على العراقيين خاصة، فبدأ النظام بقلم أظفارهم ويلاحق شياهم بالاتهام في الانتساب إلى «حزب الدعوة الإسلامية» فقتل الآلاف منهم، وزج الآخرين بالسجون المرعبة في شتى صنوف التعذيب وأساليبه التي عجز «هتلر» دكتاتور ألمانيا عن التوصل إليها مع أعدائه ومعارضى حكمه، واضطرب طبقة للتخلي عن الزبي الديني، واستبدلته بالكوفية البيضاء عسى أن يتخطاهم المخطط الإجرامي، وهكذا عادت النجف

الأشرف عمراً بعد عين لولا حكمة السيد الخوئي قدس سره وتواجد السيد الحميني طاب ثراه، وجرأة السيد الشيرازي أعلى الله مقامه، لقد تجاهل الحكم تماماً كون النحف الأشرف حاضرة العالم الإسلامي في الـدرس والتـدریس والضخّ المعرفي لأبناء المسلمين في الدنيا، فضيّقوا الخناق على أهل العلم وطلابه، لألهم أعداء العلم والدين معاً، وكادت أن تختفي كل معالم الدراسة الخوزوية المباركة حينما عمد النظام بتوجيه من صدام حسين إلى إخلاء «محلة العمارة» في النحف الأشرف من السكان، وتهدمها وحرف دورها ومنازلها ومدارسها العلمية وحسينياتها، بحجة تطوير المدينة وتوسيعها، وهذه المحلة بالذات مقرّ علماء الدين ومراجع الخوزة وطلاب العلم، وأبناء الأسر العلمية النحفية المعروفة، كآل بحر العلوم، وآل الحكيم، وآل الشيخ راضي وآل كاشف الغطاء، وآل الشرقي، وآل حرز الدين، وآل الدجيلي، وآل الصغير، وآل الفرطوسي، وآل نصار، وآل العادلي، وآل سميسم، وآل محي الدين، وآل الجواهرري، وآل الكرّمي، وآل الهاشمي، وآل الصدر، ومطارج آل ياسين، ومنازل آل الخوئي، وديار آل الشبيبي، وآل الحلّوي، وآل الشميمساوي، وآل الخاقاني، وآل الجباري، وآل فياض، ومدارج آل الحمّامي، وآل الخمايسي، وآل الحضري، وآل الصافي، وآل الأزيرجاوي، وآل الظالمی، وآل الطرّفي، وآل القبانجي، وآل الأيرواني، وآل الساعدي، وآل الغراوي، وآل عيسى، وآل كمونة، وآل المظفر، وآل زائر دهام، وآل الجصاني، وآل جیوان، وآل جیوان، وآل الجزائري، والهيئة العلمية الشرقية، وأبناء الحسكة من رجال الدين. وهؤلاء جميعاً أصبحت دورهم ودواوينهم العلمية ومنازلهم العريقة في القدم آثراً بعد عين، وهذا يعني تشريد أهل العلم من مرابضهم، وتشتيتهم في الأحياء الجديدة بعيدين عن أماكن الـدرس والتحصيل في مساجد النحف الكبري، مسجد الهندي ومسجد الطوسي ومسجد الخضراء ومسجد آل كاشف الغطاء، والمدارس الدينية الكبرى المنتشرة في مدينة النحف بالقرب من الحرم المقدس.

وقد هزّ هذا التلاعب بمقدرات الأمة، وهذا الاعتداء المتنوع على حوزة النحف الأشرف بكل عناصرها العرقية والقومية والوطنية، وتمزيق وحدة شمل الآلاف منهم، واقتصار الحوزة على أفراد لا يتجاوزون بضع مئات، بينما كانت المدارس والدور تضيق بهم، حتى استأجر لهم المراجع الفنادق كما هو في عهد قيادة السيد الحكيم للحوزة العلمية، هذا المناخ الحزين الباكي أثار استنكار واحتجاج المراجع بنذرة لاسيما السيد عبد الله الشيرازي قدس سره، وحينما بلغ السيل الزبي، وضاق صدر المرجعية ذرعاً بما يجري على الأمة ورجالها المنقذين، أبرق السيد الشيرازي إلى قيادة الدولة الممثلة بما يسمى «مجلس قيادة الثورة» بريقة شديدة اللهجة بتاريخ ١٩٧٤/٥/٢١ = ١٣٩٤/صفر/٢٦ هـ هذا نصها^(١):

مجلس قيادة الثورة/ بغداد

غير خفي أن العراق منذ العصور الإسلامية الأولى وإلى زماننا كان مهدياً للعلم والعلماء، وبذلك امتاز العراق عن سائر البلاد الإسلامية.

وأما المشاهد المشرفة -ولاسيما النحف الأشرف- فالأمر فيها أوضح، والتاريخ بذلك ناطق، فهي المدرسة العلمية منذ ألف عام. وإن دعاء الإسلام ورواد العلم منذ ذلك التاريخ وحتى هذا الزمان يتوجهون إليها من كل صوب وحدث لتحصيل العلوم الدينية والمعارف الإسلامية، وبذلك أصبحت النحف منارة للأمة الإسلامية ومطمحاً لأنظار المسلمين، وليس هناك من ينكر أن وجود العلماء الأعلام والحوزة العلمية في العراق -في كل أدواره- كان سداً منيعاً أمام ضربات المستعمر الغاشم، وكانوا هم الحفاظ لهذه الثروة المقدسة والتراث العراقي الأصيل، ولم يكن استقلال العراق إلا بجهود بذلها العلماء الأعلام بقيادة المرحوم آية الله الشيخ محمد تقي الشيرازي زعيم ثورة العشرين، وزعيم الحوزة العلمية آنذاك.

(١) وثائق تاريخية في حوزة المؤلف.

فمن المؤلم حقاً أن مناراً شامخاً كالنجف، ودرعاً منيعاً كالحوزة العلمية، تضمحل وتزول في عهدكم، كيف لا يكون كذلك، وقد ابلغت السلطات المحلية رجال الدين وأساتذة العلم على اختلاف جنسياتهم بتصفية أعمالهم لمغادرة البلاد خلال شهرين».

النجف الأشرف

عبد الله الشيرازي

٢٦/صفر/١٣٩٤

وكان لهذا الاحتجاج اللاذع أثره في التأني في بعض إجراءات تسفير رجال

الدين من النجف وقتياً!!

٧- وكانت مشكلة تهمير أهل العلم، والاستهانة بمقام المرجعية في النجف الأشرف من قبل النظام الحاكم، قضية ذات أهمية كبرى في تفكير السيد الشيرازي، وكان عليه أن يستهين بالمخاطر مركباً لعرضها ومعالجة إفرازاتها ومضاعفاتها مهما كلف الأمر من الصراحة والجرأة وتحدي الحزب الحاكم ورؤوسه المتآمرة على الكيان الديني والعلمي والإنساني في عاصمة الحوزة العلمية: النجف الأشرف. وكان النظام سادراً في غيه لتصفية الحوزة العلمية والإطاحة برموزها بتأييد جبان خائر من قبل بعض أبناء الطائفة من الحزبين المنحرفين، وعلى رأسهم نعيم حداد عضو القيادة، وحسن العامري وزير النظام، ومحمد حمزة الزبيدي رئيس الوزراء، وسعدون شاكر رئيس أجهزة المخابرات، وعلي رضا عضو قيادة الحزب، وإبراهيم خلف مدير أمن النجف ومسؤول الحزب، وعبد الحسن راهي عضو قيادة الحزب، ومسلم هادي الجبوري رئيس محكمة الثورة، وأضراهم ممن لم تحتفظ الذاكرة بأسمائهم، ممن كانوا يشكلون رتلاً خامساً من الداخل في تفكيك مفاصل الكيان المرجعي والحوزوي في النجف الأشرف، وقد أسهم هؤلاء الملح في تشجيع قيادة الدولة الطائفية في تنفيذ مخططاتها الإجرامية، كما سبب صدمة كبرى لدى العراقيين باستهتار النظام بكل ما هو شريف وأصيل وموضوعي في العراق.

وكانت هذه الزمر الخائنة تعمل في نطاق واسع من صفوف الحزب على هذه الوثيرة مما أوجب احتقارهم في بلدانهم وديارهم، واعتبارهم من المطايا الهينة اللينة التي يركبها الطاغية للتطويح بحاضرة النجف الأشرف.

أقدم النظام في مارس من عام ١٩٧٥ م على إصدار قرار حائن بإلغاء الإقامات فضلاً عن عدم تجديدها، ومنع الواعدين من أهل العلم إلى النجف الأشرف، وتسفير المقيمين فيه من طلاب العلوم الشرعية، وإلقاء القبض على رجال الدين في الشوارع وأصحن الشريف والحرم المقدس من قبل جلاوزة الأمن وأجهزة المخابرات وإبداعهم في معتقل التنفيرات بصورة عشوائية ولا إنسانية، مما حدا بالسيد الشيرازي أن يرق لرئيس النظام الحاكم أحمد حسن البكر ونائبه صدام حسين بريقة شديدة اللهجة في ١/جمادى الأولى/١٣٩٥ هـ = ١٠/٦/١٩٧٥ م وهذا نعتها^(١):

سيادة أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية

السيد صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة

«لقد توقف تمديد الإقامات لطلاب العلوم الدينية في الجامعات العلمية في العتبات المقدسة، وقد فاتحنا الجهات المسؤولة بذلك غير مرة، فوعدونا بعودة الموضوع إلى حالته الطبيعية... ولكنه مع الأسف بتاريخ ١/٦/١٩٧٥ م وبصورة مفاجئة ألقت السلطات المحلية القبض على ما يزيد على مائة شخص من طلبة العلوم الدينية وأساتذتهم... وبلغوا بأن يستعدوا لمفادرة العراق في ١/٧/١٩٧٥... وأود أن أضع أمامكم الحقائق التالية:

١- لاشك أن العراق مهد الحضارة الإسلامية، ويضم أقدس البقاع في العالم، وفيه ما لا يوجد في غيره من عجرات الأرض، والنجف مركز ديني مرّ على تأسيسه أكثر من ألف عام، وهي كعبة الوفاء من المسلمين ورواد العلم والمعرفة على امتداد العصور».

(١) وثائق تاريخية في حوزة المؤلف.

٢- يضاف إلى ذلك موقف رجال العلم في النحف الأشرف من حماية اللغة العربية وآدابها من الضياع، وتخريج العلماء والمفكرين الذين قدموا أكبر الخدمات العلمية الكبرى..

٣- المواقف المشرفة لرجال الدين من القضايا العامة المرتبطة باستقلال البلاد سياسياً واقتصادياً وفكرياً..

٤- إن العلاقات بين الدول لا يؤثر سلباً على التبادل الثقافي والعلمي، فكيف إذا علمنا بأن أطيب الروابط تربط العراق بالدول الإسلامية..

٥- حيث أن النحف الأشرف مطمح أنظار المسلمين، ومركز الدراسات الإسلامية العليا، فمن الطبيعي أن تكون غالبية من يؤمها خارج البلاد، والعراق كما نعرف بلدٌ مفتوح لا يمكن أن ينغلق على نفسه، لما يحمل من إشعاع فكري عريق وحضارة تاريخية ضاربة في القدم.

وبالنظر لما تقدم فإن الواجب الدين يدعوون أن أذكركم بما تملكه الحوزة العلمية من احترام عميق لدى المسلمين جميعاً، ومكانة مرموقة ووزن عظيم في الأوساط العلمية في العالم الإسلامي، الأمر الذي يقتضي إعادة النظر في الإجراءات المتخذة بشأن طلاب العلوم الدينية، وإصدار التوجيهات بتعميد إقامتهم خدمة للعلم، وترسيخاً لمكان العراق العلمية والدينية.

والسلام على من اتبع الهدى.

النجف الأشرف ١/ جمادى الآخرة/ ١٣٩٥ السيد عبد الله الشيرازي

وها أنت تلاحظ الخطاب التحذيري في هذه البرقية، وتلمس التحدي الهائل لحكم لا يؤمن إلا بالقتل وقطع الرؤوس، فلم يستحب لشيء من مطالب السيد الشيرازي، وكانت الحصيلة أن ركب النظام رأسه غروراً وخطراً واستكباراً، فقابل ذلك بمحوم كاسح على رجال الدين والعلماء الأعلام بصورة عشوائية، وزج بالثقات في السجون التي ضاقت بهذه الأعداد في معتقل

التسفيرات في النجف الأشرف بمقر مديرية الشرطة والقائمقامية، المقابلة لخان الحاج عطية أبو كلل الذي كان مقراً في عام ١٩١٧م للحاكم العسكري البريطاني المقتول الكابتن مارشال، وكان نتيجة هذا التصرف الأحمق اعتقال بعض المؤهلين للمرجعية كالسيد نصر الله المستنيط، وقادة الفكر كالسيد محمد تقي الحكيم عميد كلية الفقه آنذاك، واعتقال مائة وخمسة عشر رجلاً من العرب النجفيين مع أولئك المهاجرين، وكان ذلك في ليلة ١٤ / ذي القعدة / ١٣٩٥هـ.

٨- في صباح اليوم التالي استدعاني الإمام السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي إلى مكتبه في جلسة سرية ضمت بعض أبنائه وأعضاء مكتبه، وقال: قررت الهجرة من النجف والخروج من العراق، فما يجري بالنسبة للحوزة العلمية أمر لا يطاق على الإطلاق، ومع هذا اسمي زعيم الحوزة العلمية في النجف، فأين هي الحوزة؟ ومن بقي من الحوزة؟ وما هم إلا أفراد قلائل وبضع عشرات لأكثر، وجرى الحديث في هذا الموضوع في التذمر من الإجراءات التعسفية للنظام عما قدمته لك، وبعبارة أخرى أنا زعيم للحوزة، ولكن بدون حوزة، وكشف عن تخطيط الدولة في تصفية الحوزة وإبقاء المرجع وحيداً فريداً في الميدان، ولا أتذكر بالضبط العبارات نفسها بعد المدة وتوالي الكوارث، وها أنا ذا أدون جزءاً منها بعد ثلث قرن من الزمان، فالأحداث جرت في ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥/٦/١٠ وأنا أكتبها في تموز/٢٠٠٧م = رجب/١٤٢٨هـ.

ومهما يكن من أمر، فقد أخرج لي السيد الأستاذ الإمام الخوئي محفظة فيها أربعة وعشرون جواز سفر له ولعائلته كلها، ولبعض المقربين، وطلب إليّ أن أجمع ممثلاً له مع مسؤول الحزب في النجف السيد إبراهيم خلق، هو نفسه مدير أمن النجف المزود بصلاحيات صدام حسين في الحكم بالإعدام ومصادرة الأموال والممتلكات والإبادة الجماعية، وأن يُضم إليه محافظ كربلاء السيد محمد حسين الشامي البعشي المتطرف الأهوج في اجتماع موحد يجمعنا؛ وأن أبين غضب السيد الخوئي من الإجراءات وسخطه على الوضع الأمني. وتجريده من كل مقومات المرجعية.

واتصلت فوراً بإبراهيم خلف وأبلغته بأن رسالة مهمة أحملها له وللمحافظ مجتمعين من السيد الخوئي، وهي فورية لاتقبل التأخير، والحق أن إبراهيم خلف كان يحترمني ويعاملني معاملة الأستاذ فهو تلميذي في متوسطة العزة للبنين في الكوت حينما كنت مبعداً هناك في الأعوام ٦١، ٦٢، ١٩٦٣م. وكنت أصارحه بكل التجاوزات التي يقومون فيها لاسيما إجراءات بلاط الأمن في هذه الحملة ضد رجال الدين، فقد اعتصموا بالصحن خوفاً الاعتقال فاقترح ضباطه الصحن الحيدري، وقبضوا على رجال الدين بالئات، ولجأ قسم منهم إلى الروضة الحيدرية نفسها طيلة يوم كامل، كانوا فيها يقضون (حاجتهم) للمرافق الصحية بأكياس النايلون وما شابه ذلك، ولم تقتحم الروضة نفسها، واكتفى مسؤولوا الأمن والحزب بمن قبضوه في الصحن وأودعوهم السجون المكتظة وقوفاً بلا ماء أو غذاء أو نوم أو مرافق صحية، وبصورة تمثل سوء العصور تخلفاً، ونحن في القرن العشرين.

حملت جوازات الإمام الخوئي وأسرته وبعض مرافقيه ومساعديه، وهي أربعة وعشرون جواز سفر، وقدمتها لإبراهيم خلف في مقر المنظمة الواقع إلى جنب الإطفائية، ويشغله اليوم المجلس الإسلامي الأعلى، وقلت أن السيد الخوئي عازم على المغادرة قراراً لهائياً، ولكن أين المحافظ يا إبراهيم؟ قال: المحافظ مع القيادة مجتمعون في صالة أخرى هنا، وأن المراسل بينك وبينهم، فهم يريدون بحث الموضوع على جانب من السرية، وفهمت بعد هذا أن الاتصالات جارية بينهم وبين سعدون شاکر مدير أجهزة المخابرات في بغداد، وبين سعدون شاکر وصادق حسين من جهة أخرى، وقد طال هذا الاجتماع ثلاث ساعات بعد الغروب، وقد قلت فيما قلت:

إن مغادرة الإمام الخوئي للعراق هدية بطلب من ذهب إلى شاه إيران وهو عدوكم الحقيقي لا الحوزة العلمية، وسوف يستقبل في إيران استقبالاً حافلاً،

وسوف يفضب كل شيعة العالم عليكم، وربما تصدر جملة من الفتاوى بكفركم وإلى وكم كما تم ذلك بالنسبة للحزب الشيوعي، ومن جهة ستكون مغادرته إلى إيران ضربة قاصمة للمعارضة الإيرانية التي يقودها الإمام الخميني اللاجئ السياسي عندكم في النجف الأشرف، وبذلك يُسجل انتصار ساحق لشاه إيران، ومعنى هذا خضوع المنطقة كلها والخليج العربي للشاه، لا سيما وهو شرطي الخليج لدى الدول الكبرى لا سيما الولايات المتحدة الأمريكية، قابل إبراهيم خلف حديثي هذا - وما أورده هو مضمون الكلام مختصراً - بوجوم واهتمام بالغ، والمراسلات بيني وبين المحافظ وقيادة النجف، وأصحاب القرار في بغداد جارية على قدم وساق، وكانت النتيجة أن أرجع إلى الجوازات بالقول: لاتوافق القيادة في بغداد على مغادرة السيد الخوئي العراق بأي شكل من الأشكال، وسوف تعالج الأوضاع وتعمل المشكلات، وطلب إلى الاجتماع بالسيد الخوئي، وأنا حاضر، وكان السيد الخوئي بأقصى درجات التأثر والانفعال، وقد اصفر وجهه وامتقع لونه ورجفت كفاه، وهو يؤنب مسؤول القيادة على التصرفات الشاذة لرجال الدين واعتقالهم وإحاق عوائلهم بهم لغرض التسفير، وكان إبراهيم خلف صامتاً لا ينس بيت شفه، ولكنه وعده بمراجعة الأمر وقضايا التسفير وتحديد الإقامة، وهنا طلب الإمام السيد محمود الشاهرودي مغادرة النجف إلى إيران، ولم يقنع بتغيير قراره إلا بشق الأنفس، حتى قال إن لم نختموا على جوازي وأسرتي بالخروج والمغادرة، فسأذهب بنفسى إلى السراي وأكسر زجاج الدائرة والنوافذ بعصاي هذه، وأستمر على هذا الحال أياماً وليالي، حتى عرض له عارض صحي وبقي الأمر معلقاً، وسرعان ما تدهورت صحته ووفد على الله. وكان السيد الشيرازي يرقب الوضع عن كتب، وكان متأهياً لمغادرة العراق مع حوزته العلمية بمجرد أن تصدر الموافقة على مغادرة السيد الخوئي، وكان مستمياً في النقد اللاذع والإنكار الشديد والاحتجاج العلني للنظام، وهو يرعد ويزيد، ويتساءل ويستفهم!! هل يجري ما

يجري على رجال الدين في النجف في إسرائيل بالنسبة للفلسطينيين، وهو يخاطب المسؤولين كما سمعته بالذات، الإقامة في إسرائيل أشرف من الإقامة معكم، ولو هاجرت إلى إسرائيل لكان أفضل من البقاء المرير في النجف مع هذه الإجراءات الغاشمة الظالمة، وكنت أحاول أن أخفف غلوائه في هذا الجانب فما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولكنه كان يقتنع ببعض وجهات النظر.

وحيثما ظل الأمر معلقاً، أوفدني الإمام الخوئي مع السيد محمد صالح الخرسان والشيخ محمد الشيخ راضي إلى بغداد في محاولة أخيرة لحل هذه الإشكالية المستعصية في تخفيف معاناة أهل العلم، وتعدد الإقامات للأجانب، في ضوء واقع الدراسة في النجف الأشرف، كان ذلك في ٢٢/ حزيران/ ١٩٧٥م، اتصلنا فوراً في ٢٣/٦/١٩٧٥م بالدكتور المرحوم أحمد عن الستار الجوارى، وكان آنذاك وزيراً لشؤون رئاسة الجمهورية، وهو على علاقة ممتازة مع أحمد حسن البكر، وهو على معرفة عميقة بأوضاع النجف الأشرف، وعلى صلة بمراجعها العظام، وهو صديق محبوب في آدابه وخلقه، فأبلغته بسلام السيد الخوئي عليه، وشرحت له أبعاد الموضوع وكان متفهماً له تماماً، تألم كثيراً، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وخاطبني بالقول: يا أبا جعفر تغيرت المعايير وساءت الأحوال، ولا تدري بما يجري داخل مجلس قيادة الثورة حتى قلت لهم محتجاً، تريدون تهدم العتبات المقدسة، يعني تهدم العتبات المقدسة، ثم أمسك عن الحديث، وقال بعدها: سأتصل بالجهاز المسؤولة، وأخبرهم بالوفد وبوجهة نظر السيد الخوئي، وسأعمل كل ما أستطيع في هذا الموضوع، والتفت إلي قائلاً: اتصل بي بعد يومين أو ثلاثة، وكانت مناقشة رسالتي للماجستير في ٢٦/٦/١٩٧٥م، وفي صباح ٢٧/٦/١٩٧٥م اتصلت به حول الموضوع، فقال لي: سألوني عن أسماء أعضاء الوفد فأخبرتهم بذلك، عرفوك وعرفوا الشيخ محمد الشيخ راضي ولم يعرفوا السيد محمد صالح الخرسان فعرفتهم بمترلته العلمية والأسرية، ثم قال: أبلغ السيد الخميني والسيد

الخوئي بأن الإقامات سوف تمتد كما يشاؤون بشرط أن يجري تخصيص الحوزة العلمية من خلال قوائم الرواتب للمسيدين الخوئي والنجفي، فمن كان مدرجاً في تلك القوائم فستحدد إقامته، وهذا كل ما أستطيع عمله، وهو تحرك إجمالي بالنسبة لعناد الجماعة (يعني مجلس قيادة الثورة) أو صداماً بالذات.

شكرته، وكان الوفد قد رجع إلى النجف -باستثنائي- وغادرت إلى النجف الأشرف فوراً، ووصلت بعد الظهر بقليل إلى الكوفة، ونزلت حيث دار السيد الخوئي، ودخلت عليه، فأخبرته بالموضوع فتهلل وجهه فرحاً ودعا الدكتور الجوارى، وألزمي بتناول الغداء معه، وكانت النتيجة أن زُوِّدَ المسؤولون في النجف بالقوائم المطلوبة، فجددت إقاماتهم إلى حين، وكان عدد تلك الإقامات (٢٥٠٠) إقامة، وهو حدث خطير بالنسبة لتلك الأوضاع الشاذة التي قابل بها المسؤولون علماء النجف، وكان سعدون شاکر مدير أجهزة المخابرات هو الذي سال عن أسماء أعضاء الوفد وهو الذي أبلغ الدكتور الجوارى بالقرار، فأبلغني إياه، وأبلغته للسيد الخوئي قدس سره.

وللتأريخ فقد أوفدت القيادة من ذي قبل الوزير حسن العامري عضو القيادة القطرية للحزب وعضو مجلس قيادة الثورة، إلى النجف الأشرف حول هذا الموضوع، فقام بزيارة السيد الشيرازي بتاريخ ٢٧/ذي الحجة/١٣٩٤هـ - ١١/١/١٩٧٥م.

وطلب العامري إلى السيد الشيرازي تحديد إقامة الطلاب المهاجرين إلى النجف الأشرف، وضرورة تعيين فترة زمنية تحدد مدة الدراسة في النجف الأشرف، وفهم السيد الشيرازي من هذا العرض معنى المعنى، فهم يريدون ربط العدد والزمن الدراسي بتحديد من السيد الشيرازي، وكانوا يأملون أن يكون العدد خمسمائة طالباً فحسب، ومدة الدراسة تتراوح بين ثلاث إلى خمس سنوات!! وإذا بالسيد الشيرازي يخاطب الوزير ومعه مرافقوه من مسؤولي النجف بالقول بالحرف الواحد: لا بد من وجود خمسة آلاف طالب في الحوزة

العلمية في النجف الأشرف، وأن أقل مدة للدراسة الحوزوية فيها هو خمسة عشر عاماً.

أسقط ما في يد الوزير الحاقداً، ولم يقابل أيّ مرجع، أو لم يقابلوه.

٩- وعمادى النظام الحاكم بالاستهتار والعبث بمشاعر الناس وأحاسيسهم الدينية في النجف الأشرف، وعمدوا إلى استفزازهم بكل بدعة، فقاموا بتعليق مربع مزجج وموظر لتصاوير ميشيل عفلق مؤسس الحزب، وشيلي العيسمي عضو القيادة القومية للحزب، وأحمد حسن البكر رئيس الجمهورية، وصدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، ووضعوا ذلك مرفوعاً في لوحة كبيرة موحدة في مدخل باب القبلة داخل الصحن الحيدري الشريف متحدين شعور الناس وعواطفهم.

فما كان من السيد الشيرازي -بعد أن أدى صلاة المغرب والعشاء - وكنت مشاهداً للحدث- إلا أن عمد إلى هذه الصورة المزججة الرباعية، وانمال عليه ضرباً عنيفاً بعصاه، فتهشمت وسطقت إلى الأرض، وكان على رؤوس الناس الطير، وكانت تلك جرأة ظاهرة تمثل تحدياً سافراً للحكم، ووقف المسؤولون في النجف حياراً تجاه هذا الحدث، إذ اتصل أخباره ببغداد، وعاتبوا السيد الشيرازي على هذا الإجراء الخطير، فما استلان لهم ولا اعتذر، بل أبدى صراحة بالقول: إن بعض هؤلاء رموز للكفر، ولا ترفع صور رموز الكفر في صحن أمير المؤمنين (عليه السلام)، وقد سبكم الناس على هذا الفعل سباً عنيفاً، فانتبهوا من الغفلة!!

١٠- واستمرت جرأة السيد الشيرازي مضرباً للمثل، وصاحبه هذه الخصلة حتى بعد هجرته إلى مشهد المقدسة في إيران، واستمر معها إنكاره للطفيان ومعارضته للجباية.

وحيثما قام النظام العراقي ما بين ١٥-١٩ / صفر / ١٣٩٧ هـ الموافق ٤- ٨ / شباط / ١٩٧٧ م. بمهاجمة جماهير الزائرين للإمام الحسين (عليه السلام) في زيارة

الأربعين المأثورة. وأقدمت على مطاردة الحشود الهائلة منهم بين النجف و كربلاء، إرهاباً بأزيز الطائرات فوق رؤوسهم ورفع حاجز الصوت عنها، وضرباً بالمراوات والسياط وأعمدة الحديد، ورمياً بالرصاص، والزج بعشرات الآلاف منهم بالمعتقلات في بغداد، وعقد محكمة طارئة كيفية من ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة، وهم الدكتور عزت مصطفى، والأستاذ فليح حسن الجاسم، والمهرم حسن العامري، وحكمت على كوكبة من أبناء النجف بالإعدام، وعلى الأسد محمد باقر الحكيم بالسجن المؤبد، وعلى بضعة عشرات من الزوار بأحكام مختلفة، وبعد يومين من هذا القرار الغاشم، فصل الدكتور عزت مصطفى من جميع مناصبه عضواً في القيادة والحزب ووزيراً للصحة، وفصل الأستاذ فليح حسن الجاسم من جميع مناصبه عضواً في القيادة والحزب ووزيراً، وذلك لتلكهم عن تنفيذ مقررات الحزب، وتبين أن الأحكام الصادرة عن المحكمة كتبها الرفيق صدام حسين بخط يده، وكانت غاشمة وجائرة ضمن كل المقاييس في المحاكم سواء أكانت ثورية أو قانونية، وامتنع الدكتور عزت مصطفى والأستاذ فليح حسن الجاسم عن التوقيع على القرار، واعتراه ظلماً فاحشاً، واستهانة بما قفصلاً، وقتل بعد أشهر اغتيالاً الأستاذ فليح حسن الجاسم فذهب ضحية مروءته وعدالته. وتناهد هذا الأنباء إلى مسامع السيد الشيرازي، فأبرق لسيدنا الأستاذ الإمام الخوئي بالبرقية هذه:

النجف الأشرف/ آية الله العظمى السيد الخوئي دامت بركاته

إن الحوادث الواقعة يوم الأربعين، وضغط الدولة على الشعائر الحسينية والقائمين بها، أوجب تأثرنا واستياء الجميع، وإننا سوف لن نقصر في القيام بواجبنا الديني، إن شاء الله تعالى، وما النصر إلا من عند الله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبد الله الشيرازي

مشهد المقدسة/ ٢٥/ صفر/ ١٣٩٧هـ

أكتفي هذه النقاط الرئيسية دليلاً على الجرأة الصاعدة في مسيرة السيد الشيرازي التضالية، وهي تعطي صورة لبؤرة ذلك التحرك الملتزم في الاحتجاج الصارخ على جميع أصناف الظلم والاضطهاد والإرهاب السياسي، كما تعطي صورة للرجل الصامد المعتمد على كفايته في قيادة لأنصار لها، إلا الدموع والدماء وآثام المساجين وآهات الأرامل والشكالي، أجل هذا هو الصريح من القول بكل أسف ومرارة، وهكذا يصنع الرجال التاريخ بالقرار المناسب في الوقت المناسب، وهكذا كنا.

مشاريع السيد الشيرازي:

كان السيد الشيرازي منذ كهولته الفتية في النحف الأشرف دؤوباً في العمل الجاد، يتصف بالنشاط والحيوية، وكان مثلاً للزهد والتواضع والترسل التام، لا أثر للتكلف في حياته الخاصة، بعيداً عن الشبهات، قريباً من الله تعالى في إحيات وإنابة وصيانة للسلوك، رطب اللسان بذكر الله، يشارك البؤساء والفقراء في حياتهم الصعبة، ويواسيهم في معاناتهم اليومية، ومع هذا فقد تخطى حدود الأزمات، وأمد الله في زمام توفيقاته، فنهض مشمراً ساعديه بعدة مشاريع حيوية في النحف الأشرف مع ضغوط السلطة، وشدة المحنة والعيش الكفاف، وأسس مدرسته العلمية في شارع المدينة، والمدرسة الطاهرية - تبركاً باسم أبيه - العلمية لطلبة العلوم الإسلامية في مساحة كبرى، والجامع الطاهري، والحسينية الطاهرية، تزينهما مكتبة عامة باسمه الشريف، وشيد مساجد وحسينيات أخرى، ومراكز إسلامية للثقافة العامة في كل من النحف الأشرف والكوفة الغراء، وهي شاخصة إلى اليوم وإن كانت بحاجة ملحة إلى الرعاية والعناية والإدارة والتنظيم.

إن تأسيس هذه المشاريع قبل نصف قرن من الزمان مع قلّة ذات اليد، وحياة الفقر التام في المجتمع النحفي، وتفرغ السلطات الحكومية فيما بعد، يعتبر نحتاً في صخر، أو قدماً من حجر، ولكنها النية الخالصة والعمل في سبيل

إعلاء شأن الدين. وحين استقراره في مشهد - كما سيأتي - اتسعت رقعة مشاريعه الخيرية، وتعددت خدماته العلمية لا في مشهد فحسب، بل تخطت ذلك إلى المدن الإيرانية الأخرى، وتجاوزتها إلى الهند وباكستان، وبعض البلدان الأفريقية كالسنغال، وكينيا، وسيراليون، وتزانيا، وفولتيا العليا، ومن البلدان العربية توجه نحو سوريا ولبنان والخليج العربي، وقد أسهمت إدارته الحازمة في كل هذه الأقاليم بإنشاء المكتبات العامة أولاً، وإعمار المساجد والحسينيات ثانياً، فالهدف العلمي لديه قرين الهدف الديني، وهكذا كان.

وفي مشهد كان السيد الشيرازي رجل مشهد الأول، فطور كثيراً من المشاريع الإنسانية، وصبَّ جهوده في روافد الحوزات العلمية في كل من مشهد قم، وقوجان، وشيراوان، وبنجورد، وقائين، وكانت العناية الأولى تنسم بإغاثة الملهوفين منهم، وإعالة الفقراء، ومتابعة أحوال المهجرين العراقيين، وتخصيص الرواتب الشهرية لهؤلاء جميعاً بما يبلغ ثلاثين مليون تومان شهرياً، وعطف على منضري الحرب العراقية الإيرانية رعاية خاصة.

وقد لاحظت ميدانياً في مشهد بخاصة مشاريعه الكبرى وأبرزها:

١ - مدرسة الإمام أمير المؤمنين العلمية، وهي مدرسة حوزوية، والدراسة فيها على غرار الدراسة في حوزة النجف الأشرف.

٢ - حسينية الإمام الشيرازي في مشهد، وهي قرية من الروضة الرضوية المباركة، وقد طورها من بعده ولده البار السيد محمد علي الشيرازي، وتعنى بمواليد ومآتم الأئمة الطاهرين مع الإطعام العام، والعناية الخاصة بالعراقيين كافة، وتوفير السكن لهم مع مستلزمات الضيافة في الطابق العلوي من الحسينية وفي أماكن أخرى، وقد خصص الطوابق العلوية أخيراً لحضور النساء في الاحتفالات الدينية، وأفردت منازل لضيافة العراقيين بعامة والتحفيين بخاصة، بما يعتمر من مآثره قدس سره، ومكارم ولده البار.

٣- المستوصف الخيري في مشهد، ويتمثل بتحيزه بالمعدات الطبية والمستلزمات، والكادر الطبي المتخصص، واستشفاء خمسمائة مريض من علماء وأساتذة وطلبة الحوزة العلمية شهرياً، ومعدل تكاليفه شهرياً يقدر بخمسة وعشرين مليون تومان إيراني.

٤- تأسيس المستشفى الخيري العام ومستشفى أم البنين للولادة بكلفة بلغت مليار تومان.

٥- المكتبة العامة للسيد الشيرازي بمشهد.

٦- مسجد أبي الفضل العباس (عليه السلام) بمشهد.

٧- إنشاء مستوصف السيدة رقية (عليها السلام).

٨- إعادة تشييد مستوصف خاتم الأنبياء.

إن هذه الأرقام هي مشاهداتي الخاصة، وهي على سبيل النموذج يستدل بما ذكرنا على ما لم يذكر.

هجرة السيد الشيرازي إلى مشهد:

رأى السيد الشيرازي أن النظام الحاكم سادر في غيّه وطفيانه، ولأمل في إصلاح الوضع الديني، ورأى المواعيد التي قدمها للمرجعية كاذبة، وهي خداع في خداع، فقرر الهجرة من العراق، وطلب الرحيل وسحة المغادرة، فامتنعت السلطات عن تلبية طلبه، لما تحدّثه هجرته من ضجة في الوسط الديني والشعبي في العراق، وقد أصرّ السيد الشيرازي على ذلك، فأرسل إصراره أجهزة المخابرات ومفاصل الدولة القيادية، فزاره محافظ كربلاء بحضوري ومعه مدير مخابرات المنطقة، وأبلغوا السيد أن رئيس الجمهورية يعتبر البلد بلده وله أن يقيم ما يشاء، فرفض ذلك، لأن مسألة عامة تخص الحوزة العلمية أجمع، وهنا اجتمع به كلاً على انفراد: السيد الخوئي والسيد الخميني والسيد الصدر، في محاولة لتغيير قراره، فأبدي لهم أن هجرته -مع وجودهم في العراق- لها عائدة إيجابية على الحوزة العلمية، ولها آثار سلبية على النظام الحاكم.

وكانت المشكلة العارضة في اليمين أن علاقة السيد الشيرازي بشاه إيران كانت متوترة بسبب تأييده المطلق للسيد الخميني قدس سره، ودعمه قوياً وعملاً للتحرك الثوري بقيادته في إيران، ولكن السيد الشيرازي اعتمد التأيد الجماهيري له، وأصرَّ على المحررة، وزرته ليلة سفره، وابتدبت وجهة نظري في ضرورة تواجده في النجف الأشرف في هذا المناخ العصيب رغم كل التناقضات السياسية، ورغم التعامل الإرهابي مع الحوزة، فأبان السيد أن رحيله سيشكل نصراً في النهاية لقضية الحوزة، وأنه يترك النجف بحسبه، وأن قلبه وروحه وعواطفه في رحاب أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وتحمم على النظام مقارناً له بإسرائيل فيما تضطهد به أبناء فلسطين، وكذلك اضطهاد النظام للشعب العراقي عامة، وللنجف الأشرف خاصة.

ومهما يكن من أمر، فقد حدد يوم السبت ٢٥/ذي القعدة/١٣٩٥هـ — موعداً للمحررة، فاجتمع المسلمون وأهل العلم وأعيان البلد لتوديعه، وانطوت بذلك صفحة مشرقة حافلة عاشها السيد الشيرازي في النجف الأشرف طيلة ثلاثة وستين عاماً، كان خلالها قائداً جريئاً، وزعيماً مصلحاً، ومرجعاً متنوراً. وهكذا غادر ركب السيد الشيرازي النجف الأشرف مودعاً بالدموع والحسرات، والتزمت الجماهير الحاشدة بتوديعه توديعاً مشهوداً في كل من النجف الأشرف وكربلاء المقدسة، والكاظمية المشرفة، وبعقوبة، وخانقين، حتى اجتاز الحدود العراقية إلى إيران يوم الاثنين ٢٧/ذي القعدة/١٣٩٥هـ، واستقبل عند الحدود الإيرانية بحفاوة بالغة شعبياً وعلمياً، كما قوبل برقابة صارمة من قبل أجهزة السافاك.

وارتأى السيد الشيرازي أن يتخذ مشهد الإمام علي بن موسى الرضا مقراً وموطناً لمسيرته المرجعية، فاستقر برحابها في ٢٨/محرم/١٣٩٦هـ. وهناك كان الاستمرار بالمنهج العلمي والإصلاحي، وبرزت طائفة من مؤلفاته العلمية منتشرة في الوطن العربي والإسلامي.

مؤلفات السيد الشيرازي:

ترك السيد الشيرازي ثروة علمية متخصصة في علمي الفقه والأصول في مؤلفات تمثل عدة أنحاط، فهناك المؤلفات المخطوطة التي تستوعب مباحث قيمة في الفقه والأصول، ففي الفقه له مخطوطة في كتاب الطهارة، وأخرى في كتاب الصلاة، وثالثة في كتاب الزكاة، وتعليقة على مكاسب الشيخ الأنصاري، وفي الأصول له تعليقة على كفاية الأصول للأخوند الخراساني قدس سره.

وهناك تقارير أبحاثه في الدرر العالي الخارج، وهي:

- ١- تنقيح الأصول /تقريراته/ في أربعة مجلدات تعلم الشيخ علي الأرومي.
 - ٢- رسالة أصولية /تقريراته/ في الترتب / تعليم علي أكبر الوحيددي.
 - ٣- كتاب الصوم /تقريراته/ بقلم الشيخ علي أكبر الوحيددي.
 - ٤- كتاب الصم أيضاً /تقريراته/ بلم الشيخ علي الأرومي.
 - ٥- زكاة الفطرة /تقريراته/ بقلم الشيخ محمد تقي الطبسي.
 - ٧- محاضرات في الحج /تقريراته/ بقلم ولده السيد محمد علي الشيرازي.
- أما مؤلفاته المطبوعة فأشهرها:

- ١- أنيس المقلدين /رسائله العملية/ صدرت لأول مرة عام ١٣٦٥هـ.
- ٢- زبدة الإحكام.
- ٣- مناسك الحج / صدرت بعدة لغات إقليمية وعالمية.
- ٤- توضيح المسائل.
- ٥- عمدة الوسائل في الحاشية على الرسائل للشيخ الأنصاري في ثلاثة مجلدات.
- ٦- كتاب القضاء / مجلدان.
- ٧- وسائل فقهية.
- ٨- الدرر البيض في منجزات المريض.
- ٩- إزاحة الشبهات في الشك في الركعات.
- ١٠- الحاشية على العروة الوثقى للسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي.

وهناك مؤلفات أخرى وكراسات ونشرات في الثقافة الإسلامية والكلام والاحتجاج والإمامة.

وفاة السيد الشيرازي:

في فجر يوم الخميس ١/محرم الحرام/١٤٠٥هـ انتقلت روح السيد عبد الله الشيرازي إلى الرفيق الأعلى بعد مسيرة علمية ونضالية تجاوزت تسعين عاماً، وبذلك طويت صحيفة رسالية من الجهاد الديني والكفاح السياسي، حملت هموم الأمة ومآسي الشعب المسلم.

ولدى إذاعة نبأ وفاته في الإذاعات الإقليمية والعالمية، هرّ هذا الخطب الجلل العالم الإسلامي، وأعلنت بعض دوله الحداد الرسمي، وعطلت الحوزات العلمية في ديار الإسلام بحوثها ودروسها، ونعتت الهيئات الدينية والسياسية والعلمية، وفي طليعتها مراجع الأمة، والحوزات في النجف الأشرف وكربلاء وقم وبقية الأقاليم، وأبنت ونهت في بيانات مؤثرة، وانحالت برقيات التعازي على آله وذويه وعلى مراجع الدين، وانتشرت الأعلام والرايات السود في البلدان والقصبات، وعطلت الأسواق تعطيلاً عاماً، وبت ملامح الحزن وعلائم الأسى في مشاهد جنازية مفجعة، وشيع الجثمان الطاهر بمئات الألوف، يتقدمهم العلماء والقادة والمسؤولون والحوزة العلمية، ودفن حيث موضع مرقد، قرب الضريح المبارك للإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام). وأقيمت عشرات الفواتح في أغلب بلدان الإمامية في العالم.

وقد خلّف من الأبناء والأعلام مايفتخر بهم جيلاً بعد جيل، فمكتبه عامر في مشهد بولده البارّ السيد محمد علي الشيرازي، والحسينية حافلة بطلائع الشباب، ورعاية المحرومين والمضطهدين في ثراء إنساني، وتكريم أبناء العراق قائم على قدم وساق، والخلق العربي الأصيل في ذروة العطاء.



السيد محمد الحسيني الشيرازي . موضوعياً

الاسم والولادة:

هو السيد محمد بن السيد مهدي بن السيد حبيب الله الحسيني الشيرازي الحائري، وجدّه السيد حبيب الله ابن أخ المجدد السيد محمد حسن الشيرازي (ت ١٣١٢هـ).

ولد في النجف الأشرف عام ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م.

ونشأ في كربلاء المقدسة نشأة روحية متميزة، وهاجر إلى دولة الكويت الشقيق، وغادر إلى قم فاستقر بها حتى وفاته. فهو نجفي الولادة، حائري النشأة، كويتي الهجرة، قمّي الإقامة والمرجعية والوفاء والمثوى الأخير.

تمهيد منهجي:

السيد الشيرازي قدس سره وبصريح العبارة: رجل ارتفع به أولياؤه إلى درجة التقديس، وهو أهل للتبجيل والتعظيم من دون شك. والمقدر به أعداؤه إلى حدّ التوهين، وليس الأمر كذلك، فكان مدحه يتعدّى حدود الإفراط أحياناً، وكان قدحه يتعدّى حدود التفريط دائماً. وبناءً على هذا المناخ المتناقض، فقد كثر أتباعه وعبّوه، وهم يفقدونه بالأباء والأبناء، وكثر - أيضاً - مبغضوه بشكل غريب يدعو إلى الحيرة والتساؤل.

فما هي الأسباب الكامنة وراء هذا التضاد؟

وما هي شخصيته في الميزان الواقعي الموضوعي.

وما هي الدواعي الحقيقية وراء حملة التشهير به جزافاً؟

وما هي فلسفة الاعتزاز به والاحتفاء بقيادته؟

وما هي مواقفه الإنسانية المجهولة لدى الكثيرين؟

وما هو دوره في بناء الفكر الإسلامي المعاصر؟

هذه بعض الأسئلة الرئيسية الكبرى التي تدور حول مسيرة السيد الشيرازي قدس سره، وهي أسئلة قائمة بالفعل، أرجو أن يوفقني الله تعالى للإجابة عليها بأمانة وإخلاص ضمن هذه الصفحات من ملامح حياة السيد الشيرازي العامة.

وينبغي الإشارة بادئ ذي بدء، أن الرجل قد انتقل إلى حوار ربّه، فلستُ أمله في شيء، ولستُ من أتباعه ولا مقلّديه، ولا علاقة مالية لي معه، فلستُ محتاجاً، ولا أتناول حقاً شرعياً، بل قد أخرجته أحياناً.

وقد أكون مستشاراً عند جملة من المراجع العظام طيلة أكثر من أربعين عاماً، وليس هو أحدهم، نعم هو أخي في ذات الله والمصلحة الإسلامية العليا، وهو صديقي منذ أكثر من خمسين عاماً أيام الصبا والشباب، واستمرت هذه الصلة حتى وفاته من دون أن يكتر صفوها شيء.

فإذا كتبتُ عنه فبدافع الوفاء لهذا النوع من الإلتقاء الروحي، ولستُ ممن المتعصّيين له أو عليه، ولهذا فسأكتب للتاريخ والأجيال القادمة التي قد لاتتوصل إلى حقيقة هذا الرجل ببسر وسماح، أو قد تلمس شيئاً من اللبس والغموض حول شخصيته الفدّية، بين ثناء المحبين، وهجاء المبغضين.

يحدثنا التاريخ أن أحدهم قد أثني ثناءً كبيراً على أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) بحضوره - وكان متهماً - فقال الإمام بما نصّه أو معناه: أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك، وهذا ما ينطبق في حدود علي المغالين بالسيد الشيرازي طاب ثراه، وعلي القالين له.

سألني أحد علماء لبنان في صيف عام ١٩٩٧م، وأنا أقضي فصل الصيف هناك؛ قال لي: أنت رجل صريح، ومعروف بحبك وإخلاصك للسيد الشيرازي، وأنت من جماعة السيد محسن الحكيم، والسيد أبو القاسم الخوئي، والسيد علي السيستاني؟ قلتُ هذا صحيح، قال: أريد أن أسألك سؤالاً قد يكون محرماً بعض الشيء، قلت له: على رسلك؛ سلْ ما تشاء!!

قال: ما هي الشيرازية؟ ومن هم الشيرازيون؟

إن هذا الاسم يبدو مخيفاً ومحاطاً بالرهبة!! فما هو خطهم وما هو منهجهم؟.. فتبسمتُ، وقلت له:

السيد الشيرازي في خط الله تعالى، وخط رسوله (ﷺ) وخط أهل البيت (عليهم السلام)، وعلى المنهج القويم المعتدل.

قال: هناك بعض الانتقاد لجماعته!! قلت: لسنا معصومين. وكلّ منّا عرضة للنقد، ولكنه النقد الذي لا يخرج أحداً من دينه. وأردفت قائلاً: إن هذه الأسرة الشريفة في كربلاء المقدسة -أسرة آل الشيرازي- يحسدها الكثيرون ممن لا خلق لهم ولا أخلاق، لأهم محبوبون حباً ذاتياً، ولهم شعبية هائلة في الوسط الجماهيري، وتلك نعمة كبرى، وكل ذي نعمة محسود.

قال: جزاك الله خيراً، فقد نقصت عني كثيراً.

قلت: لا عليك بالأقاويل والأباطيل، ما قلت لك هو الواقع بعينه.

كان هذا الحديث مدعاةً إلى تسجيل جملة من الوقائع قد تنحلّ من خلالها الإشكاليات جملة وتفصيلاً.

النشأة المثالية:

نشأ السيد الشيرازي قدس سره نشأة رائعة مثالية بين أحضان والده المهدي، وكان رجلاً عرفانياً، وعالمًا ربانياً، تتمثل به القداسة بأروع صورها، فاكتسب المترجم له خصائصه السلوكية، وأضاف إليها معارفه العلمية، فغذاه لباب العلم الخالص، ودرس على يديه وعلى أساتيد كربلاء المقدسة الدراسات

الأولية والعالية والعلوية، واحتصن بعد والده طاب ثراه بالحجة الشيخ يوسف الخائري، حتى لمع نجمه في الوسط العلمي، وهو في عنفوان شبابه، وبذلك اشتهر - منذ عهد مبكر - شهرة مستفيضة في العالم الإسلامي.

والسيد الشيرازي قدس سره داعية إسلامي كبير، ومرجع ديني معروف، وظاهرة فريدة في البحث والتأليف والنشر، وضرب به المثل في الصبر والمعاناة على ذلك. ولم يكن هذا المقام الذي احتله السيد الشيرازي اعتبارياً أو فحائياً، فالرجل في نشأته المباركة وراء هذه الأهمية الخاصة، فقد كان كثير الصلوات بالمناخ العلمي، وقد عاصر طائفة من العلماء الربانيين، وهو على ارتباط مباشر بثقافة العصر، فعاد بذلك مثقفاً عصرياً متحضراً.

يضاف إلى هذا كله أن السيد الشيرازي قد ورث مجداً رفيعاً من أبيه العظيم، وكان زعيم كربلاء المطلق، فاتجه نحو المعالي في الفكر والمنهج والمسيرة لا عن كلاله وقد نشأ السيد الشيرازي قدس سره في بحوثة من الشرف الشامخ، متمتعاً بالخلق الرفيع، ومدرباً بالعلم الناضج، ومنفتحاً على كل جديد في الحضارة الإنسانية. لم يقف عند علم الفقه وعلم الأصول وعلم الدراية، وقد جعل القرآن الكريم إمامه فهداه الصراط المستقيم، وانصهر بالعلوم والفنون الأخرى في الاجتماع والسياسة والتربية والقانون والتعليم وعلم النفس، وأطاريف الفلسفة والمنظمات الدولية، ولوائح حقوق الإنسان.

ولم ينسَ مهمته الأساسية في نشر التشريع وإذاعة علوم الأئمة الطاهرين، فحذب على التدريس في محته الخارج في كربلاء المقدسة فقهاً وأصولاً، فنشأ على يديه جيل من المبلغين والمرشدين وحملة العلم.

خصائص السيد الشيرازي الذاتية:

يتسامى السيد الشيرازي طاب ثراه، بخصائص متميزة ارتفعت به إلى مستوى الأبرار، فهو طلق الوجه، مبتسم الثغر، بهيج الحيا، عالي الهمة، دقيق

الفكر، حصيف الرأي، أصيل النظر، ابتعد عن صفائر الأمور، واتجه نحو القمة في الموضوعية والإبداع، وقد جلب تواضعه الجَمَّ أفئدة الناس إليه، واستولى ترسلُهُ العقوي في الحديث على قلوب الشباب وعطفهم نحوه، فامتلك بذلك الضمائر الحية النابضة، وكان زهده وتفشفه قد زاد من التفاف الجماهير حول قيادته المثقفة الواعية.

ومن ملكاته الكسبية والذاتية كونه يحسن لغة العصر وفلسفة الحوار، وملكة الخطاب الجري، وأسلوب الإقناع الفطري، يترسل في البيان والأداء بلاغته المعهودة فيسيطر على الموقف في الإبلاغ، ويتوسط في معالجة الموضوعات المهمة فيفهم عنه كل أحد، ويجادل بالتي هي أحسن فيقتنع بجدله من ألقى السمع وهو شهيد، ولديه من شفاقية التعبير، ورشاقة الكلمة، وإشراق الديباجة ما يجلب له السماع والاستماع، وبمحور بثقافته العصرية أفكاره الحضارية فتجاوب معه نبضات القلوب وأصداء الآراء، فيثَّ ماشاء من أطاريح وتطلعات.

وإذا استمعت إلى حديث السيد الشيرازي، وهو يمزجه بيسمة رفيقة، فإنك تستمع منه إلى السحر الحلال لطفاً وعدوبة واستجابة، فهو حديث القلب إلى القلب، ونداء الضمير إلى الضمير، فلا يكاد يحدثك بلغته الهادئة إلا أمنتك عليك المشاعر والأحاسيس تلقائياً، وتلك هبة سامية من الله تعالى جذب بها قلوب الشباب اليقظ، واسترعى انتباههم، فبلغ ما يريد من التوجيه والنصح الكريم.

ولم أسمع طيلة صليتي به متاولاً لأحد بسوء قط، يحمل على الظاهر، ويجري أصالة الصحة، وهو لا يقابل أعداءه ومناوئيه بمثل مقابلتهم له، بل العفو والصفح الجميل من أبرز ملامحه في التعامل، يكفل أمرهم إلى الله تعالى، ويدعهم لتأنيب الضمير، فهناك من يثلبه ثلباً لاورع معه، وهناك من يشتمه جهاراً، وقد يشكك بعضهم باجتهاده، وقد يطمعن باستقلاله الفكري، وقد ينسبه إلى ما هو بريء منه، ولكنه لا يعبأ بمثل هذه الأقاويل، فله عن ذلك شغل شاغل بتطلعاته الريادية، وليس على الهراء سبيل لديه، فهو أرفع جانباً، وأعلى كعباً، وأسمى عقلية.

بلغني أن أحدهم ممن ثلب السيد الشيرازي، كان قد أحتضير، وقد رأوه يتمل على فراش الموت، ويتأسف كثيراً، فحوب في ذلك، فأجاب أنه زور على بعض المراجع العظام فتوى كاذبة تناول السيد الشيرازي بالقدح، والمرجع لا يعلم بذلك على الإطلاق، بل كان يحبّ السيد الشيرازي حباً حمياً.

عقبات في طريق القيادة:

كان السيد الشيرازي طاب ثراه قد تعرض في حياته إلى حقد الحاقدين، واستهدف من قبل نفر ضال، وكان الشطط والبهتان والتزوير من معالم الحملة الظالمة التي واجهها بقلب سليم، وشقّ غبارها بعزم ثابت وشجاعة نادرة، فكان مظلوماً من قبل هؤلاء، وكان ظلمه هذا ظلماً فتوياً متعمداً، ولم يكن ظلماً اجتماعياً، فقد كان يمثل الصدارة في نظر المجتمع السليم، وكان يتبوأ مفعد الدق عند جمهرة المثقفين، وكان يحظى بتأييد شعبي منقطع النظير.

حدثني سماحة الأخ العلامة الجليل الدكتور السيد محمد بحر العلوم دام علاه، قال: أهدى إلي السيد الشيرازي وأنا مقيم في لندن (١٣٢) مجلداً من موسوعته الفقهية، فبهرت لهذا العمل الضخم، واستدعيت أحد العلماء البارزين، وقلت له بالحرف الواحد: مَنْ مِنَّا يستطيع أن يقوم بهذا الجهد العظيم، أليس صاحبه قد غربل الأثار، واطلع على ما في الأسفار، حتى استطاع أن يخرج بمثل هذه الحصيصة النادرة؟ اتركوا النقولات!! ودعوا الرجل يعمل بصمت!!

وكان هذا موقفاً جريئاً من السيد بحر العلوم، انتصاراً لهذا الرجل المظلوم، قلّ له درك أيها العبقري الصامد، لم تكن عوداً، ولم تخمد عزيمة، ولم تستسلم لليأس، والليل داج، والأهواء تعبت بالأراء يميناً وشمالاً، وأنت كالطود الشامخ، حتى إذا غادرنا السيد الشيرازي إلى دار الخلود الأبدى، بدأ الكثير يتأسف ويتساءل:

ما هو ذنب السيد الشيرازي؟

ولماذا احتجز السيد الشيرازي؟

ولماذا حورب السيد الشيرازي؟

وتبقى الإجابة عن هذه الأسئلة حائرة، لا ييوح بحقيقتها إلا القلائل، ولا عار على القلة النادرة، فهو لهم شرف عظيم، وقد نطق القرآن بذلك، فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾.

ولم تؤثر الريح السوداء العاتية التي أتت من هنا وهناك على مسيرة السيد الشيرازي الرسالية، وإنما شققها ألقى الجبين مكللاً بالنصر، فقد تلاشت وتساقطت تساقط ورق الشجر في فصل الخريف وبدا الحق واضحاً للعيان، وندم من افتري عليه، ووضع العراقيل بإزائه، إذ كان المترجم له كالجبل الأشم، وكان رحيب الصدر، لم يحقد طرفة عين أبداً على ذلك النفر الضال ممن هتمه وافتري عليه، وربما دعا لهم بالهداية والاستقامة، وآثر الصمت والسكوت عن تلك التحاوزات، ولكن المؤسف له حقاً أن السيد الشيرازي، وإنما حورب باعتباره مرجعاً، فكان الاعتداء عليه اعتداءً على المنصب. والاعتداء على المنصب - أمس واليوم وغداً - بشكل ظاهرة مخزية، تورد من تولى كمرها موارد الهلاك.

لكن مضت السنين عمحافاً في حياة السيد الشيرازي قدس سره، فشأنه بذلك شأن القادة الأفاضال الذين لا يريدون بما قدموه للأجيال جزاءً ولا شكوراً، علماً بأن هذه السنين قد مضت - أيضاً - غتيةً بآثاره الخالدة، وثريةً بأعماله الجبارة، فقد استطاع بين حسد الحاسدين، وكيد الحاقدين، وأبواق المفرد والثرثرة التي مارس طقوسها وأجواءها أعداؤه والتافهون، استطاع أن يبني مجداً مؤثلاً من المعارف السائرة، وأن يضرب مثلاً رائعاً من التسامح الديني، وأن

يصبح رمزاً من رموز هذه الأمة في التضحية والجهاد، وأن يظل صامداً كالجبل الأشم أمام العواصف.

وسيجمع الله بينه وبين من أساء إليه من هنا أو هناك، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

كانت العموم تتوالى على الرجل، وكان الاضطهاد السياسي ملازماً له ملازمة الظل للشاخص، إلا أن الآلام تعصر قلبه عصراً، والآمال الرسالية لم تتحقق لديه كما أراد؛ حتى فاضت نفسه الطاهرة، ووقد على ربّه الكريم، يضاف إلى هذا كله أنه كان كثير الحنين إلى كربلاء المقدسة معقله المرجعي.

الخطوات الحضارية في مرجعية السيد الشيرازي:

كان الفقيد السيد الشيرازي أعلى الله مقامه، سباقاً إلى تطلعات العصر في القرن العشرين، مستوعباً للأبعاد الحضارية التي ينبغي أن يؤسس عليها الكيان المرجعي، متميزاً في استقراء المشكلات الاجتماعية التي تعاني منها الأمة، باحثاً في أنجع السبل لاحتواء هذه الظواهر في معالجات ضخمة شاخصه، كان لها الأثر الفاعل في درء الأزمات، كما عاد لها الأثر الإيجابي في أداء الرسالة، والحديث في الجانب مثلباً متسع، ولكنني أحاول إيجازه على سبيل النموذج في نقاط أساسية:

١- القيادة الناجحة لجماهير كربلاء المؤمنة، وبقية قصبات العراق، والبلدان المجاورة، بحيث شكل ذلك ظاهرة موضوعية، نبهت القيادات الشبابية في العراق إلى مثل الخطوات الرائدة التي يتخذها السيد الشيرازي في استقطاب المواهب المتحفزة، واستكناه هموم الشباب في توقعاتهم المشروعة.

٢- التفاعل الهادف المتكافل مع المشاعر المتدفقة والأحاسيس النائرة لدى الجماعات الواعية، وتوجيهها ميدانياً للعمل المثمر في حقول المعرفة والثقافة والمشاريع الإنسانية، وإيثار المصلحة العامة على المكاسب الذاتية.

٣- إعداد عشرات المبلغين الرساليين من حَمَلَة الفكر الإسلامي للقيام بدورهم البناء في أداء الرسالة، ونشر المبادئ العليا، وإبلاغ الموروث الحضاري الصادر عن أئمة أهل البيت للأمة، وذلك بشق الوسائل والطرق السليمة التي تتيحها مراحل التبليغ.

٤- تهيئة الكادر العلمي المتطور ممن يتمتعون بالتأهيل الثقافي، ومن الذين لهم الصلاحية الفكرية والتربوية للقيام بأعباء المسؤولية الشرعية روحاً وعملاً، لجلب أكبر عدد ممكن إلى حضرة الإسلام والتي هي أحسن، والقيام بشؤونهم المالية، وتحسين الحالة الاقتصادية.

٥- الإشراف على المنبر الحسيني بجعله أداة حيّة مشرقة لبث تعليمات أهل البيت (عليهم السلام)، ونشر علمهم الألهي الزاخر، وبيان مظلوميتهم في عزلهم عن قيادة الأمة سياسياً، وإبداء ما جرى عليهم من نكبات وصدمات واستتصال وتصفية جسدية لهم ولأوليائهم من السائرين على خطهم، بما يضمن طرح المبادئ العليا على الصعيد الفكري والإعلامي، والتي ناضل الأئمة المعصومون (عليهم السلام) من أجل إقرارها بأصالة وإخلاص لسعادة الكائن البشري في الدنيا والآخرة، وطرح تلك المبادئ سليمة عن الزيغ والانحراف والتطرف.

٦- العناية النامة بعنصر الشباب باعتبارهم يتفحرون -عادة- بالنشاط والحيوية والفتوة، بتلقينهم دروساً إضافية في العلم والمعرفة والصبر والثبات والتضحية والإصرار تابعة من صميم نظريات أهل البيت وقيمهم العليا، والحفاظ على ذلك باعتباره ذخيرة خالدة من أنفس ذعائر الفكر الإنساني المتنور.

٧- إفشاء الدوريات والمجلات والنشرات والرسائل الصغيرة، بما يتناسب مع الفهم العام لجمهير المؤمنين بعبارة مشرقة، وأسلوب سهل ممتنع، بعيدة عن العمق الفلسفي الذي ترفضه طبيعة التعليم الأولي في ترسيخ المبادئ العامة للإسلام بعرض جيد وأسلوب جديد.

٨- تشكيل اللجان المتخصصة الواعية، من قادة الفكر، ورجال النظر، وأصحاب الخبرة والتجربة، لتنشيط عملية التوعية والإرشاد والتبليغ في ضوء المعطيات التي تؤتي أكلها كل حين، بعيداً عن الصراع المذهبي والطائفي والإقليمي، للإرتفاع بمستوى الأمة لدرجة المسؤولية.

٩- تأمين الكوادر المالية المتبرعة والواهبية، وعن طريق الحقوق الشرعية، لإدارة المشاريع السابقة بكل أمانة، بعيداً عن الأثرة والتسلط واحتجان المال، وجعل ذلك وسيلة للهدف المركزي في تسريع عملية الإنقاذ والتطوير كما هو شأن الدعوة المصلحين بكل زمان ومكان.

١٠- تحديد مسؤولية العاملين بهذه الأفاق المتعددة، ليكون كل عند واجبه وجهاً لوجه، من أجل إبحاح الأطاريح المترتبة الأداء لدى كل فريق منهم، وتنمية الروح الرياضية في طبائهم، وخلق المناخ التكاملي الذي يسدّد بعضه بعضاً بموضوعية مطلقة لا مكان فيها للأهواء أو الآراء الكيفية، وحصر النشاط جميعه في إطار الصالح العام.

الظواهر الثقافية في مرجعية السيد الشيرازي:

وإذ يمثل ما قدمناه من خطوات حضارية في مرجعية السيد الشيرازي قنس سره، تبرز لنا ظواهر موضوعية أخرى تعنى بالثقافة الإسلامية نتيجة لتلك الأصول الثابتة في التأسيس، وهيظواهر متعددة، أشير بالبحث فيها إلى أربع ظواهر:

الظاهرة الأولى:

كان المناخ السائد في العراق أديباً يؤكد سيادة الشعر العربي من دون الشعر، وذلك أن بيئة العراق بعامة بيئة شعرية، وكانت النجف الأشرف وكربلاء المقدسة وبغداد، قد أبرزت مشاهير الشعراء في الوطن العربي، وكانت المهرجانات التاريخية والاحتفالات الجماهيرية، ومحافل المنبر الحسيني الشريف تبرز هذه الظاهرة بأحلى صورها، وتلك حقيقة ثابتة يدلّ عليها الاستقراء، وكان الميل إلى الكتابة

والنشر متضائلًا إلا في حدود الإعلام والصحافة، وهو أقل ممارسة بكثير بالنسبة إلى الشعر في شتى أغراضه نظماً وحفظاً وتدويناً وإذاعةً، حتى إذا اتسعت الظروف لاحتضان مشكلات العصر، وتلاقحت الثقافة المصرية واللبنانية نشرًا بالثقافة العراقية، بدأت الحاجة إلى الكتابة والتأليف والمقالة والقصة حاجة ماسة وملحة، وهنا نجد توجه السيد الشيرازي قدس سره في كربلاء متجاوباً مع هذه الظاهرة، وذلك بتبني الأفكار الجديدة الداعية إلى حوض ميادين التأليف والنشر مضافاً إلى ما هو شائع من ذبوع أمر الشعر، فأسس في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين سلسلة أسماها: «منابع الثقافة الإسلامية» لتزود المكتبة العربية بكتاب متوسط الحجم في مطلع كل شهر، واستمر هذا الإنتاج الجديد عشر سنوات متوالية، فتلاقفته الأيدي بإقبال وحماس شديدين، مما أوجد حالة دعائية وثقافية في مجالات الإسلام الإعلامية والسياسية والاقتصادية والتاريخية والتربوية وسوى ذلك.

هذا المشروع الضخم كان بداية حضارية في رؤية معاصرة، لم يسبق إليها في العراق بهذا الشكل مما دعا الشباب المسلم المثقف إلى الالتفاف حوله، والإفادة من أطاريحه الواعية، وما إن ثبت هذا المشروع على قاعدة صلبة من التصميم حتى رأينا جيلاً ناهضاً يتدافع كالسيل للمشاركة فنياً وأكاديمياً وتحريرياً في هذا الاتجاه، مما يعني أن المترجم له كان حجر الأساس في إشاعة فن النشر وعالم التأليف في العراق.

وكان لي شرف المساهمة بهذا المشروع بإصرار كبير من السيد الشيرازي نفسه، فألفت للسلسلة كتاباً بعنوان «إنسانية الدعوة الإسلامية» في حدود (١٠٠) صفحة، وما لبث أن نفذ من الأسواق بسرعة مذهلة، وطبع طبعة ثانية.

الظاهرة الثانية:

نتيجة للحملات الظالمة التي شنت بضراوة ضد المبادئ الإسلامية، لم يجد السيد الشيرازي قدس سره، أن سلسلة «منابع الثقافة الإسلامية» كافية لصد

هجمات أعداء الإسلام، فانبرى هو وأخوه الشهيد السعيد المجاهد السيد حسن الشيرازي إلى تكريس جهودهما في النشر والتأليف في شتى الفنون المعرفية المنبثقة عن الإسلام، لإشاعة الطرح الإسلامي في احتواء قضايا العصر، وصيانة شباب الأمة من الانحراف والانزلاق، إن لم أقل المئات في الدعوة، والدعاة، والتبليغ، والسياسة والتربية، والاجتماع، والاقتصاد الإسلامي، وشؤون الدولة، والإدارة، والحقوق، والقانون، والفقه، على شكل كراسات ونشرات وكتب ومؤلفات، أتمكن أن أقول جازماً بأنها قد أغرقت الأسواق والمكتبات بتسرات غرض جديد، وبعرض جديد، وهو ما أتاح للشباب المثقف الاندماج الكلي في هذا الخط التبليغي الرائد، فصدرت بعده للمؤلفين العراقيين كتب قيمة تصبّ في هذا الرافد، ومعنى ذلك أن السيد الشيرازي له فضل السبق في إرساء حركة التأليف والنشر بأهداف رائدة في العراق بالتوجه الكتابي والتدويني مضافاً إلى الشعر المسيطر.

الظاهرة الثالثة:

ورأى السيد الشيرازي بقطرته الناقية أن الحياة متطورة تطوراً سريعاً بما يستجد على الساحة من اكتشافات وابتكارات علمية من جهة، وأن حركة غير اعتيادية من الإقبال على الموروث الإسلامي، فعمد إلى تأسيس مشروع «أجوبة المسائل الدينية» وهي تتولى الإجابة عن الأطاريح الجديدة، وتمحض لنشر الاستفتاءات الشرعية برعايته وعنايته، فكانت هذه النشرة أو المجلدة أو الدورية تؤدي دوراً رسالياً في تلبية حاجة المجتمع الإسلامي في الوصول إلى حقائق الأشياء.

وقد صدرت بانتظام طيلة عدة سنوات حافلة بالنشاط المعرفي في أجزاء متتابعة، كان لها الأثر الفاعل في إغناء نفوس الشباب العراقي باللباب من المعارف الإسلامية مهدوء من دون ضحكة، وبعمل جاد دون ثرثرة.

الظاهرة الرابعة:

وهي تستوعب نشاط السيد الشيرازي في الستينيات من القرن العشرين، وتمثل في ثلاثة معالم بارزة، كرس لها جهوده البالغة:

١- إقامة الاحتفالات العامة ورعايتها في المهرجانات الدينية والمواسم الإسلامية، وتفجير الطاقات المبدعة، وإحياء شعائر الله، والتأكيد على المهزون الحضاري الذي عُض به أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وذلك بإثارة وإلقاء ما هو أصيل ومبتكر فيها شعراً ونثراً وخطاباً.

٢- التركيز الموضوعي على تأسيس المساجد العامرة، وتشيد الحسينيات ودور العبادة، وتأمين صناديق الاقتراض اللاربوي، وبناء الميتم في كثير من أقاليم البلاد الإسلامية، والتأكيد على إشراك العنصر النسوي في المجالات الحيوية من هذه المشاريع، وانخراط هذا العنصر في الحوزة والتبليغ.

٣- الاحتفاء باللقاءات العامة والخاصة بالعلماء والمفكرين، والقادة السياسيين، والشباب العامل، لإحياء أمر أهل البيت (عليهم السلام) بالحكمة والموعظة الحسنة، وإرفاد هذه اللقاءات بسديد الرأي، وصريح القول، وحسن التآقي، وسلامة المداخل والمخارج، من دون تسلط فقوي، أو حسّ أجنبي، أو نعة مذهبية.

هذه المؤشرات في هذه الظاهرة أخذت بالنمو والإزهار لحمل الرسالة من رحاب كربلاء المقدسة، وفيها ألق من ثورة الإمام الحسين (عليه السلام)، ونفحة من أريج الطف.

ورغم مرور ما يقارب من نصف قرن من الزمان على هذه المبادرات الواعية، فإن كربلاء مازالت وإلى اليوم مدينة للسيد الشيرازي بتأصيل هذه الظواهر في المجتمع الكربلائي.

النضال السياسي للسيد الشيرازي:

قامت ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ فقضت على النظام الملكي في العراق، وخال الشعب أنه قد تنفس الصعداء، وأصبح سيد الموقف في تقرير المصير وتسيير دفة الحكم، إلا أن رجال الثورة حَيَّوْا الآمال إذ كانوا منقسمين على أنفسهم، تتقاذف بهم الاتجاهاً المضادة، وانطبعت هذه الانقسامات على الشعب نفسه، فحجم عن ذلك شرح كبير في الحياة السياسية، وبدأت المؤشرات المؤسفة تنوح في الأفق، واستشررت الدعوة إلى الشيوعية والقومية والديمقراطية، في ضحيج لأول له ولا آخر، وبرزت الشيوعية بمساندة بعض رجال الحكم قوة ضاربة، بدعمها فريخ الإذاعة والتلفزيون، وتروج لها الصحف والجرائد والمجلات، فأغرقوا الشارع العراقي بالمسيرات الضخمة، وواجهت الوزارات والمؤسسات والسلطات العامة بالشعارات البراقة، والنخدع البسطاء بهذه الظواهر الكاذبة، وبدأوا بتصفية أعدائهم قتلاً ولجأً واعتداءً، وسلكوا لذلك إطلاق الإشاعات، وافتعال ذكر المؤامرات، فكثرت القتل، وتفشى الإعدام، وخنقت الأنفاس، فانقلبت حياة الشعب العراقي إلى جحيم، وتمحضت الأحداث عن شر مستطير، وهنا أشير إلى بعض المظاهر المهمة على شكل نقاط:

١- وقف علماء النحف الأشرف و كربلاء المقدسة والكاظمية المشرفة موقفاً صلباً موحداً بوجه التيارات الوافدة والرياح الغربية التي عصفت من هناك وهناك، بينما كانت الدعوة إلى الإسلام لم تبلور معالمها، ولم يتضح منهجها، ولكنها تحركت بشكل أولي بتأسيس جماعة العلماء النحفي ورفاقه الأعلام من قادة الفكر. وقامت الحركة الإسلامية في كربلاء بقيادة السيد مهدي الحسيني الشيرازي وإدارة ولديه السيد محمد الشيرازي والسيد حسن الشيرازي وأتباعهم الأحرار، وكان التفاف الكربلايين حولهم منقطع النظر، وتأثيرها في الساحة تأثيراً بعيد المعطيات، وبدأت بحجامة الفكر بالفكر، والمبدأ بالمبدأ، والنظرية بالنظرية، خطابةً

ومحاجة ودعاية ونشراً، وتحشداً وتجمعاً وتآزراً كالبيان المرصوص، فكانت كربلاء بذلك سبّاقة على الجهاد الديني والنضال السياسي.

٢- وأقيم مهرجان كربلاء العالمي بذكرى ميلاد أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) في ١٣/ رجب/ ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م وبرعاية العلمين البارزين السيد محسن الطباطبائي الحكيم والسيد مهدي الشيرازي، وبحضورهما الشريف، وقصد المهرجان ممثلوا العراق من أقصاه إلى أدناه، واشترك أديباً فيه أعلام الفكر، وقادة الأدب، وأفذاذ الشعراء، ورجال الوطنية، وكان روعة في التنظيم والمواد والمقررات الأدبية، وحوّلت المبادئ الهدامة بكل إصرار، وبرزت بدايات الدعوات العلنية والجماعية إلى استيحاء المخزون الثقافي الهائل الذي يتخوره الإسلام لأبنائه، ويرفعه القرآن مناراً للمسلمين، وكانت المحاضرة على أشدها، والحرب قائمة على قدم وساق بين دعاة الإسلام ودعاة الإلحاد والتبعية.

وكان لثبات الكربلايين وصمودهم سبقه المجتلي في انتصار الجبهة الإسلامية الرافضة لكل ضروب الانحراف والضلال والفوضى.

٣- وانتقل الإمام السيد مهدي الحسيني الشيرازي إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٦٠م، فحمل راية النضال الديني والسياسية في كربلاء المقدسة أبناءؤه الأبرار: السيد محمد الشيرازي، والسيد حسن الشيرازي، والسيد صادق الشيرازي، وكوكبة مناضلة من رجال العلم والفكر والإصلاح، وقد أظهروا من البسالة والمقاومة ما شهد به تاريخ العراق المعاصر، ودون بأحرق من نور توجت أعمال المجاهدين الحقيقيين بأكاليل النصر المبين، وكان قائد ذلك السيد محمد الشيرازي، وهو في عتفوان شبابه المبارك، وهذه حقيقة ثابتة.

٤- وانتهى حكم عبد الكريم قاسم في ٨/ شباط/ ١٩٦٣م، واستمر المهرجان العالمي بانعقاده سنوياً، وكان لي وللسيد حسن الشيرازي شرف المشاركة فيه من البداية حتى عام ١٩٦٨م.

وفي عهد حزب البعث ١٩٦٣م وما رافقه من العنف الثوري، استنكر السيد الشيرازي قدس سره، الإسراف في سفك الدماء، والفوضى في هتك الأعراس، ومخالفة القانون في كل جزئياته، وامتلأ السجون بالمعتقلين السياسيين.

٥- وغدر عبد السلام عارف بحزب البعث الذي جاء به إلى رئاسة الجمهورية، ليعلنها طائفية بغضه سودت تاريخ العراق الحديث بحكم فاشي عنصري سخيف، ودكتاتورية مطاففة، مما مهد الطريق إلى الطغاة من بعده إلى سلوك المنهج نفسه.

واستنكر السيد الشيرازي كل أصناف الترفقة بين المسلمين، ومظاهر النظام المذهبي المشين، والأعمال الإرتجالية، والخطوات الهزيلة، والقرارات الاشتراكية المزعومة، وكان الميدان لذلك شتى المجالات المتوافرة في الاحتفالات والندوات والاجتماعات والنشر والتأليف، وبالبيانات الشاحبة لعوامل التخلف والجمود في النظام العارفي.

٦- وفي عهد أخيه الفريق الركن عبد الرحمن عارف، اجتمع السيد الشيرازي برئيس الوزراء عبد الرحمن اليزاز وجملة من وزرائه في داره بكربلاء، ونهى عليهم سياسة التمييز الطائفي، وأسدى لهم النصيح والإرشاد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ووعد الدكتور اليزاز خيراً، ولكن لأمر لمن لا يطاق، فالعصاة الطائفية كانت تسيّر الأمور رغم الزعماء والقادة، بل رغم رئيس الجمهورية المسلم.

٧- وقام انقلاب ١٧/تموز/١٩٦٨م، فاستقبل العراق حكماً دكتاتورياً همجياً، أنسى عهد الطغاة السابقين من عصر فرعون ونمرود والعماليق والقياصرة وجبايرة العالم، والتار والمغول والطواغيت الكبار فيما أدركنا من أيامهم كستالين وهتلر وموسليني وأضراهم حتى يومنا هذا. فكان لا يتورع عن

الاغتيال السياسي بشئ الأساليب، ولايبالي بالانتهام بالحاسوسية والعمالة لأشراف العراقيين والوطنيين بخاصة، أما سفك الدماء، وقتل الأبرياء، والتعذيب الوحشي غير المتصور في السجون وأقبية الأمن، وخرق القوانين والأعراف، فحدثت عن ذلك ولاحرج، وعمد إلى مخالفة لوائح حقوق الإنسان في أبسط المظاهر إلى أكبرها، وأباح الأعراض والأموال والأنفس والممتلكات، وفعل الأفاعيل التي يندى لها حين الإنسانية مما لاتسع له ملايين الصفحات التاريخية، وخاصة في المشاهد المشرفة والعتبات المقدسة، وسلط الهمج الرعاع والبداءة الغلاظ من رجال الأمن والمخابرات والاستخبارات وقوى الأمن الخاص على الشعب العراقي، فعانت في الأرض فساداً، وأي فساد.

٨- وأراد الحكم الطاغوي الاحتكاك بالسيد الشيرازي، فعمد إلى اعتقال أخيه السيد حسن الشيرازي، وقذف به في السجن مع رجال الحكم العراقي أكثر من سنة كابد بها صنوف الهوان والتعذيب، وأوقف بين يدي ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث، فأنبه على شعره في هجائه، وقد أشار إلى اعتقاله العميد الركن عبد الكريم فرحان وزير الإعلام العراقي في مذكراته المطبوعة.

لقد أحدث اعتقال السيد حسن الشيرازي ضجة في الوسط العراقي، لما له من شعبية ومزلة في النفوس، وقد أحدث ذلك هوة بين الشعب والدولة، وتوسط له بعض ذوي الشأن، فأطلق سراحه بعد اللتيا والتي، وغادر العراق إلى بيروت، وأخذ يعمل للقضية العراقية، وللتبشير بمبادئ الإسلام، وبتصحيح أفكار جملة من التائهين في غمار التضليل.

وهناك قام بتأسيس الحوزة العلمية الزينية في الشام، عام ١٩٧٤م، وكان مشروعاً فريداً في حينه بما يضم في أجنحته من مكتب للسيد الشيرازي، ومسجد، وحسينية، ومكتبة فخمة، وحوزة للنساء، ومشاريع أخرى، وبعد أن رأى العارفون فيه داعية لمبدأ أهل البيت (عليهم السلام)، محكمة، وأناة، ووقار، حتى

اهتدى بنور هديه الآلاف، وسار على الصراط المستقيم طوائف من الناس، إلا أن أجهزة النظام الصدامي لاحفته وتابعته، فاغتالته في بيروت في هجوم مسلح عام ١٩٨٣م فانطفأت بذلك شعلة من النضال الديني، لم تنل آثارها باقية إلى اليوم.

لقد كان السيد حسن الشيرازي ساعداً مشمراً في مرجعية أخيه قدس سرهما، حذب على العمل الدؤوب قولاً وفعلاً وتوجيهاً وتنظيماً، حتى امتد ذلك إلى بعض ضباط الجيش العراقي، فدفع بهم إلى العمل العسكري للإطاحة بالنظام الطاغوتي في العراق، وتبّه الحاكمون لخطره، فأردوه قتيلاً متسحطاً بدمه في سبيل الله ومبادئ الإنسان، وانطوت تلك الصفحة المشرقة، لتنشر يوم الحساب، وكان ذلك في بيروت بعد أن سددت له ثمان وعشرون اطلاقاً رصاص، وشيع في لبنان، ودفن عند ضريح السيدة الطاهرة فاطمة بنت موسى بن جعفر.

هجرة السيد الشيرازي إلى الكويت:

واشتدت حملات النظام ضد الشعب العراقي في ظل حكم عسكري فوضوي رهيب، وبأساليب إجرامية يعجز الفكر الإنساني عن تصورهما، ورأى السيد الشيرازي قدس سره أنه لا يستطيع القيام بأي لون من النشاط الإسلامي أو الإصلاحي أو المعرفي، وقد حصيت عليه الأنفاس، وضبطت كل تحركاته أولاً بأول، وضويق مضايقة شديدة كبقية المراجع العظام، فقرر الهجرة إلى الكويت في أواخر عام ١٩٦٩م، بعد أن بذل كل جهد ممكن في مكافحة الغي والضللال والنفاق.

حتى إذا حلّ في الكويت، وقد استقبل استقبالاً شعبياً حافلاً، بدأت مشاريعه الكبرى بالتنفيذ، وعمل مخططاً إصلاحياً وإعلامياً وعلمياً بكل أمانة وإخلاص، فأسس حوزة علمية، وشبّد مساحد وحسينيات، وأقام مدارس

ومياتهم، وسير خدمات ومبرات، بما تشهد له بها الساحة الكويتية، واستقطب جماهير الناس هاك، وأدار دفة الأمور بنفسه من الكويت وسط تأييد شعبي كبير في العالم الإسلامي.

وقد زرته في الكويت عام ١٩٧٠م زيارة خاصة، كنت فيها موضع ترحيبه وتقديره، وردّ علي الزيارة مع جمع من أوليائه وحوزته العلمية، وكنت ضيفاً على آل الدرويش في السالمية من الكويت.

ولدى عودتي إلى العراق رجّحت لوالدي زيارته في الكويت تأييداً له، واعتزازاً بشخصيته المحبوبة، فقام الوالد بزيارته هناك، فأكرم السيد الشيرازي ذلك، وقدره تقديراً كبيراً، كما أنني ألزمت أكثر العراقيين المسافرين إلى الكويت أن يلتبسوا مقابلة السيد الشيرازي ويتمكوا بلفائه، وقد استجاب لذلك أغلب القاصدين إلى الكويت مع عنف الرقابة، وتسلسل النظام العراقي آنذاك في الكويت.

وكانت إقامة السيد الشيرازي قدس سره في الكويت مباركة بأدق معاني هذه الكلمة، إذ استطاع استقطاب الجماهير المؤمنة في دول الخليج، وفي المنطقة الشرقية من الحجاز، وفي شرق آسيا، مضافاً إلى أوروبا والولايات المتحدة والدول الاسكندنافية.

وكان من أبرز جهوده - وهو في الكويت - تأسيس مكتبة في دمشق الشام على يد أخيه الشهيد السعيد السيد حسن الشيرازي وذلك عام ١٩٧٤م في حوار السيدة زينب ابنة أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام)، وكان هذا المشروع من أكرم المشاريع نفعاً واستثماراً وعائدية، ففيه حوزة علمية اعتنت بالدراسات الأولية، وعكفت على الدراسات العليا، وقد اشتملت الحوزة على طلاب وأساتذة عرب وإيرانيين وأفغانيين، وأغلب دراستهم الأولى في النحف الأشرف، وفيه حوزة للنساء فيما ينبغي تعلمه من أصول الدين وفروعه،

والأحكام والتبليغ وشؤون الأسرة، ويضم مسجداً فارهاً كبيراً، وحسينية مباركة، ومكتبة ثقافية متطورة، وفروع مختلفة.

ومن أهم توجهاته العناية الخاصة بحبل العلويين، وأماكن تواجدهم، والأخذ بأيديهم نحو الطريق الأقوم في موالاة أهل البيت، والسير في ضوء تعليماتهم العليا من دون المغالاة المنتشرة من دون أساس، وقد أنقذ المشروع مئات الآلاف، ووضع أقدامهم على الجادة، وزوّدهم بالكتب والمجلات والمنشورات التي طورهم فكراً وثقافياً وعقائدياً. بما سيكتبه التاريخ مرفوع الجبين.

ومن دمشق الشام واكب نهضة الإصلاح الاجتماعي، وامتدّ بها نحو لبنان وإفريقيا بتخطيط شامل اتسع لأغلب بقاع العالم في المبعوثين والمبلغين والرساليين، وهم يحملون الفكر الواعي في نشرات وكتب ومؤلفات صغيرة الحجم عميمة الفائدة، وفي أكثر من موطن ترجمته إلى لغات عالمية حيّة، وأغلبها من تأليف السيد المترجم له.

وفي الكويت حيث ديوانه الرسمي، كان موضع عناية الشعب والدولة طيلة عشر سنوات حافلة بالنضال العلمي والتوجيه الفكري، والمشاريع البناءة، والمحبة والمودة والامتزاج.

هجرة السيد الشيرازي إلى قم المقدسة:

حتى إذا قامت الثورة الإسلامية في إيران في شباط/١٩٧٩م هاجر السيد الشيرازي قدس سره إلى قم المقدسة، واتخذ له مكتباً وحوزة وموقعاً متميزاً، وكانت علي صلة ممتازة مع السيد الخميني طاب ثراه، وهو قائد الثورة في مراحلها كافة حتى وفاته، وكان السيد الشيرازي من مؤيدي الثورة في أبعادها الجذرية، وقد أسهم في إنجاحها والدعوة لها في ميادين شتى، إلا أن لديه جملة من الاعتراضات الموضوعية على جملة من الأطرايح السياسية في المنهج

والأسلوب، فاعتبر في عداد المعارضة أو المقاومة لفكر الثورة وبعض رجالها، وقد تعرض من جراء ذلك أبنائه وأخوانه ومريدوه إلى ضغوط كثيرة، كان من بينها الاعتقال والمطاردة والتعذيب، فما لان عزمه في إبداء الرأي الصريح، ففرضت عليه الإقامة الجبرية في منزله طيلة عشرين عاماً من الزمان حتى وفاته.

وفي أواخر رجب من عام ١٤٢٢هـ زرت قم المقدسة في طريقي إلى زيارة الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام، وما أن سمع السيد الشيرازي بوصولي إلى قم حتى أوفد أخاه العلم المجاهد المرجع الديني السيد صادق الشيرازي دام ظله، وكوكبة من أبنائه المجاهدين وفي طليعتهم ولده السيد جعفر وأخوته وجماعة من أهل الفضل، لزيارتي في محل إقامتي بالمجمع السكني للسيد السيستاني دام ظله الشريف. وأبلغني السيد صادق عن السيد الشيرازي قوله: أنه ممنوع من الخروج من داره طيلة عشرين عاماً، ولو سمح له بالخروج لكان في زيارتي، وكان هذا العرض يمثل جانباً من الإخاء الصادق والوفاء المحض، وهو دليل الاحترام المتبادل بين المتأخرين في ذات الله، قلتُ في الجواب: حينما دعاني سماحة الأخ السيد حواد الشهرستاني لزيارة الإمام الرضا أرواحنا فداه، اشترطت عليه زيارة السيد محمد الشيرازي في مقر إقامة الجبرية، مهما كانت الظروف، فقال: إن الدولة لا تمنع من زيارة أحد للسيد الشيرازي لاسيما من هم أمثالكم ومن طيقتكم، فهي تعلم جيداً مدى الصلوات والوشائج بينكم وبين السيد الشيرازي.

وفي ٢/شعبان/١٤٢٢هـ زرت السيد الشيرازي في داره العامرة بالعلم والإيمان وولاء أهل البيت (عليهم السلام)، فتلقاني السيد قدس الله روحه بالترحاب، واعتنقني واعتنفته بحرارة صادقة، وكانت لحظات من عواطف جياشة، وذكريات شحيحة اهلكت فيهما بالدموع، وخففت لهما القلوب، وقد استمر اللقاء ساعتين، وكان لقاءً تاريخياً حافلاً بكثير من التطلّع إلى المستقبل، وإلقاء الضوء على كبريات الشؤون الإسلامية، وبحث التسلط المهجني للطاغية صدام

حسين علي العراق، وكان السيد الشيرازي قدس سره متفائلاً برحيل النظام إلى غير رجعة، حتى قال بالحرف الواحد سيكون لقائنا الثاني - إن شاء الله - في كربلاء المقدسة بعد القضاء على صدام. أما أنا فلم أكن متفائلاً بصحته، فقد بدا عليه الإلهاك ولاح على وجهه الشريف الاحمرار مع الشحوب، وربما يفسر ذلك طبيياً بارتفاع نسبة «اليوريو» في الدم، ولم يكن قلبه صحيحاً في استقرار وانتظام، بل كان كالمناخ المحيط به في اضطراب.

أحيطت هذه الزيارة بسرية تامة، فالسيد الشيرازي من أقطاب المعارضة للنظام العراقي، وفي ظل توجيهه قامت «منظمة العمل الإسلامي» وهي منظمة معادية للنظام في حسابات الطاغية، وكنتُ في رقابة صارمة من قبل المخابرات العراقية حتى أنني اعتذرت عن الموافقة على مكالمة تلفونية من الشهيد السعيد السيد محمد باقر الحكيم قدس سره، لتلا يكشف أمر ذلك للنظام العراقي وأجهزته المجرمة، ومعنى اكتشاف ذلك هو الحكم بالإعدام فوراً، فكيف بمقابلة السيد الشيرازي سيما وقد اعفيت من الخدمة كأستاذ أول في جامعة الكوفة بقرار من رئاسة الجمهورية.. ولكن الله ستر.

ومهما يكن من أمر فقد كان هذا آخر لقاء بصديق العمر ورفيق الجهاد السيد محمد الشيرازي!! نعم كان هنالك لقاء من نوع آخر في ٧/٧/٢٠٠٤م عند مرقده الشريف لدى ضريح السيدة الطاهرة فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) في قم المشرفة كما سترى هذا فيما بعد.

ولأريد الخوض في تفاصيل حياته في إيران، ولأريد أن أتحدث عن تأييده المطلق للثورة الإسلامية، ولأميل إلى متابعة الإفرازات السياسية التي رافقت مسيرة السيد الشيرازي بذلك، فذلك أمر كثير المزالق، موحش السرى، كبير العقبات، ولم أكن شاهداً لأحداثه، وأنا أتحدث عن الفقيه كما رأيت، وللتاريخ أني سجل حقائق الأحداث، ومرافقي السيد الشيرازي قدس سره في محنته أن يدونوا شيئاً من مذكرات تلك المشاهد. نعم لي أن أقول وبصريح

العبارة أن السيد الشيرازي كان أكبر من المحنة، وأصلب من الفتنة، وأكثر تأثيراً في الشعب الإيراني ممن خططوا للحجر عليه وفرض الإقامة الجبرية، وله بذلك الأسوة بالأئمة الطاهرين لاسيما الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام):

إِنْ قِيدُوا بِتَكِّ الْإِقَامَةِ فَالْتَمَسْ «مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ» فِي السِّجُونِ تَزِيلاً

وليت شعري أيتناسي أولئك المواقف المشرفة التي وقفها السيد الشيرازي لدى اعتقال الإمام الخميني قدس سره بعد الأحداث الدامية التي وقعت في قم المقدسة وإبادة الآلاف من الحوزة العلمية والشعب الإيراني وإعلان حالة الطوارئ القصوى في إيران ٢٥/شوال/١٣٨٢هـ = ٥/حزيران/١٩٦٣م.

وقد أحيل السيد الخميني إلى المحكمة العسكرية الكبرى في طهران، ومعنى هذا أن يحكم عليه بالإعدام فوراً من قبل شاه إيران، بيد أن الدستور الإيراني يقضي بأن مرجع التقليد لا يعدم بأي حال من الأحوال، وكان السيد الخميني آنذاك من أساتذة الحوزة العلمية في قم المقدسة، وهو تلميذ مجدد الحوزة في قم آية الله الشيخ عبد الكريم الحائري من أبرز الفقهاء والأصوليين في عهدي المرزا الشيخ محمد حسين الغروي الثاني والسيد أبي الحسن الموسوي الأصفهاني طاب ثراهما، فهما قد حفظا حوزة النحف في أحلك الظروف وأشدّها حساسية، والشيخ الحائري قد حفظ حوزة قم في أخرج فترة مرت بتاريخ إيران الحديث في عهد الطاغية رضا شاه بهلوي والد الشاه المقبور.

ولم يكن الشاه محمد رضا بهلوي ليعترف باجتهاد السيد الخميني طاب ثراه، ولا يبد من العمل على إثبات هذا الموضوع، وكانت المرجعية العليا - آنذاك - في النحف الأشرف قد تولّى سدّها المنفعة الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم قدس سره، والمراجع العقلام الآخرون، فرحل السيد محمد الشيرازي من كربلاء إلى النحف الأشرف، وقصد آية الله السيد عبد الله الشيرازي طاب ثراه، وعرض الموضوع عليه، وقال إن لم تقل النحف كلمتها

في السيد الخميني فسيعدم حتماً، فنهض معه العالم الجريء البطل السيد عبد الله الشيرازي وذهبا من فورهما إلى السيد الحكيم والسيد محمود الشاهرودي والسيد أبي القاسم الخوئي أعلى الله مقامهم جميعاً، وعرضاً لهذا الموضوع الخطير عليهم، وجرت المداولات الحادة في أبعاده كافة، ولم يكن شأن مراجع النجف أن يكتبوا إلى الشاه أو أن يخاطبوه برسالة ما، فتم رأيهم أن يرقوا كلاً على حدة برفقيات احتجاج إلى مراجع الدين في كل من قم وطهران، وهكذا كان، وقد ذكرت هذا الحدث في بحث سابق، جاء فيه ما نصه:

وحيثما قامت أجهزة السافاك لنظام الشاه المقبور، بقمع حركات التحرر بقيادة الإمام الخميني قدس سره، فكانت المحازر الدموية الرهيبة لاسيما في ٢٥/شوال/١٣٨٢هـ الموافق ٥/حزيران/١٩٦٣م، والتي استشهد جراءها حوالي خمسة عشر ألف شهيد في كل من: مشهد، وقم، وطهران، وتبريز، وأصفهان، وسواها من المدن الإيرانية، وزجت بالثقات من العلماء وأفاضل الحوزة العلمية في السجون، حينذاك استنكر العلماء الأعلام في النجف هذه الحوادث، وشجبوا تصرف الشاه بذلك.

وأبرق الإمام الحكيم قدس سره إلى المراجع العظام في إيران بالترقية الآتية:

بسم الله الرحمن الرحيم

«إن الحوادث المؤلمة المتوالية، والفجائع المخزنة التي ألمت بساحة العلماء الأعلام والجامعة الروحانية في (قم) أدمت قلوب المؤمنين والمتدينين، وأوجبت تأثيرنا الشديد ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ أمني أن حضرات العلماء الأعلام بأجمعهم يرحون إلى العتبات المقدسة حتى أقولها كلمة صريحة في الدولة».

النجف الأشرف ٨/ذي القعدة/١٣٨٢هـ — محسن الطباطبائي الحكيم

كما أبرق بالمعنى نفسه كل من الإمام الخوئي والإمام الشاهرودي والإمام السيد عبد الله الشيرازي والإمام السيد محمد الحسيني البغدادي. وعطلت الحوزة العلمية أعمالها في الدرس والبحث الخارج، وأسفرت الحوادث عن اعتقال الإمام الخميني وترحيله إلى تركيا، ثم قدم النجف الأشرف بعد حين^(١).

وكان هذا الموقف الموحد من المراجع العظام قد وقع كالصاعقة على نظام الشاه، فأعاد التفكير في القرار تجاه الإمام الخميني بعد أن عبر عنه السيد عبد الله الشيرازي طاب ثراه وسواه من الأعلام بعبارة «حضرة مرجع التقليد السيد روح الله الموسوي الخميني دامت بركاته» في رسائل أرسلت إليه في الاعتقال، ورضخ أخيراً للانصياع إلى مقررات الدستور الإيراني، فقام بتسفير الإمام الخميني قدس سره على تركيا، ثم منح حق اللجوء السياسي في العراق، فأقام في النجف الأشرف أستاذاً للبحث الخارج، وفيها طور نظريته في الحكم من خلال ولاية الفقيه العامة على ما هو معروف عنه.

لم تكن هذه المواقف التي أنقذت السيد الخميني من الإعدام لتبليور بهذا الزخم الهائل من الاحتجاج والنكير على الشاه إلاّ بجهود الطبقة الواعية من شباب الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وكان السيد محمد الشيرازي طاب ثراه في طليعتهم.

وفي هذا الصدد فإنني أسجل للتاريخ تقرير سيدنا الأستاذ الإمام الخوئي قدس سره بالحرف الواحد آنذاك: «لو كان عندنا ثلاثة مثل السيد محمد الشيرازي لغزونا العالم».

وهو حديث متواتر مشهور على ألسنة الشباب الذين سمعوه، وكان الأخ الحميم العلامة السيد جواد الشهرستاني كبير وكلاء المرجعية العليا في النجف الأشرف آخر من حدثني به.

(١) محمد حسين علي الصغير / أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف / السيد محسن الطباطبائي الحكيم - زعيماً / ١٤٢-١٤٣ / مؤسسة البلاغ / بيروت / ٢٠٠٢م.

وقد يقال أن للسيد الشيرازي طموحاً ميكراً، وسعياً إلى الزعامة منذ شبابه، وللإحابة عن هذا التساؤل نقول: إن الطموح المشروع هو سبيل أغلب زعماء الأمة، وإلا تعطلت القيادة، وتسلمها من ليس أهلاً لها، والسيد الشيرازي أهل لذلك لعائدية تلك الزعامة في العطاء ونشر الأفكار على الأمة التي تنطلع إلى الصقوة المختارة من علماء أهل البيت (عليه السلام) لهدايتهم ليس غير.

ولقد أثبت السيد الشيرازي طاب ثراه مقدرة حارقة في متابعة الأحداث والتكيف مع الزمن في عمل جاد وكفاءة عالية، ولك أن تعجب لرجل مغترب في الكويت يشيد سبعمائة مؤسسة خيرية ودينية واجتماعية في العالم ما بين مكتب لإدارة الشؤون الدينية، ومسجد لأداء الصلاة وانطلاق المقررات، وميثم للفقراء والمحرومين ممن نكبهم الدهر بأبائهم فاحتضنهم، ومكتبة عامة ترعى الجيل، ونادٍ ترفيهي مشروع، ومدرسة للبنين والبنات في أكثر من إقليم من أقاليم الدنيا وهي تلقن الأبناء مبادئ الإسلام إلى جنب التربية، ومستوصف للمرضى، ومستشفى للعلاج المجاني، وحسنية تقام بها الشعائر لاستمرارية مبدأ الأئمة (عليهم السلام)، وجمع ثقافي يقوم بمهام الأدب والترات والتبليغ، وسوى ذلك من المشاريع الكبرى، ولا شيء منها يحمل اسمه إلا مكتبة لضرورة عرفانه في مهمات الإفتاء وإعانة ذوي الحاجة وتنظيم شؤون الوكلاء، فهو كما قال لي مراراً: فإني، والمجد الذي لا يفنى هو مجد أهل البيت (عليهم السلام)، فله درّه، وللخلود ذكره.

مؤلفات السيد الشيرازي:

هذا الموضوع يحتاج إلى أطروحة مستقلة أئدب لها طلاب كلية الفقه الموقرة في النجف الأشرف، وأخص منهم الكوكبة اللامعة من طلاب الماجستير والدكتوراه، وذلك من خلال تسجيل رسائلهم العلمية في هذا البحر الزاخر من المؤلفات التي تجاوزت الألف كتاب، ودراسة ذلك أو جزء منه فيه إعادة للحميل ونشر للترات المتطور كماً وكيفاً.

والسيد الشيرازي منذ شبابه الأول حتى شيخوخته الفتية، وفي ستين عاماً من عمره المبارك، كان حريصاً على التأليف، مؤثراً له على سواه من الأعمال، حذباً في هذا الإيثار الكرم بأمانة وإخلاص، نظراً لعالديته الغذة في إنشاء جيل متدرع بالعلم والمعرفة الإنسانية المتنوعة، وهو بعدُ حقلٌ يتسع لأبواب شتى من بعد الأمة، وإحياء التراث، والدعوة إلى الله، والتمسك بالعقيدة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغذيب النفوس وإشاعة الخلق الرفيع، ونشر ثقافة الإسلام، وبيان خصائص الأئمة، والحفاظ على كتوزهم الخالدة من التماسي والاعغال كما هو ديدن التاريخ الرسمي.

ويمكنني مع الضغط الشديد والضوء المعتمق تصنيف مؤلفات السيد الشيرازي إلى ثلاثة مجاميع رئيسية:

١- المادة التخصصية في التشريع وتشتمل على علم الحديث والسنة والفقه والأصول، وتضم بين دفتيها مباحث الرواية والدراية وتصنيف الرواة حديثاً، وعلى مباحث العبادات جميعاً والمعاملات والعقود والإيقاعات والديّات والقصاص والمواريث فقهاً، وعلى مباحث الألفاظ والأصول العملية أصولاً، وفيها كل ما يتصل بحياة الاجتهاد والاستنباط والنظر العقلي والتدقيق في أدلة الأحكام ومعالم البحث العالي الخارج.

ويكفي للتدليل على ما جاء من ذلك موسوعته الفقهية الضخمة التي بلغت مائة وخمسين مجلداً، وتقريراته في علم الأصول، إضافة إلى أجوبة المسائل الدينية من شتى بقاع العالم، ومستحدثات المسائل في الحضارة وعوالم الغرب في المعاملات والمستحدثات، والطب، والاقتصاد، والاجتماع وعلم النفس، وأحكام الدولة.

٢- كتب الاحتجاج والمناظرات والمقالات الإسلامية في الدفاع عن ثوابت الإسلام وأصول مبدأ أهل البيت و جذوره، وحياة العقل الإنساني في الفطرة

من يتابعها الأولى، والتعريف بحضارة التشريع نظرية وتطبيقاً، والتعريف بالإمامية بمختلف أطياريها فكراً ونظماً وعقائد وأصولاً ونظريات وفلسفة ونصوصاً ظاهرة، وهو بهذا يجمع إلى جنب علم الكلام بعالم الفلسفات المعاصرة من وجه، ومفاهيم البعد التنظيري من وجه آخر، ويضم إلى أدب الاحتجاج أدب المحاوراة الرائدة في ضوء قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ ولا ينسى لغة التفاهم الهادئة وهي تنبض بالحياة والإقناع، فضلاً عن أسلوبه العجيب في النقض والرد، فهو يورد الإشكال الواقع أو المفترض بكل جزئياته ومنظور أطرافه الأخرى الواضحة والمغلقة، ثم ينقض عليها بالرد العلمي الموزون والفكر الحديث المنثور.

وفي هذا الملحق نجد السيد الشيرازي طاب ثراه، يقدم تخطيطاً موضوعياً شاملاً لعالم الإيمان وظواهر العقيدة وفلسفة التشريع، وتبدو عنايته الفائقة في هذا المنحى في التأكيد على دقائق الإمامية وثوابت أهل البيت (عليهم السلام).

ولا يقف قلم السيد الشيرازي عند هذا الأفق الرحب فحسب بل يتعداه على التنظير في العوالم والعصرنة، وشؤون الدولة، وقضايا الحرية والسلام العالمي، ومبادئ حقوق الإنسان، وتأكيد على العدل الاجتماعي وتطبيقه على الشعوب والطوائف والأقليات القومية والمذهبية.

وكتبه هذه غزيرة العطاء، عظيمة النفع والعائدة على كل المسلمين، وهي تتجاوز المائتين في تعدادها.

٣- كتب الثقافة الإسلامية: وهي مجموعة كبرى من المؤلفات الهادفة كبيرة وصغيرة ومتوسطة في الحجم، روعي في تأليفها التيسر والتبسيط ووضوح العبارة وحادثة الأسلوب، ليقبل على الإفادة منها الشباب المتحضر والنشأ الجديد، فيها عمق الأفكار ومرونة التعبير، والسيد الشيرازي طاب ثراه في هذا المنحى يمتلك محزوناً ثقافياً هائلاً من المفردات اللغوية الحالية من التعقيد

والإهام، فهو يتحكم في العبارة بما يسيغه الفهم المعاصر لطبقة الشباب والفتيات، وكان هذا العمل رائداً دون شك، ومفجراً لمنهاج اجتماعي فدّ يحدب على التنقيف الجماعي والفردي بأسلوب سمح لاعسر فيه ولا حرج.

وهذه المؤلفات التي تجاوز عددها خمسمائة كتاب وكرّاس، ودورية، ونشرة، وبيان، وإبلاغ، وتليغ تعدّ أفضل ما قدمه رجلٌ روحاني عرفاني للحيل الجديد في بيان أولوية الإسلام بين المبادئ، وأوليته في التشريع، وأسبقته لإقرار حقوق الإنسان ومبادئ التحرير قبل لوائح الثورة الفرنسية ومبادئ الأمم المتحدة، بأكثر من اثني عشر قرناً، كما نشر في هذا المشروع مناهج الدين الإسلامي في التربية والأخلاق والحرية الفكرية، وبرهن بمفردات ضخمة وبإيضاح عجب على صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان باعتباره الأطروحة السماوية التي بعصدها القرآن العظيم في تبيان كل شيء، ويرفدها الحديث النبوي بالتبين والشرح والإضاءة، ويعززها تراث أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بالسيرورة والبقاء الاستمرار من خلال تعليماتهم التي استمرت أكثر من مائتي عام، ويروّجها العلماء في كل عصر منذ الغيبة الكبرى حتى اليوم بما يقدمونه من ملايين المؤلفات الحائدة بكل ما هو أصيل ومبتكر برعاية من صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه.

كان الائتاع الذهني لدى السيد الشيرازي طاب ثراه وراء هذا السبيل المتدافع من هذه المؤلفات، وقد حرص فيها جميعاً على تيسير المعطيات المكثفة لشباب الأمة بما يناسب الفطرة النقية الخالصة من الأوشاب، وبما يلائم الفهم المتوسط لدى الجيل الجديد، لتصونه من الانحراف والتخلّف والضياع، وتعصمه من الانحراف بتيار المبادئ الهدّامة والأفكار المستوردة.

هذا الاتجاه كان عاملاً فاعلاً في التفاف الشباب المثقف والنشئ السواعي حول الفقيد السيد الشيرازي، وذلك لما لمس فيها من أثر بالغ في التوجيه والرعاية والعطاء الفكري المنسجم مع طبيعة العصر.

وفاة السيد الشيرازي:

كنت متواجداً في منزلي في النحف الأشرف مساء اليوم الثاني من أيام عيد الفطر المبارك عام ١٤٢٢هـ - أستقبل بعض المهنيين بالعيد، فأمتني أحد الأساتذة في جامعة الكوفة وهو قريب إلى نفسي، وبعد قليل من استقراء مجلسه، قال: هنالك نبأ محزن شديد عليك، أنا مضطراً فعلاً لإخبارك به، قلت خيراً؟ قال: أذاع راديو لندن في نشرته الإخبارية هذا المساء نبأ وفاة صديقك السيد محمد الشيرازي، فاسترجعت وتملكتني من الحزن والأسى ما يعلمه الله، وتعللت عسى أن يكون الخبر كاذباً:

طوى الجزيرة حتى جاءني نبأ
فرعتُ فيه بأمالي إلى الكذبِ
وهرعتُ صباحاً إلى مكتب آية الله العظمى السيد السيستاني دام ظله، واستفسرت من ولده السيد محمد رضا السيستاني عن الأمر، فقال: النبأ صحيح مع الأسف، عظم الله أجرك في صديقك!! فلقد سمعته من الإذاعة الرسمية لإيران، فقابلت سماحة السيد السيستاني دام ظله، وعزيتة وعظمت أجره، وكان حزناً متأثراً متأسفاً، وتذاكرنا في حياة الفقيه ومميزاته.

وكانت وفاة السيد الشيرازي صباح يوم الاثنين ٢/شوال/١٤٢٢هـ - بجلطة قلبية، وكان آخر لقاء لي به بعد فراق أكثر من ثلاثين عاماً في ٢/شعبان/١٤٢٢هـ - فما أسرع ما طويت هذه الصفحة المشرقة بعد شهرين!!

تشجيع السيد الشيرازي:

وانتشر نبأ وفاته في العالم الإسلامي انتشار النار في الخشب الحزول، وخرجت قم على بكرة أبيها لتشجيع الختان الطاهر من داره في قم المقدسة إلى حيث مرقد السيدة المعظمة فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، وضافت الشوارع القارحة بالحشود الجماهيرية المتدافعة للتشجيع، وكان قد أوصى بأن يدفنه في داره بعد تجديد العهد بالسيدة المعصومة، إلا أن الأجهزة الأمنية قد

تناهى إلى سمعها الاحتجاج الصارخ - احتطقت الجثمان، ودفن حيث مرقده
 قلبي مشهد السيدة المعصومة، قرب قبر أخيه الشهيد السعيد البطل الجريء،
 المجاهد السيد حسن الشيرازي طاب ثراه، وما إن حطت الركاب في قسم
 المقدسة في طريق زيارتي للإمان علي بن موسى الرضا حتى قصدت مرقده
 الطاهر في ٢/٧/٢٠٠٤م، ووقفت عنده واغرورقت عيناى بالدموع، وقرأت
 الفاتحة وشيئاً من القرآن العظيم، وترحمت عليه كثيراً، ومررت بالذكريات حزينة
 باكية، وهي تتجاوز نصف قرن من الزمان، وكانت حافلة بالنضال المشترك
 والعمل الجاد في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض، وترسيخ مبادئ الأئمة
 المعصومين. وحدثت العهد بمكبة في ٣/٧/٢٠٠٤م لأقدم التعازي بفقدته،
 وأخوه آية الله السيد صادق الحسيني الشيرازي دامت بركاته يخلفه فيه ويقوم
 مقامه، وحوله الناس يستقبلهم بثغره الباسم ووداعته المعهودة، وهو يلبي
 طلباتهم، ويقضي أشغالهم، ويستمع إليهم، ويسعى في حل مشكلاتهم، ويجب
 بأدب وهدوء عن أسئلتهم، ومن حوله أبناء الفقيد السعيد وأبناؤه هو، وكلهم
 من أهل العلم والتحصيل، هنالك تذكرت قول الشيخ محمد الحسين آل
 كاشف الغطاء: «بيت في العلم لا يخرب» وهكذا كان.

إن هذا البيت الشريف عامراً بجيل من الشباب ذوي الوعي، المشتغلين
 بالعلم والعمل الصالح، وسيبقى كما كان في القمة الشامخة من المجد المؤمل.
 وسيأتي اليوم الذي تحتفي فيه مظاهر الابتزاز لكيان الأبرار والمتقين، ويعود
 آل الشيرازي إلى كربلاء المقدسة، مريض أمجادهم وجهادهم الديني، وتردهر
 هذ الأسرة الكريمة ربوع العراق بإذن الله تعالى.

السيد الشيرازي:

فيا أيها الليل البهيم، ويا أيها الفجر الكئيب؛ لقد مات السيد محمد
 الشيرازي في غربة عن بلاده، وسأظل أبكيه بدموع من دم ما ظلّ مظلوماً!!
 وسأبكيه بدموع من دم ما بقيت صورته مرتسمة في قلبي لاتفارقه، فواللهفاه على

فراقه، وروأسفاه على فقدته ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. (الفجر ٢٧-٣٠).

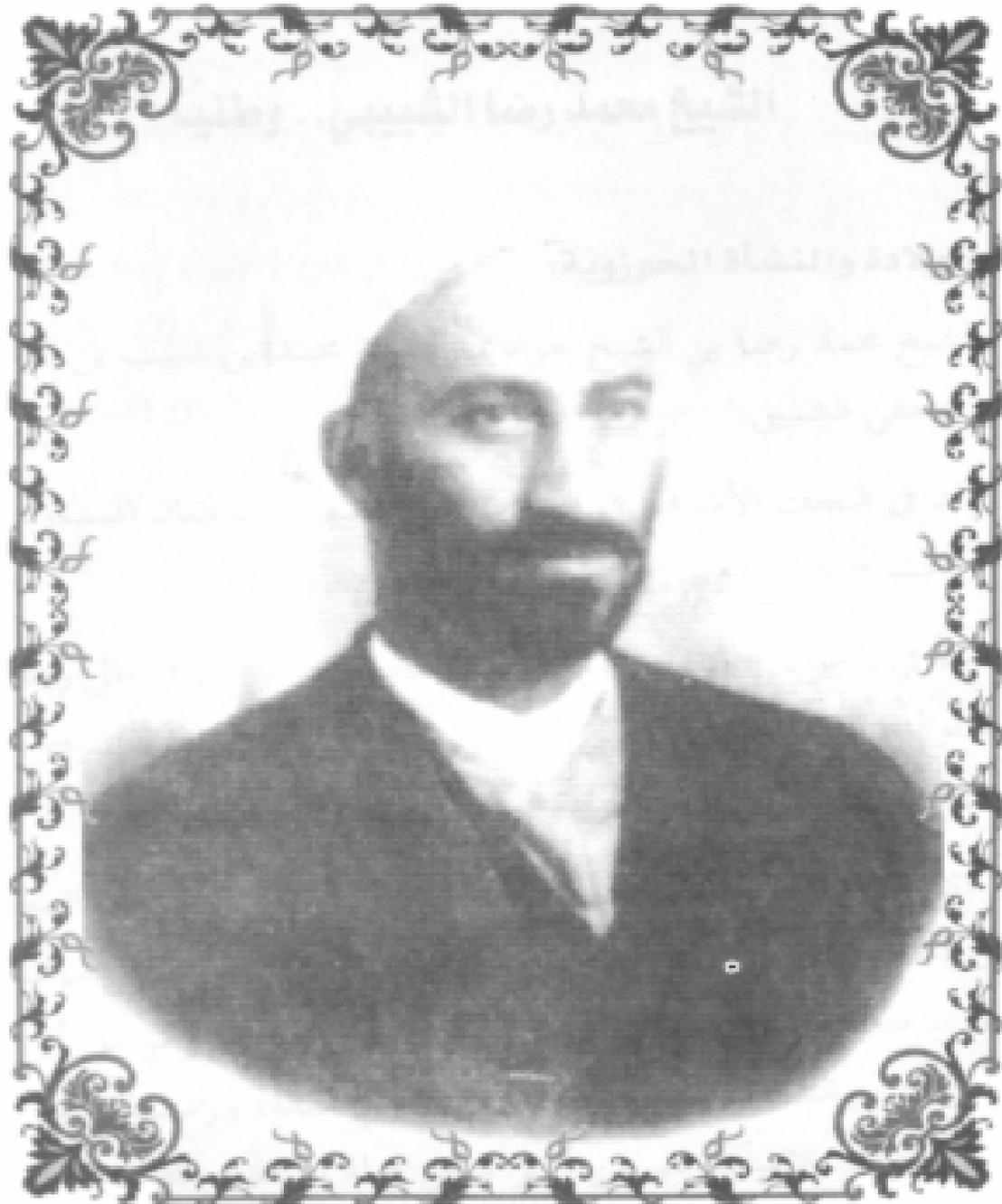
فيا أيها النجم الساري في فلك الخلود السرمدي!! ويا أيها الشعاع الهادي إلى منهج الإسلام الخالص ومبدأ أهل البيت (عليهم السلام)!! ويا أيها القلب الكسير الذي حطّم على صخرة الاعتداء الأثيم! ويا أيها الصوت المدوّي في أفق الصمت الرهيب، عشت سعيداً مظلوماً، ومت شهيداً محروماً، وستبقى مناراً للخالدين الصامدين... ولكن استعصى عليّ الشعر في رثائك وتأينك، فقد أحرس عطفك الجلل الشعر، وقد نطق الثر بنبرات من الأهات الحزينة ولواعج من الأشجان العميقة، وهو بصورّ لمحات حياتك الحرّة الرائدة، ويصطلي بحرارة رزتك العظيم، ولم يعني هذا وذاك أن أدرسك موضوعياً، لأهزّ بك الجيل الحاضر والشباب المعاصر، فقد أفنيت عمرك بسبيلهم، وقدمت الكثير لانقاذهم، صابراً محتسباً، فما ضاع يومٌ من عمرك، ولا عبا نورٌ من فضلك، إن الله لا يضيع أجر المحسنين.

وينبغي أن أشير إلى «مصطلح الموضوعية» الذي درست فيه حياة السيد

الشيرازي، فهي ذات بعدين:

الأول: ويراد بها ما يقابل السطحية في البحث العلمي، فكل بحث يعتمد أصولاً منهجية، ويخرج بنتائج منطقية فهو بحث موضوعي معرّز بالوثائق التاريخية.

الثاني: قد يراد بالموضوعية ما يقابل الذاتية في الاندفاع اللاشعوري وراء الهوى والعاطفة، وهو نهج ابتعد عنا وابتعدنا عنه، فاللحاظ الموضوعي المستند إلى الوقائع الدقيقة المسلّمة كان مضمار هذا البحث، ولا دوافع أخرى في حديثه، ولا خلقية له إلا بيان ما كان، بلى وراءه قوله تعالى بالنسبة للنفس الإنسانية ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ والإحياء المعنوي لذكرى علماء الأمة من أبرز مصاديق الآية.



الشيخ محمد رضا الشيببي . وطنياً

الولادة والنشأة الحوزوية:

الشيخ محمد رضا بن الشيخ جواد بن الشيخ محمد بن شبيب بن إبراهيم بن صقر النحفي الشيببي.

ولد في النحف الأشرف في السادس من شهر رمضان المبارك عام ١٣٠٦هـ - ١٨٨٨م.

نشأ في رحاب عاصمة العلم والأدب النحف الأشرف، في ظل رعاية أبوية رائدة لوالده الشيخ جواد الشيببي، حارس اللغة الفصحى في عصره، وبلبل العراق الغريد، وشاعر الأمة العربية جمعاء.

كان لهذا الأب الإنساني فضل العناية بهذا الولد البارّ في مجال التحصيل المعرفي الجاد، وعوالم الشعر العربي الأصيل، وهو -بعد- رجل موسوعي المواهب، متعدد الجوانب علماً وأديباً ولغةً وفقهاً وأصولاً، وهو من أبرز أقرانه في مجالي النثر والشعر، ومن ألمع أئمة البيان العربي مقالةً، ورسالةً، ومقامةً، وبنداً، وترسلاً بلاغياً، وهو من أكثر الناس صلة بطبقات المجتمع العراقي العلمية والأدبية والسياسية والاجتماعية، وفي أقرب الأواصر من أعرق الأسر العربية في النحف الأشرف، وبأفضل منزلة لدى الفقهاء والعلماء والشعراء حتى سُمّي «شيخ الأدب» ولدى وفاته عام ١٣٦٣هـ = ١٩٤٤م أطلق عليه «فقيه العلم والأدب».

نشأ ولده الشيخ محمد رضا الشبيبي في دوحه هذا المجد الوارف، وفي ذروة هذا الشرف الباذخ، نشأة تتسم بالأصالة، واحتفظ لنفسه سيلاً مهيباً منذ شبابه المبكر؛ فجمع بين فضيلتي العلم والأدب، وأتقن دروس الحوزة العلمية في النجف اتقاناً كبيراً، درس النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والفقهاء الفتاوى وعلم الأصول والحكمة والفلسفة لدى أساتذة الحوزة العلمية، ولازم درس السطوح العالية لدى الإمام السيد حسين الحمصاني (ت ١٣٧٩هـ) وأكمل تحصيله العلمي الدقيق في «البحث العالي الخارج» لدى أستاذ الألكبر زعيم الأحرار الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني (ت ١٣٢٩هـ) صاحب كتاب «كفاية الأصول».

وأنت ترى الشبيبي هنا ذلك الطالب المجدّ في طلب العلم منذ مبادئه حتى أرقى مراتبه في الدراسات العليا، وقد لاحظته لدى ملازمته له في عقد من الزمن خبيراً وضياعاً في مفردات علوم الحوزة، يناقش ويناظر ويحاوّر، ويقرر ويرثي ويختار، وما زالت ذكريات إفاضاته - وقد مضى على فقده أربعون عاماً - ترنّ في مسامعي، وتمتلك عليّ مشاعري لحسن أدائه ودقة مطالبه، وهو يزجها بروحه المرحّة، ويفيضها بلسانه العذب وصوته الجريء.

الشبيبي وطنياً في شعره:

مما امتازت به بيعة النجف الأشرف منذ تأسيسها قبل اثني عشر قرناً حتى اليوم، أن أغلب طلاب حوزتها العلمية يقضون الشعر منذ عهد الصبا، ويتبارى معهم العلم والشعر في مضمار واحد، وقد يجلي الطالب الحوزوي في أحدهما، وقد يجمع بين الأمرين.

وكان الشبيبي قد بدأ حياته منذ احتفظ عارضاه شاعراً جزلاً مبدعاً، حتى إذا بلغ العشرين من عمره، قال عنه الشيخ علي كاشف الغطاء والدة الإمام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ما نصّه: «شابٌ أديب وشاعر لبيب،

قد حصل على حملة من العلوم العربية، حسن النظم جيده، قوي النثر أيده، شعره يفوق الشعري العبور، ذو ذهن وقاد وفكر نقاد، ولم يزل ينظم سلك اللآلي في سائر الأيام والليالي، فهو بربعان الصبا، وعنقوان الشباب، ونزوة التصابي، بين أهل الفضل والآداب»^(١).

ففي السابعة عشرة من عمره رثى الفقيه المقدس الشيخ محمد طه آل نجف (ت ١٣٢٣هـ) بقصيدتين، مطلع الأولى:

لِنَعِيكَ قَدْ طَالَ الْحَيْنُ الْمَرْجِعُ غداة نعي الناعون فيك فاسمعوا
ومطلع الثانية:

صفائح العلم قد فلتت مضاربها وقوضت بعد يانيتها مضاربها^(٢)

وفي الثالثة والعشرين من عمره عدته محافل النجف شاعراً كبيراً، إذ رثى العالم الشاعر السيد باقر الموسوي الهندي (ت ١/ محرم/ ١٣٢٩هـ) برائعة مطلعها:

أنى الأفق مريباً.. فقبل هلاله ولو قيل قوس.. صدفته نباله^(٣)

وفي العام نفسه رثى أستاذه المرجع الأعلى الشيخ محمد كاظم الخراساني (ت ١٣٢٩هـ) وقد استنفر المسلمين للجهاد وفي احتلال روسيا لأجزاء من إيران، فتوفي ليلة عزمه على السفر، مسموماً في أرجح الأحوال، ومطلع القصيدة:

الدين فيك المعزى لو توى فينا لكننا قد فقدنا بعدك الدين^(٤)

وكانت هذه القصيدة بأفكارها التحررية بداية زعامة الشيبلي للشعر العراقي يشاركه فيها الأستاذ معروف الرصافي.

(١) الحصون المنيعه ٩/ ١٤٩ / مخطوط في مكتبة كاشف الغطاء.

(٢) محمد جمال الهاشمي / المجموعة الشعرية الخطية / بحوزة ابنائه.

(٣) المصدر السابق.

(٤) محمد رضا الشيبلي / الديوان / ١٨٨-١٨٩.

وطبيعي أن هذا الشعر جاء معيّراً عن بيئته باستعمال الجناس والتشبيه والمبالغة، إلا أنه بعد هذا التاريخ بأربع سنوات كان قد تطور شعره، وتناقضه الصحف والمجلات في البلدان العربية، وعدّ من أبرز شعراء العربية، سيما حين رثى بطل العلم والجهاد والسيد محمد سعيد الجبوري برائعه التي مطلعها:

عمّ الثغورَ الموحشاتِ ظلامٌ ودجتْ لأنك ثغرها البسامُ

وقد رثى الأستاذ الشيب شهداء العروبة الذين أعدمهم جمال باشا السفاح في

«عاليه» ببلنّان، بقصيدة عصماء كانت من أهم أسباب شهرته عند العرب، وهي

رثاء الشهداء^(١):

وقد أقيمت في حفلة تأبين الشهداء التي أقيمت في دمشق سنة ١٣٣٩هـ

= ١٩٢٠م وكانت أعظم حفلة عامة أقيمت تذكّراً لشهداء عسف السياسة

التركية من العرب وذلك خلال الحرب العامة الماضية؛ وقد ألقاها أديب

مشهور من أدباء الشام على الجمهور المختشد لهذه الغاية في ساحة المرجة:

مِمَّا يَرُدُّ لِعَرَبِ عِلْيَاءِهَا	ذِكْرِي الشَّامِ وَأَهْلِهَا شُهَدَاءِهَا
يَا سَادَةَ أَحْصَيْتُمْ فَصَلِّتُمْ	لَكُمْ مَزَايَا مَا أَرَى إِحْصَاءَهَا
مَا نَصَبُ أَعْوَادٍ لَكُمْ فِي جَلْبِ	ثُمَّ يَثِينُ، أَلَسْتُمْ خُطْبَاءَهَا؟
رَفَعُوكُمْ عَنْ مُسْتَوَى الْأَرْضِ الَّتِي	أَصْبَحْتُمْ تَتَوَطَّنُونَ سَمَاءَهَا
مَاعَذْرُ هَذِي الْأَرْضِ فِي أَحْدَابِكُمْ	وَقُبُورِكُمْ إِلَّا تَكُونُ فِضَاءَهَا؟
يَكْفِي السَّعَادَةَ وَالشَّهَادَةَ أَلَهَا	خُطِيتْ فَكُنْتُمْ أَنْتُمْ أَكْفَاءَهَا
مِنْ حَيْثُ سَاءَ مُصَابِكُمْ أَنْقَذْتُمْ	فِيهِ الْبِلَادَ فَسَرَّهَا مَا سَاءَهَا
إِنْ غَمَّ مَا كَابِدْتُمُوهُ فَعَلَّامَا	فَرَجَّحْتُمْ وَكَشَفْتُمْ غَمَاءَهَا
هَذِي الدِّيَارُ سَرَرْتُمْ أَمْوَانَهَا	بِجِهَادِكُمْ، وَحَرَسْتُمْ أَحْيَاءَهَا
قَالُوا: تَكُونُ فِدَاءَهُمْ أَوْطَانَهُمْ	فَتَحَاوِثُوا: كَلَّا تَكُونُ فِدَاءَهَا

(١) ظ: ديوان الشيببي / ١٨٣-١٨٤.

طَلِبَ الْفِدَاءَ فَقَدِمْتَ أَتَاءَهَا؟
هَذِي الْجِدَاوِلَ دَمَعَهَا لَا مَاءَهَا
لِمَا أَتَاهُ، وَدِجْلَةَ زَوْرَاءَهَا
فِي «طُورِهَا» وَتَنَاوَلْتَ «سِيْنَاءَهَا»
لَوْ كَانَ يَشْهَدُ مَا جَرَى أَتْنَاءَهَا
لَوْ كَانَ يَذْرِي مَا نُجِرُ وَرَاءَهَا
لَقَيْتَ بِذَلِكَ الْقَضَاءِ قَضَاءَهَا
مِمَّا جَنَّتْهُ فَقَطَّعْتَ أَعْضَاءَهَا
تَجِدْكُمْ بِوَلَائِكُمْ أَعْدَاءَهَا
مِنْ قَبْلِ تَشْخِصِ الْمَدَاوِي دَاءَهَا
حَزْنُ النَّفْسِ الشَّمُّ زَادَ مَضَاءَهَا
دَخَلَ الْأَسَى أَعْمَاقَهَا فَأَضَاءَهَا

عَاشَتْ دِمَشْقُ، فَايُّ أُمَّ قَبْلَهَا
تُكَيِّكُمْ أَرْضُ الشَّامِ وَقَدْ أَرَى
النَّيْلُ ضَعْفَ يَوْمِكُمْ قُنْطَاطَهُ
يَا نَكْبَةَ دُونَ الْجَزِيرَةِ أَثَرَتْ
عَظُمْتَ عَلَى النَّاسِ فَكَيْفَ بِحَالِهِ
مَا كَانَ يَفْعَلُهَا الَّذِي اسْتَشْفَى بِكُمْ
الْعُصْبَةُ الْقَاضِي عَلَيْكُمْ عَسْفُهَا
لَمْ يَكْفِهَا تَقْطِيعُهَا أَرْحَامَهَا
صِدْقُ الْوَلَاءِ مَحَضُّمُوهُ عُصْبَةُ
عَجَلَتْ عَلَى صِفَةِ الْعِلَاجِ بِقَتْلِكُمْ
يَا أُمَّي لَانْحَزَنِي أَوْ فَاخَزَنِي
إِنَّ الضَّمَائِرَ وَالْقُلُوبَ إِذَا دَخَتْ

من أبرز شعره السياسي والوطني ثلاث قصائد نال بها شهرة كبيرة، ذاع

صيته فيها بالآفاق، وهي على التوالي:

الشرق الناهض^(١):

اتفقت إثر ثورة الدروز على الحكم الفرنسي سنة ١٣٣٦هـ - ١٩١٨م
تَفِدَ الصَّبْرُ فَهَبَتْ فَرَعَا
بَعَثَ اللَّهُ لَهَا رَاقِدَةً
وَدَعَا لِلذُّوْدِ عَنْ أَحْسَابِهَا
أُمَّةَ خَرَسَاءَ كَضْمِ وَشِي
أَزْمَعْتَ أَلَا يَرَاهَا حَمَلًا
وَأَبَى السَّيْفُ لَهَا أَنْ تُضْرَعَا
مِنْ عَصُورٍ مَا أَقْضَى الْمَضْحَعَا
شَرَفُ الْعِرْقِ فَلَبَّتْ إِذْ دَعَا
بِنَوَادِيهَا وَكَمْ سَاعِ سَعَى
غَاصِبٌ صَالَ عَلَيْهَا سَبْعَا

(١) ديوان الشيببي / ٤٤.

تَبَدَّتْ ذَاكَ التُّقَى وَالْوَرَعَا
 حَذَّةُ المَانُورِ حَتَّى قَطَعَا
 دَاحِضُ الحُجَّةِ سَمِجُ المَدْعَى
 بَعْدَ مَا اسْتَنَّ ذُلُولاً طَيَعَا
 رَفَا السَّاسَةَ مِنْهُ ائْتَمَا
 مَلَأْنَهَا مِنْ فَسَادِ رُقَعَا
 قَادَتَا الضَّعْفُ فَصِيرَتَا تَبَعَا
 غَبَرُوا لَا يَسْتَهْدُونَ الجُمَعَا
 ضَرَّهُمْ مَا فَعَلُوا، أَمْ نَفَعَا
 لَمْ تَجِدْهُمْ شِيعَةً بَلْ شِيعَا
 لَا تَعُودِي سَنَدًا مُتَقَطِعَا

قَتَلُونَا جَاهِدِيهِمْ أَجْمَعَا
 وَأَعْيِدِي (مَالِكَا) (والتَّحَمَا)
 هَدُّوهُ وَاصْنَعِي مَا صَنَعَا
 مِنْ سَقَامٍ، وَأَقَامُوا البَيْعَا
 مَوْتَهَا فِي الأَرْضِ أَحْيَا البِدْعَا
 فَأَنَارَ الشَّرْقَ وَالغَرْبَ مَعَا
 مِنْ (بَنِي الأَطْرَشِ) حَتَّى اسْتَمَعَا
 هَجَمَاتُ فَرَّقَتْ مَا جَمَعَا
 مَرَّةً أُخْرَى (تَسْوِخٌ) (تُبْعَا)؟

وَأَثَقَتْ حِيناً فَلَمَّا عَقَلَتْ
 أَشْرَعَتْ عَامِلَهَا فَاتَّهَمُوا
 وَأَذَاعَهَا فَتَفَّتْ حُجَّتَهُ
 جَمَحَ الشَّرْقُ عَلَى رَابِضِهِ
 فِي جِهَاتِ الأَرْضِ خَرَّقَ كَلَمَا
 جَادَبَتْهَا بُرْدَةُ المُلْكِ يَدُ
 كَلَمَا قَامَ إِمَامٌ حَائِرُ
 شَبَّتْ الشَّمْلَ جَمِيعاً نَفَرُ
 لَا يَسْأَلُونَ إِذَا مَا قُلُّدُوا
 وَإِذَا مَا بَحُثُوا مُشْكِلَةً
 صِيلَةَ الشَّرْقِيِّ بِالمَاضِي اسْلَمِي

جَاهِدِي يَا أُمَّمَ الشَّرْقِ الأَلَى
 جَدِّي عَهْدَ (عَلِيٍّ) غَازِيَا
 وَاذْكُرِي مَا فَعَلَ الغَرْبُ بَعْنُ
 رَفَعُوا الصُّلْبَانَ لَا شَاقِيَةَ
 وَأَمَاتُوا سُنَنًا وَاضِيحَةَ
 وَتَبَّ الرَّيْفُ مِنَ الغَرْبِ بِهِمْ
 وَتَعَالَى فِي العِرَاقَيْنِ صَدَى
 جَمَعَ العِلْجُ لَهُمْ فَاتَّبَعَتْ
 (أَتَسْوِخٌ) هَذِهِ، أَمْ أُنَجِّبَتْ

ما أضاعوا رباً ماضٍ رجعاً
 أو بُدأةً لتخري النجعا
 سالفاتٍ، ورعاها ما رعى
 ذلك المصطاف والمرتقبا
 أخلف التوء المرجى «جعاً»
 ونحا «بصري» ورؤى «أذرعاً»
 جزأوها لیسودا تبعاً
 دمهها سال عليه دُفعا
 حل في حُسباننا أن ثَقَعَا
 جثّةً بالنار عادت بَلَقَعَا
 عبقري وأفاد المتعاً
 فيه أيدي العاينين الخلعاً
 أيها الضيقان زدتم حَشَعَا
 جاوز الحد فأضحى طبعاً
 أنفس الأحرار ميثاً سيلعاً

ذَهَبَتْ أَيامُهُمْ فَاسْتَرْجَعُوا
 حَضَرَ تَفْتَجِرُ الْمُدُنَ بِنَا
 لَضَرَ اللَّهُ عُهُوداً (بالجني)
 وَسَقَى ثَمَّ يَلِي «عَامِلَةٌ»
 لَا أَغْبُ الْعَيْثُ «صَيِّدًا» وَلَا
 بَلُ «جَمْعًا»، وَتَوَخَّى «حَلِيًا»
 مُدُنٌ لَوْ تُرِكَتْ لِأُصَلَّتْ
 دَفَعُوا «الشَّامَ» عَنِ الْحَقِّ الَّذِي
 بِالْهَاءِ وَاقِعَةٌ فِي «جَلِيٍّ»
 جَثَّةُ الْأَرْضِ وَمَا أَوْحَشَهَا
 مَنَعَ اللَّذَاتِ مِنْهَا بَلَدٌ
 يَا لَهُ حَيًّا لِقَاحًا لَعِيَتْ
 مَالِكُمْ إِنْ أَحْسَنَ الشَّرْقُ قِرِيَّ
 لَا تَقُولُوا: طَمَعٌ، دَاؤُكُمْ
 لَا رِبْحَ لَكُمْ مِنْ بَحَارٍ عَرَضُوا

رجال الغد^(١)؛

مما اتفق له سنة ١٣٣٩هـ = ١٩٢٠ وذلك في مدينة صيدا وهي من
 القصائد السائرة؛ وقد نشرها لأول مرة مجلة (العرفان) ثم صحف الشام في
 التاريخ المذكور.

يا شباب اليوم أشياخ الغد
 لينالوا غاية المجهد

أنتم متقنتم بالسؤدد
 يا شباباً درسوا فاجتهدوا

(١) ديوان الشيببي / ٨١

وَلَقَدْ أَنْ نَجَازُ الْمَوْعِدِ
لِعُصُورِ مُقْبَلَاتِ جُدُدِ
تَرَعَاتِ الرَّأْيِ وَالْمَعْتَقِدِ
فُرْقَةً، هَاكُمْ عَلَى هَذَا يَدِي
هَمَّكُمْ فِي حَلِّ تِلْكَ الْعُقَدِ
لُصَّبَ عَيْنَيْهَا حَيَاةَ الْأَبَدِ
ذَاهِبًا بِجَمَادِ مَالَمِ تَجِدِ

وَعَدَ اللَّهُ بِكُمْ أَوْطَانَكُمْ
أَنْتُمْ جَيْلٌ جَدِيدٌ خُلِقُوا
كُونُوا الْوَحْدَةَ لَا تَفْسَحْهَا
أَنَا بَايَعْتُ عَلَى أَنْ لَا أَرَى
عُقْدَ الْعَالَمِ شَيْئًا فَاخْضَرُوا
لِيَتَكُنْ أَمَالِكُمْ وَأَضْرَعَةً
لِيَتَبَشَّرَ أَفْكَارُكُمْ مُبْدِعَةً

غَيْرُ مَيَسُورٍ مَنَالُ الْفَرْقِدِ
لَأَعَادِيكُمْ مَكَانَ السَّيِّدِ
بَعْدَ عَهْدِ اللَّهِ عَهْدَ الْبَلَدِ
يَدِي مُفْرَعَةً فِي الزُّرُودِ
عَيْتَ الْأَغْدَاءِ غَابَ الْأَسَدِ
فَاقَ دَاءُ الرُّوحِ دَاءَ الْجَسَدِ
هَذِهِ الْعُقْبَى الَّتِي لَمْ تُحْمَدِ
بِتَأْدَبِ حَائِرٍ لَمْ يَهْتَدِ
عَدَدُ الْعِلْمِ وَعِلْمُ الْعَدَدِ
لَمْ تُفِيدَكُمْ دَرَجَاتُ الرُّصَدِ
ذَهَبَ الْعِلْمُ ذَهَابَ الزُّبْدِ
غَيْرَ أَخْلَاقٍ هِيَ الرُّوْضُ الشُّبْدِي

لَا يَنَالُ الضَّمِيمُ بِنُكْمٍ جَانِبًا
أَوْ يُخْلَوْنَ - وَأَنْتُمْ سَادَةٌ
الْوَفَا حِفْظُكُمْ أَوْ رَعِيكُمْ
لَا تُمْدُوهَا بِدَأْ وَاهِيَةً
تُشْبِهُ الْأَرْضَ الَّتِي تُحْمَلُهَا
دَبَّرُوا الْأَرْوَاحَ فِي أَخْسَادِهَا
إِنَّ عُقْبَى الْعِلْمِ مِنْ غَيْرِ هُدَى
مَنْ أَنَا بِالْهُدَى مِنْ حَيْثُ لَمْ
غَيْرُ مُخَدٍ - إِنْ خَهَلْتُمْ قَدَرَكُمْ -
وَإِذَا لَمْ تُرْضُوا أَحْوَالَكُمْ
وَإِذَا لَمْ تَسْتَقِيمْ أَخْلَاقَكُمْ
عَدَّ عَنْكَ الرُّوْضُ لَا أُرْتَادُ لِي

نَشَأَتْ فِي ظِلِّ هَذَا الْمَعْهَدِ
غَيْرُ مَنْ عَاشَ فَلَمْ يَسْتَفِيدِ
أَهْمَلَ التَّعْلِيمَ عِنْدَ الْوَالِدِ
كُلُّ طِفْلٍ بِأَبِيهِ يَفْتَدِي

بُورِ كُنْتُ نَاشِئَةً مَيْمُونَةً
مَنْ حَتَّى مِنْ عِلْمِهِ فَايْدَةٌ
مَا يُرْحَى لَيْتَ شِعْرِي وَالِدٌ
مِيرَةُ الْأَبَاءِ فِينَا قُدْوَةٌ

إِنْ هَدِي قَطَعُ مِنْ كَبِدِي

لَيْسَ هَذَا الشَّعْرُ مَا تُرْوُونَهُ

باطلُ الحمدِ ومكذوبُ الثنا^(١):

باطِلُ الْحَمْدِ، وَمَكْذُوبُ الثَّنَا
وَقَبِيحُ صَفِيرَاهُ حَسَنًا
أَيُّهَا الْمُصْلِحُ، أَلِدَاءُ هُنَا
كُلُّنَا يَطْلُبُ ذَا حَتَّى أَنَا
أَرْبَعُ بِالْأَمْسِ كَانَتْ وَمِنَا
عَصْرَ الْقَابِ كِبَارٍ وَكُنِّي
سَمِعُوا عَنْهُمْ وَغَضُّوا الْأَعْيُنَا
أَذْنِي عَيْنًا وَعَيْنِي أذْنَا
حِينَ نَحْنِي، ثُمَّ تَدْعُوا: مَنْ حَتَّى؟
وَبَلَّغْنَاهَا وَلَكِنْ بِأَلْتِي
لَمْ يَلُومُونَا وَلَا مَوَا الرَّمَا
شَرُّوا الْعَارَ وَبَاعُوا الْوَطْنَا
هَذِهِ الدُّنْيَا لَقُلْتِ نَمْنَا
جُهْلَاهُ يَعْجِدُونَ الْوَتْنَا

فِتْنَةُ النَّاسِ - وَقِينَا الْفِتْنَا -
رُبَّ جَهَنَّمَ حَوْلَاهُ قَمْرًا
أَيُّهَا الْمُصْلِحُ مِنْ أَخْلَاقِنَا
كُلُّنَا يَطْلُبُ مَا لَيْسَ لَهُ
رَبْمَا تُعْجِبُنَا مُخْضِرَةٌ
لَمْ تَزَلْ - وَيَحْكُ يَا عَصْرُ أَيْقُ -
حَكَمَ النَّاسُ عَلَى النَّاسِ بِمَا
فَامْتَحَلَتْ - وَأَنَا مِنْ بَعْضِهِمْ -
إِنَّا نَحْنِي عَلَى أَنْفُسِنَا
يَلْغُ النَّاسُ الْأَمَانِي حَقَّةً
أَخْطَأَ الْحَقُّ فَرِيْقُ بَائِسُ
خَسِرَتْ صَفَقَتُكُمْ مِنْ مَعْشَرِ
أَرْغَصُوهُ وَلَوْ اعْتَاضُوا بِهِ
بِأَعْيَادِ الْمَالِ عَمْرٌ مِنْكُمْ

(١) ديوان الشيباني / ١٠٥.

إِنِّي ذَاكَ الْعِرَاقِيَّ الَّذِي ذَكَرَ (الشَّامَ) وَنَاحِي (الْيَمَنَا)
إِنِّي أَعْتَدُ (نَحْدَا) رَوْضَتِي وَأَرَى حِثَّةَ عَدْنِي (عَدْنَا)

أَيُّهَا الْجَيْلُ اكْتَشِفْ لِي حَاضِرًا كَلَّمَا خَرَّبَ مَاضِيكَ بَنِي
يَنْهَضُ الشَّعْبُ قِيَمَتِي قَدُمًا لَوْ مَشَى الدَّهْرُ إِلَيَّ مَا انْتَشَى
غَيْرُ رَاقِيِ النَّفْسِ وَالرُّوحِ قَتَى وَضَعِ الرُّوحَ وَرَقَى الْبَدْنَا
حَالَةَ النَّفْسِ الَّتِي تُسْعِدُهَا وَتُرِيهَا كُلَّ صَغْبٍ هَيَّنَا
فَفَقِيرٌ مَنْ غَنَاهُ طَمَعٌ وَغَنِيٌّ مَنْ نَرَى الْفَقْرَ غَنَى

ولست بهذا البحث معنياً بشعره الوطني وحده، فهناك جوانب مشرقة من تضاله الوطني في أبعاد متعددة، إلا أن ما أوردناه من شعره هنا، وقد يرد في مطاوي البحث، دليل الشعور الوطني الفياض، والحسن الاستقلالي لبلاد العرب.

الشبيبي بين الأتراك والانكليز:

كان الشبيبي لدى إعلان الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م-١٣٣٣هـ ضابط احتياط في الجيش العراقي العثماني كما حدثني بذلك، وقد نظم معاناته بقصيدته (حلوان بعد العراق) وكان في بعثة عسكرية على حدود العراق الشرقية^(١).

وقصيدته (طلائع الحرب العامة) وهو ضابط مثقف، تُوِّقِعَ لها مصير الدولة العثمانية، ووصف بعض أنباء الحرب العالمية، وقال في مقدمتها: «نظمت في مدينة بادوريا بالعراق في ربيع الثاني سنة ١٣٣٣هـ وفق شياط سنة ١٩١٤م، وكان في بعثة من المجاهدين العراقيين»^(٢).

(١) محمد رضا الشبيبي / ديوان الشبيبي / ١٢ / نشر جمعية الرابطة العلمية في النجف الأشرف / دار النشر والتأليف والترجمة / القاهرة / ١٩٤٠م.

(٢) ديوان الشبيبي نفسه / ١٥.

وكان الشيبلي قد صوّر مآسي الحرب العالمية بمجموعة من قصائده الرائعة، تناول فيها ما كان بين العثمانيين والانكليز من الصراع، وما نشب بين آل عثمان وإيطاليا من الحرب عام ١٩١٢م، وصوّر الحالة النفسية التي كابدها العراقيون وهو منهم، وقد زجّوا في حروب لا طائل معها^(١).

وقد عاش تعقيدات هذه الحروب، وحينما أُنهي خدمة الاحتياط عسكرياً، عاد إلى وضعه الأول، فخلع الملابس العسكرية وعاد إلى العمة شعار الأئمة كما يقول.

أما في جهاد العراقيين للانكليز يوم الشعبية، فقد كان أحد الأعلام، إذ ارتبط، مضافاً لموقعه الديني برئاسة أركان الجيش العثماني بقيادة «أمير الآلاي سليمان عسكري بك» منذ أوائل صفر/١٣٣٣هـ - ١٩١٤م حتى انتحار هذا القائد بعد هزيمة الجيش العثماني صباح الأربعاء ٢٩/جمادى الأولى/١٣٣٣هـ - ١٤/نيسان/١٩١٥م، وقد ترك نصف الجيش العثماني بين قتل وحريق أسير وفقيد كما يقول الشيبلي^(٢).

وكان الشيبلي رحمه الله، يصف انتحار هذا القائد -مشاهدة- لحضار مجلسه الأسبوعي صباح كل جمعة، وسمعت ذلك منه، قال: «بينما كنا نسير مع سليمان عسكري بك، وهو في عربته، إذ جاء أحد الضباط وأبلغه أن (الآلاي علي بك) سلّم للعدو، فارتبك سليمان عسكري، وسحب الأحرام الذي على رجليه (وكان جريحاً) وغطّى رأسه، ومن تحته سحب المسدس دون أن تعلم، وصوبه على رأسه، وأطلق منه طلقة أصابته برأسه، وأن آلة فمات.»

وحينما انتحر قائد الجيش العثماني التحق الشيبلي فوراً بالسيد الجبوري، فكانا في موقع واحد، حتى النهاية بوفاة السيد الجبوري.

(١) ديوان الشيبلي نفسه / ٢١ وسواها.

(٢) ظ: ديوان الشيبلي / ١٨.

وحدث الشبيبي مع الإنكليز طويل جداً، فقد رافق عقود حياته منذ أيام الجهاد في ١٩١٤م حتى ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨م، وستناول الآفاق البعيدة في ظلّ كفاحه للإنكليز وجوداً واستعماراً ومستشارين، واصطدامه مع رموزهم وعماليتهم ووكالاتهم فيما يستقّى بالعهد الوطني أو الحكم الوطني، وباعتبار الشبيبي من ألمع مؤسسي الدولة العراقية فقد برز نضاله الوطني في هذا المضمار بعدة محاور سنأتي عليها، وهنا أنطلق مع القارئ بصفة معاناة الشبيبي مع الأتراك، وهو رجل عربي مسلم، يعاتب الأتراك حيناً، ويدعمهم بالجهاد حيناً آخر، ولكنه يسأم الحياة في ظلّ حكم متعطرس جاهل، تحكم في رقاب الناس ودمائهم باسم الإسلام، ولا يمثل العثمانيون الإسلام، وينطلق بتصوير مشاعره وأحاسيسه وعواطفه في هذا المناخ بقصيدته «ثورة على الأتراك» وذلك لدى ثورة النحف على العثمانيين بعد مجزرتي كربلاء الأولى في ١٣٣٣هـ والثانية في ١٣٣٤هـ وكارثة عاكف بك في الحلة في شوال ١٣٣٣هـ، وحملة قتال النحف في رجب ١٣٣٣هـ مما ذكره في مقدمة القصيدة، ومما جاء في هذه القصيدة من الأسباب، وأنا أقدم القصيدة والمقدمة كما كتبها الشبيبي نفسه:

ثورة على الأتراك^(١):

أو شكوى وعتاب

من أهمّ حوادث العراق الأخيرة ثورة النحفين على العثمانيين التي انتهت بطردهم من النحف، وبسقوط هيبتهم وضعف شأنهم في عامة البلاد، لاسيّما بينى الفرات، ولم يقتصر تأثيرها من هذا القبيل على القطر العراقيّ حتى تجاوز إلى غيره من الأقطار، فقد انتشرت في النحف في آخريات جمادى الثانية سنة ١٣٣٣هـ ١٩١٥م أو لمرور شهر على واقعة الشعبية رِقاعٌ تحضّ عل مناهضة الحكومة العثمانية، فاهتمّ لها أولياء الأمور

(١) ديوان الشبيبي / ٢٦-٢٩.

في بغداد، وجرّدوا إلى النحف نعتاً مؤلفاً من ألف من المشاة والفُرسان بقيادة (عزّت بك) ففرّ المشاغبيون عند وصوله إلى السواد، وهم عصابة يتألف معظمها من البلط (الفارين من الجندية) وفي الهزيع الأخير من ليلة السبت ٨/ رجب سنة ١٣٣٣هـ - ١٩١٥م عادوا فنفّذوا إلى البلدة من السور، وانضمّ إليهم طائفة من البلديين، فنشّب في الصباح الثاني بينهم وبين الحامية العثمانية قتالاً شديداً دام إلى عصر يوم الاثنين ١٠/ رجب سنة ١٣٣٣م. وفيه أذعنت الحامية وجرّدت من السلاح بعد فقدان جماعة منها فيهم بعض الضباط وطلب القائد والقائمقام (ميج بك) والمستخدمون الأمان، فأخذهم لهم، وأخرجهم به عازن المشهد وبعض الأمان والصدور، ثم أضرمت النار في دُور الحكومة، ونُهبت أمتعة المستخدمين، وتسلم النحفيون منذ ذلك اليوم أزمة الحكم في البلدة، وما كفى ذلك حتى صاروا يعملون على تفويض أركان الحكومة العثمانية من العراق، فكان لهم ضلّع في أكثر الحوادث التي حدثت بعد ذلك، وأريدَ لها طرد الأتراك كحادثة كَرَبَلا الأولى في منتصف شعبان سنة ١٣٣٣هـ - ١٩١٥م وكارثة الحيلة في منتصف شوال سنة ١٣٣٣هـ - وحادثة كَرَبَلا الثانية في ٧/ رجب ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م هلّك فيها خلقٌ كثير، وأشرفت البلدة على الخراب، إلى غير ذلك وما زال النحفيون يحكمون أنفسهم بأنفسهم سنتين كاملتين، حتى حاولوا أخيراً ألاّ يفسحوا بينهم مجالاً للإنكليز، كما اتفق لهم مع الأتراك، فقاموا بشورهم الخطيرة على الإنكليز التي اقتُحقت بقتل (الكابتن مارشل) حاكم المدينة صباح الثلاثاء ٦/ جمادى الثانية سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م فحُوصرت النحف خمسة وأربعين يوماً بجيش إنكليزي جرّار يُبَدل إطلاق النار بينه وبين النحفيين أكثر تلك الأيام، إلى أن تمّ للإنكليز إمساك السواد الأعظم من القوم، وعوقب نحو مائتين منهم بالشنق والثقي والتغريب.

لا الجُنُنُ نَارَ فَأَطْعَانَا وَلَا الْجَحْلُ
لو كان ما بهم جُبناً لَمَا انْتَقَمُوا
السَّيْفُ قُرْبَ مَنَا كُلِّ قَاصِيَةٍ
مَاذَا تُؤْمَلُ فِي إِذْرَاكِ غَائِبِنَا
يَا مَنْ يُعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ تُؤْتِبَهُمْ
حَفَوْتُمُونَا وَقُلْتُمْ: نَحْنُ سَاسَتُكُمْ
كَمْ تُبْدُونَ لَنَا ذُبَاباً فَتُذِيرُكُمْ
أَمَا صَفَحْنَا عَنِ الْمَاضِي لِأَعْيُنِكُمْ؟
أَمَا اسْتُحْيَيْتُمْ كَمَا شِئْتُمْ كِتَابِنَا؟
أَمَا مَشَتْ تَلْرُغُ الدُّنْيَا؟ أَمَا انْطَفَأَتْ
أَمَا أَطَاعُوا؟ أَمَا بَرُّوا؟ أَمَا عَطَفُوا؟
بِاللَّهِ لَا تُخْرَحُوا أَكْبَادَنَا وَدَعُّوا
بِمَا نَحَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ حِيلَتْكُمْ
قَائِلَتُمْ غَيْرَ غَلَامِينَ أَنْكُمْ
هَذِي الْمَوَاقِفُ مَا تُنْفِكُ ظَاهِرَةَ
وَقَائِعُ مَا تُزَالُ الدَّهْرَ سَائِرَةَ
أَضَعْتُمْ الْفُرْصَةَ الْعُظْمَى الَّتِي سَنَحَتْ
فَيَضْتُمُّ لِحِفَاطِ الْمَلِكِ طَائِفَةَ
إِلَى الدَّفَاعِ دَعَوْتُمْ جَاهِلِينَ بِهِ
عَلِمْتُمْ حِينَ عَلِمْتُمْ حَوَارِحَهُمْ
لَأَيِّ شَيْءٍ تَرَاهُمْ يُؤَيِّرُونَكُمْ
لَأَتَأْمَلُوا خَفَقَانَا مِنْ قُلُوبِهِمْ

التَّائِبُ الْحَقْدُ بِالْأَقْوَامِ وَالذَّخْلُ
وَفِي طَرِيقِ بُلُوغِ النُّقْمَةِ الْأَجَلُ
لَا التَّنَطُّقُ الْفَصْلُ مِنْ قَوْمٍ وَلَا الْجَدَلُ
مِنْ السِّيَاسَةِ؟ كَلَّا إِنَّهَا حَيْلُ
بِي حَيْثُ لَا يَنْفَعُ التَّائِبُ وَالْعَدْلُ
مُنَى مَطِيئَتِهَا الْإِخْفَاقُ وَالْفَشْلُ
لَقَدْ نَقَطَعْتَ الْأَعْدَارُ وَالْعِلْلُ
أَمَا أُدْبِلتَ لَكُمْ أَيَّامَنَا الْأَوَّلُ؟
حَتَّى تَقَابِضَ مِنْهَا السَّهْلُ وَالْجَبَلُ
بِهَا الْمُنَابِئَةُ وَالْبَيْطَانُ وَالسَّبِيلُ؟
أَمَا احْتَفَلُوا بِمَوَالِيهِمْ؟ أَمَا احْتَفَلُوا؟
جِرَاحُ (بُرْقَةٌ) وَ(الْبُلْقَانُ) تُنْدِيلُ
لَا تُسْتَفَادُ وَأَنَّ الرَّأْيَ مُرْتَجِلُ
حِزْبٌ عَلَى خَطَرَاتِ الْوَهْمِ يَتَكَبَّلُ
بِهَا الْفَطَائِحُ لَا (صِفِّينُ) وَالْجَمَلُ
بِهَا الرِّكَابُ مُضْرُوباً بِهَا الْمَثَلُ
وَإِنَّمَا هِيَ ذَلِكَ الْحَادِثُ الْجَمَلُ
لِغَيْرِهَا الْمَلِكُ وَالْأَحْنَادُ وَالِدُؤَلُ
وَإِنَّمَا النَّاسُ أَعْدَاءُ لِمَا جَهِلُوا
ذُونَ الْعُقُولِ وَقُلْتُمْ: إِنَّهُمْ عَقَلُوا
وَالْقَوْمُ فِيكُمْ وَفِي أَعْدَائِكُمْ هَمَلُ
فِيئَهَا صَفِيرَاتُ مَا بِهَا أَمَلُ

بِالظَّالِمِينَ لَنَا عَنْ مِثْلِهِمْ بِذَلِكَ
أَمَّا سِوَاهَا فَلَا تَخْشَى وَلَا تَجِلُّ
وَقَدْ تَنَاقَلَ عَنْهَا مَعْشَرٌ عَزَلُ
وَكَانَ فِي عَكْسِ مَا يَهْوُونَ لَوْ فَعَلُوا
مِنْ قَبْلِ، فَالآنَ مَا حَاتُوا وَلَا عَدَلُوا

نَحْوَاهُمْ إِذْ أَظَلَّتْكُمْ عُذَاتِكُمْ
فَلَوْبِكُمْ مِنْ ذُصْهَابِ الْأَمْرِ وَاجِلَةٌ
شَاكُونَ حَقَّتْ بِكُمْ لِلْحَرْبِ نَحْوَاتِكُمْ
لَمْ يَفْعَلُوا مَا أَرَدْتُمْ مِنْ نَبَاتِهِمْ
عَانُوا ضَمَائِرَهُمْ فِي بَدَلِ طَاعَتِهِمْ

• • •

فِيهِ نِصَالُ الْمَنَابِا الزُّرْقِ تَنْتَهِيلُ
وَحِظُّ قَوْمِ سِيَوَانَا الْأَرِيِّ وَالْعَسَلُ
مِنَ الْمَغَارِمِ يُثْقَلُ لَيْسَ يُحْتَمَلُ!
وَلَا وَدَيْنِ النَّاعِيهِ مَا بِنَا مَلَلُ
وَمَنْ يُقِيدُ بِأَخْوَانٍ لَنَا قَبِلُوا؟
أَوْ مُوثِقٌ بِجِبَالِ الْأَسْرِ مُعْتَقَلُ
أَضْحَيْتُمْ، إِنَّ ظِلَّ الْقَوْمِ مُتَقَبَلُ
يَا رَبِّ: مَنْ لِرِجَالٍ مَا بِهِمْ رَجُلُ؟
مِنَ الثُّغُورِ، وَمَنْ سَارُوا فَمَا قَبِلُوا
كَأَنَّهُا بِأَدَمِ الْأَرْضِ تَنْتَعِلُ
أَوْ إِنِّهَا إِنْتَانِي الْقَصْدِ لِاتَّصِلُ؟
طَاوُونَ مَا شَرِبُوا مِنْهَا وَلَا أَكَلُوا!
مَا لِلْبِلَادِ الَّتِي نَاءَتْ بِهَا قَبْلُ
مَا اسْتَحْجَرُوا عَنْ يَدِ حَقًّا وَلَا سُئِلُوا
أَخْوَكُمْ مُكْرَةً فِي الْحَرْبِ لَا يَطْلُ

تَحْنُ الْأَلَى عَرَضٌ فِي حَتَبِ حَوْهَرِكُمْ
قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ وَعَزَّ النَّخْلِ حَقْلُهُمْ
عِنْدَ الْمَغَانِمِ لِأُدْعَى وَيَفْدَحْنَا
تَأْبَى الْحَوَادِثُ إِلَّا أَنْ تَمَلِكُمْ
أَيْنَ الرَّهْيُونُ بِأَمْوَالٍ لَنَا ذَهَبَتْ؟
إِنَّمَا شَهِيدٌ مُغَلَّى فَوْقَ مِشْتَقَّةِ
يَا مَنْ بِيظِلِّ بَنِي عِثْمَانَ قَدْ نَشَأُوا
يَا رَبِّ: مَنْ لِأَنَاسٍ مَا لَهُمْ أَحَدُ؟
وَالرَّحْمَنَاهُ لِمَنْ غَابُوا فَمَا حَضَرُوا
تَسْرِي الْحُنُودُ حُقَاةً غَيْرَ نَاعِلِيَةٍ
أَمَّا تَخُورُ قُوَى الشُّبَّانِ إِنْ وَصَلَتْ
يُرْجِي الْقَوَائِلَ بِالْأَقْوَاتِ حَافِلَةٌ
دَعُوا الْمَظَالِمَ حَاوَلْتُمْ تَفَشَّيْهَا
لِمَ لِأَيْحَابِ مُنَادِينَا؟ كَأَنَّهُمْ
قَدْ اعْتَدَرْنَا وَقَدْ صَحَّتْ مَقَالَتُنَا

الجهاد ضد الإنكليز ينطلق من النجف:

كانت النجف الأشرف أواخر العصر العثماني تميل تبعاً لقادتها وعلمائها الروحانيين إلى الحياة الحرة الكريمة في ظلّ دستور للبلاد، فقد ملّت التسلط الاستبدادي لدى العثمانيين، وسأمت الحكم الدكتاتوري المتخلف في ظلّ الخلافة المدعاة للسلطين، وكانت في هذا الشعور تعيش حياة مزدوجة المعايير، فهي تعارض الحكومة العثمانية لأنها مستبدّة ظالمة، وهي تحاول الإبقاء عليها - لو أصلحت وارعوت - باعتبارها دولة إسلامية إسمياً وشعائر لا أكثر ولا أقل، وقد عبّر الأستاذ الشبيبي بقصيدته السابقة عن طبيعة الحكم الفردي العثماني في ممارساته اللإنسانية في الأحكام والضرائب والحجاية وسوق الآلاف إلى الموت في حروب لاناقة للإسلام فيها ولا حجل، وحمل على تلك الممارسات اللاأخلاقية مما لم يزل الله به سلطاناً.

ونشأت في أوائل القرن العشرين حركة دستورية في تركيا دعا لها الضباط المتحررون وقادة الفكر، وترعرعت في إيران تلك الأفكار الدينية التي دعا إليها العلماء ورجال الدين في تشريع حياة دستورية تقلص من نفوذ «شاه إيران» ويشرف على ذلك مشرّعون من البلاد.

وتناهت هذه الأنباء على النجف الأشرف، والنجف على اطلاع عميق بمثل هذه الأحداث، وفي النجف من هو عمادها وعمودها ورائدها من الأعلام، وكانت النجف وهي تتلقى أنباء الدستوريين في الدولتين تحنّ إلى التحرر حين المهيم إلى المورد العذب، وكان الوعي الوطني متمثلاً بعلمائها ومراجعها العظام، وشبابها يتداول سرّاً قراءة الصحف والمجلات التي تذيب أنباء التحرير من الاستبداد، وقد شاركت هذه الصحف والبيانات والنشرات في كل من سوريا الكبرى، والقاهرة، والأستانة، وإيران في إذكاء جبهة النضال في سبيل الدستور، إلا أن حركات التحرر تسير بركب بطيء، فهي تذكو حيناً وتخبو حيناً آخر، نظراً للأحكام الكيفية التي

ابتدعها الأتراك في مجاهدة هذه الأفكار، وكانت أصوات المنادين بالحرية ترتفع وتمتضاء، ولكنها تعالى في النحف الأشرف إذ يدعم الوعي الديني ظواهر الوعي الوطني، ويلقي بظلاله الوريقة على العراق باعتباره بلداً مسلماً، وباعتبار دين الدولة هو الإسلام، والإسلام بنادي بتحرير الشعوب.

وكانت عشائر العراق بخاصة وطبقاته بعامة ترى في المرجعية الدينية قدوتها الصالحة في التوجه الوطني، وكان المرجع الأعلى الشيخ محمد كاظم الأعواند يتبنى مشروع الدستور «المشروطة» في مقابل «المستبدة» التي تعطي للحاكم صلاحيات فردية، وتعني الأولى بالحكم المتقيد بأنظمة وقوانين دستورية، وتعني الثانية بالحكم الفردي الملكي غير المقيد بشيء أو المتقيد به. وفي ضوء توجه المرجعية العليا في النحف الأشرف نحو الحياة الدستورية الحرة، فقد انفذ الشعب العراقي بشيابه المتحمس حول هذا الاتجاه يقول الأستاذ حسن مرزة الأسدي رحمه الله:

«إن هذا الاتجاه الدستوري القومي الذي تبلورت فيه حركات علماء الدين الأمثال في النحف في أوائل القرن العشرين، جاء منسجماً كل الانسجام مع العقيدة المتطورة المتحررة للشيعة الإمامية، والتي قالها: أن الحكم حكمان؛ حكم الإمام العادل (يريد به المعصوم عليه السلام) وإليه يلقي بمقاليد أمور الدنيا والدين، وحكم الحكومة العادلة المنبثقة من الشعب بانتخابات مباشرة حرة لا تشوبها شائبة، ويلقى إليها بمقاليد الدنيا، وتبقى أمور الدين بيد رجاله المؤمنين الصالحين»^(١).

ومع ما في هذا الرأي من مناقشة، فإن الاتجاه السائد في النحف الأشرف يدعو إليه بكثير من العفوية، فإن الدراسات لم تكن لتفترق بين العلمانية والديمقراطية، ولم يكن رائدها العلمانية على الإطلاق، بل كان العمل في سبيل

(١) حسن الأسدي / ثورة النجف / ٨٠.

الحكم الديمقراطي القائم على أساس الشورى والانتخاب في مجلس تشريعي يمثل أطراف الشعب العراقي، هذا ما أراده التحف الأشرف وشبابه العامل على إنجاز مشروع الدستور والتحرر الإنساني، وكان إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨م في تركيا، قد هزّ مشاعر العرب والأتراك، فتأسست في تركيا «جمعية الاتحاد والترقي» وبالرغم من عدم معرفة أهدافها المخبأة والحقيقية، فقد أثار ذلك تأثيره القاعلي في التحف الأشرف ففتح أول فرع لجمعية الاتحاد والترقي، وكان الشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ علي آل مانه، والسيد محمد رضا الصافي، وجملة من السياسيين العراقيين، وبعض رؤساء العشائر الفراتية، وطائفة من الشباب التحفي الثائر، كان كل أولئك من بين أعضاء هذه الجمعية، وقد ساعدت الجمعية على بث الوعي الدستوري، حتى إذا اكتشف أمر الأتراك في سياستهم القاضية بتريك اللغة العربية الفصحى، والتبشير بإقامة إمبراطورية عثمانية. أغلق الأعضاء فرع الجمعية بعد أن انسحبوا منها، وهم العرب الأقحاح.

وفي السابع من ربيع الثاني/ ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م خلع الأتراك السلطان عبد الحميد، وبعد ذلك بحوالي الشهرين، خلع الإيرانيون في جمادى الآخرة/ ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م محمد علي شاه ملك إيران، واستغلوا مبدأ المناداة بالمشروطة ذريعة للفتك بمن له وجهة نظر أخرى، وأقدموا على أعمال شنيعة غير مبررة، وأعدموا جملة من العلماء القائلين بالحكم الفردي، وكان أبرز من أعدم في هذه الفورة الدستورية هو الشيخ فضل الله التوري في الميدان قبال داره، وهو من أشهر علماء إيران، وكان مع الدستوريين في مطالبهم، ولكنه لمس الاستتار والقوضى وسفك الدماء، فوقف ضدهم.

ومهما يكن من أمر، فإن خلع الأتراك للسلطان، والإيرانيون للشاه، حدثان هائلان، جعلتا التحف تغلي كالمرجل، فتضاعف الحماس الوطني، وقام العمل الجاد على المناداة بالدستور للعراق والعرب، والتخفيف ولو جزئياً من سيطرة العثمانيين، وحينما قامت الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤م نشطوا في

هذا المنحى، وإذا هم يُفاجأون بدخول الإنكليز البصرة بميوش غازية في أوائل تشرين الثاني/ ١٩١٤م = ٢٥ / ذي الحجة/ ١٣٣٢هـ، ويزلون (الفاو) محتلين البلاد، وإذا بالتحف الأشرف بعلمائها وشباها ورجالها تنتفض كالصقر لردّ الغزاة المستعمرين، وإذا بالسيد محمد سعيد الحيوبي يكسر الصمت، ويطرح القلم، ويشهر السيف، ويؤيده المراجع العظام وهو أحدهم، فكان مسرح أحداث المجاهدين في ثلاث جهات قتالية كبرى، الأولى على مشارف الشعبية والبرجسية من البصرة الفيحاء، والثانية في مقالع عرب الأهواز وعبادان والحمره، والثالثة فيما بين المدائن إلى الكوت.

وكان رؤساء القبائل العربية في الفرات قد انتظموا هم وعشائرتهم في صفوف المجاهدين بعد أن خف العلماء الأعلام لتلبية نداء الدفاع عن الوطن وحياض الإسلام، ونقلتهم جميعاً إلى جهات القتال السفن النهرية وهي تمخر عباب الفرات، وكان السيد الحيوبي ورسله ومبعوثوه كلما نزلوا قصبة دعوا أهلها للجهاد، فاستجابوا، وانتظمت معهم عشائر الغراف وسوق الشيوخ وقبائل الناصرية حتى الشطرة والرفاعي، وغادروا سوق الشيوخ في الرابع من ربيع الثاني/ ١٣٣٣هـ بقيادة السيد الحيوبي «معه عشرات الألوف من المجاهدين، ميمماً شطر ميادين الجهاد، تقلّهم مئات السفن النهرية الكبيرة، ويقدر عددهم بأكثر من ثلاثين ألف راجل، وعشرة آلاف فارس، وقد التحق معهم حوالي خمسة عشر ألف جندي، فتكوّن من الطرفين الجناح الأيمن التركي في هذه الحرب.

وفي ٧ / ربيع الثاني/ ١٣٣٣هـ وصل التحف الأشرف حوالي الستمائة فارس من مجاهدي الأكراد، قاموا بزيارة الإمام علي (عليه السلام)، وغادروا في العاشر منه إلى جبهة القتال بطريق الطف: النحف - الشنافية - السماوة - الناصرية - الزبير - الشعبية»^(١).

(١) حسن الأسدي / ثورة النجف / ٩١ / الطبعة الثانية / بغداد / ١٩٧٠م.

واتجه الحيوبي والمجاهدون شطر الشعبية عن طريق «بحيرة الحمار» - الأهواز - فوصلوها في ١٣ / ربيع الأول / ١٣٣٣ هـ - ٢٢ / كانون الثاني / ١٩١٥ م و ضربوا خيامهم في موضع يسمى النخيلة^(١).

وكان السيد الحيوبي قد أشرف على تنظيم شؤون القتال في جبهتي البصرة والأهواز وتوابعهما، فقسم المجاهدون كالآتي:

- ١ - الجناح الأيمن بقيادته ومن معه من العلماء والمجاهدين في الشعبية.
- ٢ - القلب، بقيادة شيخ الشريعة فتح الله الأصفهاني، والسيد مهدي الحيدري، والسيد أبي القاسم الكاشاني وعمامة المجاهدين في القورنة.
- ٣ - الجناح الأيسر، بقيادة الشيخ مهدي الخالصي الكبير، والشيخ جعفر الشيخ راضي، والشيخ عبد الرضا راضي، والسيد عيسى كمال الدين، ومعهم آلاف المجاهدين في الأهواز.

وقد قام القلب والجناحان بواجبهم النضالي «فهموا في ٤ / نيسان / ١٩١٥ م على المواقع الإنكليزية المحصنة، ووقعت معارك أبلى بها المجاهدون بلاءً حسناً»^(٢).

وندع الشيخ الشبيبي أبرز المجاهدين من الشباب النحفي النائر - وهو شاهد من العصر - يتحدث عما جرى في المعارك في قصيدته «يوم الشعبية» ومقدمتها، قال:

يوم الشعبية^(٣):

أشهر أيام الحرب العراقية - إن لم يكن أعظمها عند العراقيين - يوم الشعبية، ذلك اليوم الذي استنفر إليه أهل البلاد، من حاضر وباد؛ قَلَّتْ قَبِيلَةٌ أو مدينة لم يشهده منها رجل أو رجال؛ أضف على ذلك عظيم محنة القوم فيه؛ قد رابطوا عدة شهور في (النخيلة) صابرين على أشياء لم يُصْبِرَ على من حذب

(١) فريق آل مزهر الفرعون / ثورة العشرين / ٧٤.

(٢) عبدالله الفياض / الثورة العراقية الكبرى / ١٢٢ / بغداد / ١٩٣٦ م.

(٣) فط: محمد رضا الشبيبي / ديوان الشبيبي / ٤٧-٤٩.

المكان، وشظف العيش، إلى أن مُنوا بذلك الخِذلان العظيم. ومجمله انه في أوائل صفر سنة ١٣٣٣هـ - ١٩١٤م. ورد بغداد «أمير الآلاي سليمان عسكري بك» متقلداً قيادة الجيش العثماني العامة في العراق، صارفاً «لجاويد باشا» ومعه فريق من الجنود التركية المدربة انحدر بها إلى «القرنة» وواقع الإنجليز هناك في منتصف صفر المذكور، فحرح حراحاً بليغة، أعيد بسببها على بغداد، وأقام في المستشفى شهرين لم ينجح فيه علاج، لكنه أوى مع هذا أن يستقبل، وتسابر على تدبير الأمور الحربية، متوقفاً البرء التام. ولما طال ذلك عليه قاد الجيش بذاته على مهاجمة الإنجليز في وادي الشعية دوين البصرة، استخفاً بعدوه، واعتداداً برأيه، وثقة من نفسه ومن جنده بالفوز والانتصار؛ فأعدت له محفة خاصة حمل عليها من بغداد إلى الناصرية، بعد أن تقدم بأن يحتشد فيها الجيش، وكان مؤلفاً من ثلاث كتائب (الأليات) واحدة تركية؛ واثنان ملفقتان من العرب العراقيين والأكراد، معها عدة رشاشات ونحو أربعين مدفع سهل، قام هذا الجيش في منتصف جمادى الأولى سنة ١٣٣٣هـ - ١٩١٥م من الناصرية على المعسكر العام في (النخيلة) مشياً على الأقدام، وبعد يومين أو ثلاثة أيام من وصولهم زحفوا بإيعاز من القائد العام هم والعرب المجاهدون على (الشعية) وهاجموا الإنكليز وهم فيها أمنع من عقاب الجو صباح الاثنين ٢٧ من الشهر المذكور هجوماً شديداً دام يومين من غير أن يعود عليهم بطائل، إلى أن ارتدوا فاشلين، فاعتنم الإنكليز من القوم انقطاع الطرق والمواصلات بهم، وغلبة الإعياء والتعب عليهم، وسوء اثر العطش والجوع فيهم، فاتبعوهم وناجزوهم لليلتين بقينا من جمادى الأولى سنة ١٣٣٣هـ أو صباح الأربعاء ٢٩ منه مناجزة شديدة هزم في آخرها العثمانيون وتركوا نصف ذلك الجيش بين قتيل وجريح وأسير وفقيد، واتحر «سليمان عسكري بك» قائدهم العام.

تَبَّتْ الرُّبَا حُمْرُ أَشْلَاءِ وَأَوْرَادِ مَثْوَرَةٌ لَكَ بَيْنَ الْفِصْرِ فَالْوَادِي
دُونَ «الشُّعْبِيَّةِ» أَجْسَادٌ مُوزَّعَةٌ فِي الْبَيْدِ تُوزَّعُ أَعْضَاءُ بِأَجْسَادِ

وفي «التَّخِيلَةَ» أَرَمَاسُ مَوْثِقَةٌ
 لِلشُّرَكِ نَمَّةٌ أَوْتَادٌ، وَأَخْيِيَّةٌ
 حَيْشٌ أَقَامَ ثَلَاثًا فِي خَنَادِقِهَا
 مَاءُ الْفُرَاتَيْنِ مَوْفُورٌ وَحُبُّهُمَا
 الْعَلَّةُ الْعَضَّةُ الْمَحْتَى الَّتِي نُهِبَتْ
 أَقْوَاتُنَا فِي بَطُونِ الدَّرِّ أَكْثَرُهَا
 صَمٌّ مَدَافِعُنَا مَا أَمْطَرَتْ حُمَا
 تَنَازِلُ الْقَوْمِ فَاتُوا ذَرَعَ فَيَلْقِنَا
 عِشْرُونَ أَلْفَ عِرَاقِيٍّ وَمِثْلَهُمْ
 مُحَمَّرُونَ نَجَافُوا عَنِ دِيَارِهِمْ
 مُكَابِدُونَ عَلَى حَالِي حَفَاً وَوَجَى
 بَحْرٌ مِنَ الرَّمْلِ قَامَتْ عَنِ نَعْطُمُطِهِ
 يُهَاجِمُونَ - وَهُمْ رَجَالَةٌ كُشِفُ
 فَلَ الْعَدُوِّ جَنَاحِيهِمْ وَقَلْبُهُمْ
 إِنْ الدِّمَاءُ الَّتِي حَلَّتْ نُحُورَهُمْ
 تِلْكَ الْجَمَاهِيرُ لِأَثْلُوبِيٍّ عَلَى أَحَدِ
 الصَّادِرُونَ وَقَدْ أَكْذَبَتْ مَطَابِعُهُمْ
 وَالرَّاصِدُونَ مِنَ «الْفَيْحَاءِ»^(١) تَرَوْتَهَا
 وَقَائِدِ حَمَلُوهُ فِي مَحْفَتِهِ
 أَفَاتِكَ بِالْعِدَى حَيْشٌ مُدْبِرَةٌ
 حَرَى «سَلِيمَانَ» فِي اسْتِعْجَالِ مَصْرَعِهِ

علائقاً بين أسيافٍ وأغمادٍ
 فيها أصيبوا وشجوا شجاً أوتادٍ
 نحالي الحفائب من ماء، ومن زادٍ
 والجدُّ غرثان ملتحاح الحضا صادي
 متروكة نهب أيدي الرائح العادي
 لا في بطون صعاليك وأجنادٍ
 ولم تكن ذات إنراقٍ وإرعادٍ
 بعدة وكثر ناهم بأعدادٍ
 حمر الخمايقي من تركٍ وأكرادٍ
 واستبدلوا الوحش من أهلٍ ولولادٍ
 في الرمل كلفة إغفادٍ وإسنادٍ
 نثر غوارب أمواجٍ وأزبادٍ
 في البر - حملة أسوارٍ وأسنادٍ
 من قبل تجهيز أغوانٍ وأمدادٍ
 قد أوهمتنا عقوداً فوق أجنادٍ
 محفة بعد أثقالٍ وأزوادٍ
 من بعد ما أوردوها شرٍ إيرادٍ
 باث منايهم منهم بمرصادٍ
 على «الشُعَيْبَةِ» مِنْ زُورَاءِ «بَغْدَادِ»
 معطل الجسم ملقى فوق أغوادٍ؟
 محرى كفاة بأمر الحرب قوادٍ

(١) كان هدف حملة سليمان عسكري الإستيلاء على مدينة البصرة.

قَادَ الْأَلُوفَ فَأَرْدَاهَا وَأَتْبَعَهَا
 مُخَاطِرٌ عَاشَ أَعْمَاراً لَأَنَّ لَهُ
 وَكَثْرَةَ أُعْجَبْتُهُ مِنْ كِتَابِيهِ
 كَأَنَّهُ وَالْمَقَادِيرَ الَّتِي سَبَقَتْ
 ظَنُّ الْأَلُوفِ مِنَ الْأَعْرَابِ تُعْضِدُهُ
 إِنَّ الْقُصُورَ الَّتِي جَلَّتْ عِمَارَتُهَا
 سَقِيًّا لَوَادِيكَ لَا مِنْ مَاءِ غَادِيَةِ

فِي الْحَالِ نَفْسَ أَبِي غَمْرِ مُتْقَادٍ
 فِي إِثْرِ كُلِّ نَحَاةٍ يَوْمَ مِيلَادٍ
 فَرَاخَ لِلنَّصْرِ فِيهَا أَيُّ مُرْتَادٍ
 عَلَى مُقَرَّرٍ مِيقَاتٍ وَمِيعَادٍ
 فَكَانَ مَا ظَنَّهُ قَتَاً بِأَعْضَادٍ
 أَمْسَتْ صَوَامِعَ رُهْبَانٍ وَعَبَادٍ
 كَانَ أَجْزَاءَهَا عُلَّتْ بِفِرْصَادٍ

ثورة النجف على الإنكليز كما يصورها الشبيبي:

لعل الشبيبي أصدق من صور أحداث النجف الأشرف في الثورة على الإنكليز،
 وعنده أن ثورة النجف الأشرف ضد الاحتلال البريطاني كانت على مرحلتين:

الأولى: وقد عبّر عنها بالثورة على الإنكليز في النجف^(١).

والثانية: عبّر عنها بالثورة العظمى في النجف الأشرف^(٢).

وقد تحدث الشيخ الشبيبي عن المرحلة الأولى بإيجاز، ولكنه غطى أغلب
 أحداثها الرئيسية بأمانة، باستثناء تحامله - ولو جزئياً - على السيد محمد كاظم
 اليزدي لأنه يرى الحكمة والأناة بديلاً عن العنف الثوري قبل أوانه، ويرى -
 أي اليزدي- أن القرارات المرجلة التي أدت إلى قيام الحاج نجم البقال وجماعته
 في مهاجمة السراي، وقتل الكابتن مارشال فاشلة في خططها الآنية والمستقبلية،
 وأن أمثال هذه الأحداث سوف تمكن الإنكليز بالنهاية إلى إحكام السيطرة على
 العراق، وقد حصل ما توقعه، فأفاق من وقف ضده، ولو بعد حين، وهذا
 ما حدث عقب الثورة على الإنكليز في ١٨/آذار/١٩١٨م وهي المرحلة اللاحقة

(١) ظ: محمد رضا الشبيبي / ثورة النجف ضد الاستعمار البريطاني ١٩١٧-١٩١٨م /

مذكراته / تحقيق ولده أسعد / الثقافة الجديدة / عدد ٢ / تموز / ١٩٦٩م.

(٢) المرجع نفسه / ٢٩٢.

لما عبّر عنه بالثورة العظمى حينما تحدث بكل جزئياتها وتفصيلاتها حدثاً بعد حدث، بما يعتبر وثيقة تاريخية مهمة، وهو بهذا يرى الثورة الأولى هي العظمى في ١٩/١١/١٩١٧م والثورة الثانية ما قام به الحاج نجم البقال في آذار ١٩١٨م، وأحاول أن أعطي ملخصاً معمقاً لما قدمه الشبيبي في الموضوع بذكر أبرز معالمها معلقاً ومعقياً ومصححاً مع مراعاة الاختصار.

يقول الشبيبي: «ثار أهل النجف على الإنكليز ضحى يوم الثلاثاء ٤/صفر/١٣٣٦هـ = ١٩/تشرين الثاني/١٩١٧م. وتجمهروا أمام السراي (خان عطية أبي كلل) نساءً ورجالاً، وتظاهروا بالسلاح، ونهبوا السراي، وأهانوا المستخدمين، وأطلقوا المساجين، وتفصيل ذلك: أن الكابتن (بلفور) عامل الإنكليز على الشامية والنجف، ورد من أبي صخير، وصادف وروده ورود الميحر (باولي) عامل كربلاء^(١). فأرسل في طلب زعماء المتغلبين إلى السراي، وحضر منهم: عطية أبو كلل، وكاظم صبي^(٢). فطالبيهما وبقية الشيوخ برّد منبهوبات ركب (عمّرة) الذين خصّهم الإنكليز بالامتياز في النجف... فتنصل المذكوران من ذلك، وتقدما بالأعدار، وبلفور يرعد ويزيد، ويتوعد ويتهدد، وقد زبرهما وسبهما وأهانهما بضروب من الإهانات حتى اضطرها على مقابلته بالمنكر، وانتهراه وسيّاه وهدّاه. ثم نادى عطية أبو كلل بالحرس الأهلي -الشبانة- أن يتفرقوا فتفرقوا، وأشار إلى المسلحين غيرهم أن يهجموا على دار الحكومة، ففعلوا وتجمهر الفقراء والحيّاع على السراي وهم يسبون الإنكليز ويلعنونهم ويظهرون التشفي منهم، فاسقط حينئذ بيد الإنكليز، وعجل حاكم كربلاء بالفرار إليها على سيارته، وأخذ (بلفور) بحماية المسلحين إلى دار حميد خان وكيل الإنكليز في النجف، وهو خائف نادم على ما فرط منه^(٣).

(١) كانت الشامية محافظة، والنجف والكوفة تابعان لها، والعامل يعني به المحافظ.

(٢) يقصد الشبيبي بالمتغلبين زعماء المحلات الأربع في النجف: العمارة/الحيوش/

المشراق/ البراق. ويريد بذلك من له الغلبة في القرار والزعامة.

(٣) محمد رضا الشبيبي / ثورة النجف ضد الاستعمار البريطاني / الثقافة الجديدة / ٢٨٦.

وكان هجوم عطية أبي كلل بالسلحين سبباً في تسرب الثورة إلى أبي صخير وطرده القائمقام الإنكليزي منها، ومهاجمة الحرس من قبل جماعة من النحفيين، وهبوا السراي عتاداً وذخيرة وأثاثاً.

وهنا يشير الشبيبي إلى تحرك (بني حسن) وهجومهم بالسلاح على الإنكليز في الكوفة، إلا أنهم اكتفوا بأخذ ألف ليرة من قائمقام الجسر (الكوفة) وتركوه، وقد أقلت الأسواق. وثار أهل (الأبيض) و(الحزم) على مستخدمي الإنكليز ولهبوهم، وثار آخرون^(١).

وأعلن الإنكليز في النجف الأحد ١٠/٢/١٣٣٦هـ = ٢٥/١١/١٩١٧م قطع غلات الفرات عن بغداد، وتوفير الحبوب للنجف من الحملة الهندية، وقطعت الطرق، واضطرب حبل الأمن بعد ثورة النجف، وكثر النهب والسلب والقتل من قبل الأعراب، لكن أسعار الغلات والحبوب والتمور تراخت في الحملة، وهبطت الأسعار.

ووصل السير برسي كوكس الحاكم البريطاني العام إلى النجف عصر الثلاثاء ١٩/٢/١٣٣٦هـ = ٤/١٢/١٩١٧م ومعه جماعة من ضباط الإنكليز، وشرعوا بالقبض على من له زعامة وكلمة نافذة في قومه في النجف، وكذلك صنعوا في بغداد والكاظمية وكربلاء. وكان قدوم كوكس لإرهاب النجف والقبض على زعمائها، وفي الكوفة أرسل على الزعماء للنحفيين للحضور، فاعتذر بعضهم واعتذر آخرون، فلم يقبض عليهم ليقبض على الجميع... وأخذ على الزعماء أن يحضروا من الغد إليه فلم يحضروا، وكان أشد القوم امتناعاً عطية أبو كلل، وعاد كوكس إلى بغداد خائباً دون أن تنظلي حيلته على النحفيين^(٢).

(١) محمد رضا الشبيبي / ثورة النجف ضد الاستعمار البريطاني / الثقافة الجديدة / ٢٨٧ بتصريف واختصار.

(٢) ف: مذكرات الشبيبي / ٢٨٨-٢٨٩ بتصريف واختصار.

ولدى فشل كوكس في مهمته في النجف، جهّز نحوها جيشاً في أوائل ربيع الأول سنة ١٣٣٦هـ، ووصلت طلائع الجيش إلى الكفل في خمسمائة إنكليزي... وارتادوا مواقع لعسكرهم قريباً من (كري سعدة) ووردت الكوفة عصر الأربعاء ١٩/٣/١٣٣٦هـ = ١٩١٨/١/٢ مقدمة جيش إنكليزي، وشوهدت خيامهم بظاهر السهلة، ثم عسكروا في شريعة التين من شرائع فرات الكوفة.

وتذمر الرأي العام في النجف من الإنكليز، وانقلبوا ضدهم بعد أن أكثروا المراسلة لزعماء النجف بالحضور إلى بغداد من قبل كوكس... فلم يحضروا، ووصلت (مس بل) معونة الحاكم السياسي الإنكليزي إلى النجف، واجتمعت بالنجفيين من دون طائل في الوقت الذي وصلت فيه المؤن والذخائر الحربية إلى الكوفة والكفل تبعاً^(١).

وسرت الثورة من النجف إلى السماوة، وانهمز مستخدمو الإنكليز فيها، واضطر الإنكليز إلى إرسال جند وبواخر حربية لإصلاح الحال في السماوة وما فوقها إلى الشنافية^(٢).

وتطورت الحال بين النجفيين والإنكليز إلى القتال، فقد ظهرت ضحي السيت ١٢/١/١٩١٨ سرية بثلاثمائة من فرسان الإنكليز في ظاهر النجف، فنفر النجفيون، وأطلقوا الرصاص بشدة، وانسحبوا وتظاهروا يوم الاثنين غرة ربيع الثاني ١٣٣٦هـ، وأطلقوا النيران على الإنكليز، وظهرت في سماء النجف طائرة لم يتردد النجفيون بإصلاحتها ناراً حامية، واجتمع رؤساء المحلات بالإنكليز وأظهروا الطاعة باستثناء عطية أبي كلل، فقد أصرّ على المقاطعة، وغادر النجف، وخرج كريم سعد راضي في ١٧/٢/١٩١٨م وبث الإنكليز

(١) مذكرات الشبيبي / ٢٩٠-٢٩١ بتصرف

(٢) المرجع نفسه / ٢٩١.

سراياهم وخيلهم مما يلي النحف وكربلاء إلى الشنافية، وشرعوا بحفر الخنادقن وكان غرضهم حصار النحف^(١).

فتنادى الجناح العسكري لجمعية النهضة الإسلامية، وتعاهدوا على تبييت الإنكليز بقيادة البطل الباسل الحاج نجم البقال، فجر الثلاثاء ٦/جمادى الآخرة/١٣٣٦هـ - ١٩/٣/١٩١٨م في حدود الأربعين مسلحاً عن طريق مقبرة النحف، وتسلسل منهم حوالي العشرة أو أكثر قليلاً مترين بزّي الشرطة الأهلية، وقتلوا الحارس، وخرج الكابتن (مارشال) حاكم النحف وأطلق النار من مسدسه، فخرج صادق الأديب من بين المهاجمين، وتكاثروا على مارشال فقتل، وتكاثر الإنكليز يطلقون النار على المهاجمين، وعاد النحفيون أدراجهم... وهجم الثوار على دار الحكومة مع جمهور الناس، فنهبوا ما فيها من الأثاث، وأشعلوها، وقلعوا الأبواب... ولم يكن ضحى الثلاثاء إلاً و(بلفور) والجنود والشرطة محصورون في الخان، والنحفيون قد احتلوا المدايغ والمساح جنوب الخان، وتعاطوا مع من في الخان إطلاق النار طول ذلك النهار محاولين بذلك الاستيلاء على مقر الحكومة، ولما حيم الظلام هدأ الفريقان، وعاد النحفيون إلى المدينة ولم يطلقوا لاهم ولا من في الخان طلقة واحدة^(٢).

وقد نهد بهذه الحادثة أهل محلة المشرق، وتألفت لجان من الأعيان والعلماء للتوسط بين الفريقين، فما نجحوا في ذلك، وقد كان المتظاهرون ضد الإنكليز ضحى هذا اليوم سعد الحاج راضي وأولاده، والحاج نجم البقال ومن تبعهم، وشابعم قتيان بقية الأحياء، وانفق مع الوار الصبي والرماحي (كاظم صبي) عباس الرماحي) وغيرهما على مدافعة الإنكليز وغيرهما من هل محلة العمارة والحويش، فخرجوا ليلة الخميس عارج السور، واشتد إطلاق النار بينهم وبين

(١) المرجع نفسه/٢٩٢.

(٢) مذكرات الشيببي / ٢٩٤ بتصريف.

الإنكليز. وفي صباح الخميس ١٩١٨/٣/٢١ عقد المرجع الديني السيد محمد كاظم اليزدي محفلاً كبيراً يضم العلماء والأعيان، وفاوضوا أركان الثورة، فطلبوا الأمان الحقيقي من قبل الإنكليز، فلم يضمن لهم أحد ذلك^(١).

وكانت هذه الثورة مما وُحِدَ أمر النحفيين عند الإنكليز، وقد لاقت النحف الأمرين في ذلك وفرض عليها الحصار ثلاثة وأربعين يوماً، وهلك كثير من الناس جوعاً، وشح الماء حتى شربوا ماء الآبار.

وتشكلت محكمة عسكرية برئاسة (لجمن) لمحاكمة أعضاء الحركة، وكان قد قبض عليهم أعوان الإنكليز، وسَلّموا إلى مهدي السيد سلمان.

«وكان الحاج نجم البقال قد قبض عليه فأهانته مهدي السيد سلمان، وفرعه أي تقريع وسبه... وكذلك الحال مع الآخرين»^(٢).

وندع الشبيبي يتحدث عن المحكمة، يقول:

«وفي مساء اليوم الثامن عشر من شعبان دعي إلى جسر الكوفة مشايخ النحف المودعون والمختارون، ودعا الإنكليز قسماً من مشايخ عشائر الشامية، فحضر الجميع في جسر الكوفة، وطلب الإنكليز أن يشهد أولئك شئق «المحرمين» يوم ١٩/شعبان/ قبل طلوع الشمس/ عام ١٣٣٦هـ = ٣٠/مارس/١٩١٨م.

وقد استحضر الإنكليز في جسر الكوفة باخرة مصفحة ومسلحة رست تجاه الخان الذي اعتقل فيه «المحرمون» ووجهوا مدافعهم إلى جهتي الشرق والغرب، وتحضر الجند في معقلهم، ولزموا متاريسهم، ومنع الحرس اجتماع الناس، فكان السكون في جسر الكوفة مخيفاً لم يعهد مثل له في العراق...

(١) مذكرات الشبيبي / ٢٩٧ بتصرف.

(٢) مذكرات الشبيبي / ٣١٩.

وحقاً إن من يشهد ذلك المشهد الحربي يعتقد أن الإنكليز صمموا على تخريب الجسر لاسيما وأن إعداد تلك العدة كان على حين غرة، ولم يفهم الناس ماذا أراد الإنكليز من تلك الأعمال الفجائية.

«وما غربت الشمس يوم الأربعاء حتى نصبت المشنقة في وسط الخان (خان علي نصر الله في الكوفة) وما طلعت الشمس يوم الخميس (١٩١٨/٥/٣٠ م = ١٣٣٦/٨/١٩ هـ) حتى تم شنق القوم بأسرع ما يمكن من الوقت، فخرج من الخان جماعة المدعوين مصفرةً وجوههم ممقعة ألوانهم. وبعد برهة قصيرة أمر الإنكليز بنقل جثث المصلوبين إلى حي تدفن، فحملوها في عربة من عربات (الترامواي) ونقلوها إلى الكوفة حيث غسلت وكفنت، وفي ليلة الجمعة نقلت إلى مقبرة النجف، فدفنت الجثث، وقد تعهد ذلك جماعة من الشبان، ولم يحضر غسلهم ودفنهم واحد من النجفيين»^(١).

وكانت المحكمة العرفية العسكرية الإنجليزية قد حكمت بإعدام ثلاثة عشر نجفياً، خفف عن أحدهم على السجن المؤبد، وهو عزيز الأعمش، وفرّ الآخر إلى إيران بعد اختفائه في الآبار، وهو الأستاذ عباس الخليلي. وقد نفذ حكم الإعدام بأحد عشر نجفياً هم:

- ١ - كاظم صبي.
- ٢ - عباس علي الرماحي.
- ٣ - علوان علي الرماحي.
- ٤ - كريم الحاج سعد الحاج راضي.
- ٥ - أحمد الحاج سعد الحاج راضي.
- ٦ - محسن الحاج سعد الحاج راضي.

(١) مذكرات الشيببي / ٢٢٨.

٧- «عيدهم سعيد» وهو ابن الحاج سعد الحاج راضي كما سمعت من الأسرة، وأمه نوبية.

٨- محسن أبو غنيم (أحد قتلة الكابتن مارشال).

٩- الحاج نجم البقال (زعيم هذه الحادثة)

١٠- مجيد مهدي دعييل (المشهور أنه هو الذي باشر قتل مارشال)^(١).

١١- جودي بن عيسى ناجي.

وحكمت بإبعاد (١٠٣) كأسرى حرب على الهند، وغرامة خمسين ألف روبية من أهالي النجف، وتسليم ألف بندقية للإنكليز.

الشبيبي وثورة العشرين:

لم تحقق ثورة النجف على الإنكليز أي نصر عسكري أو سياسي، ولكنها حققت نصراً مستقبلياً، فهي باندلاعها قد وضعت الأسس العملية لمناهضة الإنكليز، وفي ضوء عمل المخلصين تفجرت ثورة العشرين، إذ بدأت عدة محاور وطنية في العراق تعمل على الإطاحة بالإنكليز في محاولة لتشكيل حكم وطني.

وكان أبرز هذه المحاور كالتالي مع الاختصار المعنى:

١- محور النجف الأشرف و كربلاء المقدسة بقيادة الشيخ محمد تقى الشيرازي قائد ثورة العشرين، وشيخ الشريعة الأصفهاني، وكان الشيرازي يُراسل سراً حول الثورة وهو بعد في سامراء ثم انتقل إلى كربلاء باقتراح من الثوار لكلا يحصل التعارض بين رأيه ورأي المرجع الأعلى السيد محمد كاظم اليزدي الذي لم يقتنع بمنازلة الإنكليز لعدم توافر التسليح الكافي لمناهضتهم من جهة، ولتلا تكون لهم الغلبة فنذهب الدماء هدرأ، وهكذا كان، ولتلا تحكّم البلاد من قبلهم بشكل مباشر أو غير مباشر في حالة إخفاق الثورة، وهكذا كان.

(١) يرى الشبيبي أن مجيداً هذا قد أطلق النار على مارشال مرتين / المذكرات / ٣١٩.

وقد بدأ العمل في النجف بصورة ظاهرة ينهض به علماء الدين وفي طليعتهم آل الجزائري، وآل الشيخ راضي، وآل الجواهري، وآل بحر العلوم وآل كمال الدين، وآل الشبيبي يدعمهم الشباب المثقف، والأعيان والتجار وشخصيات النجف الأخرى، وكان شيخ الشريعة هو الرمز الذي تلتف حوله هذه الشرائح العلمية والثقافية والمتحفزة في العمل السياسي للثورة.

٢- محور الفرات الأوسط، وقد عمل رؤساء القبائل العربية في الفرات إلى جنب العلماء الأعلام وشباب التحرر الوطني في النجف الأشرف، وفي طليعتهم، آل فتلة، وآل الياسري، وأبو طيخ، والظوالم، وآل فرعون، والعوابد وآل إبراهيم، وآل مكوطر، وآل شيل، وآل عيسى، والغزالات، وبنو حسن، والحواتم، وسواهم ممن لا نستطيع حصرهم.

وبعض زعماء هذه القبائل هم الذين عقدوا اجتماعهم في النجف برئاسة الشيخ عبد الكريم الجزائري في النصف من شعبان عام ١٣٣٨هـ — لتدارس الوضع العراقي، وقرروا تشكيل وفد إلى كربلاء لإطلاع الشيخ الشيرازي على مجريات الأمور، وكان قد وصل إليها توأ من سامراء.

وكان هذا الوفد منفذاً لما تمخض عنه اجتماع وفد النجف الأشرف مع محور بغداد والكاظمية في ٣/شعبان/١٣٨٨هـ.

وبلغني من شيوعنا أن أول اجتماع كان لاتخاذ القرار بقيام الثورة ضد الإنكليز، كان في دار السيط كاطع العوادي في النجف الأشرف، وهو الذي ترأسه الجزائري.

٣- محور بغداد والكاظمية المقدسة، وكان بقيادة الشيخ مهدي الخالصي الكبير والسيد مهدي الحيدري من العلماء، وحضره من السياسيين الحاج محمد جعفر أبو التمن، والسيد محمد الصدر، ويوسف السويدي وعلي البازركان، وطبقة قليلة من الشباب الناهض.

وقد عبّر عن تعاطف هذا المحور مع الثورة الوطني الغيور الحاج محمد جعفر أبو الثمن لدى زيارة وفد النجف الأشرف لبغداد واجتماعه بهم، فقال: «إن رجال بغداد مستعدون للعمل، وأهم لانخرجون عن رأي العلماء والرؤساء»^(١).

هذه المحاور الثلاثة كان الأساس في التمهيد لثورة العشرين مع الألوف من الفراتيين، إلا أن بغداد لم تفر بالتزاماتها حينما قامت الثورة، باستثناء القيادة الثلاثة: الخالصي والحيدري وأبي الثمن، مما أوقع النجفيين في حرج، إلا أن صدق الزعامة الدينية والوطنية في النجف الأشرف وكربلاء، وتصميم الفراتيين وعشائريهم، فجر ثورة العشرين في ٣٠/٦/١٩٢٠م.

وكانت رغبة النجف الأشرف بكل طبقاتها ومن وراءهم من العشائر الفراتية ملحة بإنشاء حكومة عربية في العراق، وعملوا لذلك سراً وعلناً. وأدرك الإنكليز ذلك فحاولوا إحباطه، ووجهوا أسئلة للعراقيين عامة، وللنجفيين خاصة في ٣٠/نشرين الثاني/١٩١٨م.

وهذه الأسئلة قد يعبر عنها بـ«مبادئ ولسن» وفيها غمز ولمز في أمرين مهمين: الأول؛ فصل الموصل عن العراق وإحاقه بتركيا.

الثاني: جعل العراق تحت الوصاية الإنكليزية بأمر عربي يختاره الإنكليز.

والأمر المهم غير المعلن هو أن يحكم الإنكليز العراق.

وكانت أسئلة ولسن بصيغة إستفتاء على النحو الآتي^(٢):

١- هل ترغبون بتأليف حكومة عربية مستقلة تحت الوصاية الإنكليزية،

ليمتد نفوذها من أعالي الموصل إلى خليج البصرة؟؟

٢- هل ترغبون أن يرأس هذه الحكومة أمير عربي؟

٣- من هو الأمير الذي تختارونه لرئاسة هذه الحكومة؟

(١) حسن الأسدي / ثورة النجف / ٢٨٢.

(٢) ذكر الأسئلة الشيخ جعفر محبوبية، وهو شاهد من العصر / ماضي النجف وحاضرها / ٢٥٨.

وما أن وقف العراقيون على هذه الأسئلة حتى بادر قائد الثورة العراقية الشيخ محمد تقي الشيرازي بإصدار فتواه بعدم جواز انتخاب غير المسلم، أو تحكيم غير المسلم بشؤون المسلمين.

«وكان لهذه الفتوى أثرها العظيم في تغيير مجرى السياسة البريطانية في العراق، حيث أحدثت رجحة في نفوس الحكام الإنكليز»^(١).

وأخذ الهوس الكولونيال ولسن، فقصد النحف الأشرف بنفسه ليقف على آراء القوم من العلماء والمتقنين ورؤساء العشائر.

وكان ولسن متعجباً يريد أن يثبت للقيادة الإنكليزية أنه رجل الموقف، رغم ما أصيب به من نكسات، فأحضر معه الميحر (نوربري) حاكم الشامية، ودعا العلماء والزعماء للحضور في سراي الحكومة، وألقى عليهم خطاباً أوضح فيه وجهة نظر البريطانيين في الأسئلة المذكورة، وطلب باسم الحكومة البريطانية الإجابة عنها، وكانت لغته لغة تهديد ووعيد.

وقد أحيط السراي بالشباب النحفي الثائر لئلا تتغلب آراء عملاء الإنكليز -وقد أحضروهم- على آراء العلماء والمتحررين، والناس على رؤوسهم الطير. فنهض الشيخ محمد رضا الشبيبي فخاطب ولسن باسم العراق:

«إن الشعب العراقي يرتأي أن الموصل جزء لا يتجزأ من العراق، وإن العراقيين يرون من حقهم أن تتألف حكومة وطنية مستقلة استقلالاً تاماً، وليس فينا من يفكر في اختيار الحاكم الأجنبي»^(٢).

وحينما انتهى خطاب الشبيبي ثارت تائرة ولسن بما بصوره مؤرخ النحف الشيخ جعفر محبوبه -وهو حاضر- بقوله:

«فغاظ هذا الخطاب البليغ الحاكم فقاطع كلام الشبيبي، وضرب بيده على المنضدة التي كانت عنده، وكلما حاول أن يعرف رأي بقية أركان الجمعية

(١) حسن الأسدي / ثورة النجف / ٢٦٥.

(٢) جعفر محبوبه / ماضى النجف وحاضرها / ٢٥٨.

الحاضرة لم يتمكن، إذ لم يعترضوا على رأي الشبيبي، وأتى لهم ذلك وهو الرأي الصائب»^(١).

وكان ما قاله الشبيبي ردّ التحفيين، بل الفراتيين ووطنيين العراق على مبادئ ولسن وأستلة الإنكليز.

يقول الأستاذ جعفر الخليلي رحمه الله في هذا الصدد:

«ولأول مرة يدوي اسم الشبيبي محمد رضا في الأوساط دوماً تهتز له الأندية والأوساط النحفية، وكان ذلك يوم جمع الحاكم الإنكليزي الكبير الرؤساء في النحف والعشائر في سراي النحف لاستمالتهم وأخذ موافقتهم على صورة الحاكم الذي يريده الإنكليز للعراق قبل قيام الثورة الكبرى... فهاجت النحف وماجت، واقتدت بها العشائر، وكان وراء هذا الهياج الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، والشيخ حواد الشبيبي، ومن رؤساء القبائل كان السيد علوان الياسري والحاج عبد الواحد الحاج سكر وغيرهما ممن أبدوا الشبيبي، واعتبروه ممثلاً عن النحف والعراق أجمع، وهذا ما حال بين السلطة المختلفة وبين اتخاذ الإجراءات في توقيف الشيخ محمد رضا الشبيبي أو نفيه»^(٢).

وكان مستوى التخطيط منبجوراً بين العلماء والوطنيين وزعماء الفرات لتهيئة الثورة، إذ بلغ الإستياء من الإدارة البريطانية في العراق أقصاه، وأخذ بالتصاعد نظراً لقطرسة الإنكليز، فكانت الاجتماعات والاحتجاجات تأخذ طابعاً استراتيجياً ومركزياً في التخطيط للإطاحة بالإنكليز، وكان الخيار المفضل قيام حكومة عربية وطنية مستقلة يرأسها أحد أنجال شريف مكة الحسين بن علي، وتشكل لهذا الخيار مكتب القيادة السياسية للثورة من قبل السياسيين الوطنيين على النحو الآتي:

(١) المرجع نفسه / ٢٥٩.

(٢) جعفر الخليلي / هكذا عرفتهم ٢ / ١٢٠ / دار المعارف / بغداد.

- ١- الشيخ محمد رضا الشبيبي.. رئيساً
- ٢- السيد سعيد كمال الدين.. عضواً
- ٣- السيد حسين كمال الدين.. عضواً
- ٤- الشيخ باقر الشبيبي.. عضواً
- ٥- السيد محمد رضا الصافي.. عضواً
- ٦- السيد سعد صالح جريو.. عضواً
- ٧- السيد محمد عبد الحسين.. عضواً
- ٨- السيد عبد الرزاق عدوة.. عضواً

وأول اجتماع عقد لهذه القيادة كان «ليلة الأحد ١٧ / ربيع الأول / ١٣٣٧ هـ في دار شيخ الشريعة... ووقعوا فيه على عريضة زعماء الشامية مع زيادة في المطالب، وتوجيه لها»^(١).

وهذه العريضة تتحدث عن رغبة قيادة الثورة العراقية في اختيار أحد أنجال الشريف ملكاً على العراق، وقررت القيادة إيفاد الشيخ الشبيبي إلى الحجاز لمفاتحة الشريف حسين بالأمر، ومعه ثلاث وثائق؛ وهي عبارة عن عرائض ومضابط موقعة من ثلاث جهات:

الأولى: موقعة من علماء النجف الأشرف وكرهلاء المقدسة والكاظمية المشرفة.

الثانية: موقعة من قبل رؤساء العشائر والفرات، وهم القوة العسكرية الضاربة.

الثالثة: موقعة من قبل الشباب العربي المسلم في النجف الأشرف، وهم في مكتبهم السياسي برئاسة الشيخ محمد رضا الشبيبي نفسه.

(١) علي الخاقاني / شعراء الفري ٨/٩ / المكتبة الحيدرية ومطبعتها / النجف الأشرف / ١٩٥٦ م.

وكانت الدعوة إلى الملكية هذه في قبال الدعوة على الجمهورية التي رشح لها «المستر فلي» طالب النقيب رئيساً، وأرسل سالم الحتيون شيخ بني أسد للنحف الأشرف مروّجاً للفكرة فرفضت^(١).

وأما الهدف من حمل رسالة الشبيبي ووثائقها إلى الحجاز، فهو شعور الثوار قبل أن يدخلوا المعركة، أن الإنكليز بأزاء تزييف حقائق الأشياء، وقد جمعوا حولهم الإنتهازيين والموالين لهم والعملاء، ممن اشترت ضمائرهم، وقد شاهدوا شباب النحف الثائرين منفيين إلى الهند، والمحكمة العسكرية أعدمت أحد عشر ثائراً، ورأوا بأم أعينهم ما حلّ في البلاد والعباد من حصار النحف، ومصادرة قوت الشعب في القصبات الأخرى، وشاهدوا الإنكليز وانتفاحهم في الوقت الذي قال فيه (الجنرال مود) فاتح بغداد: «جئنا محررين لا فاتحين» وقد أثبت الوقائع أنهم جاؤوا مستعمرين لا محررين، وقد جعلوا إدارة العراق بأيديهم وحدها، وتصدقوا بفتات بعض المناصب الثانوية على عملائهم في الديار العراقية.

ولهذا كان تسفير الشبيبي ذا هدف رفيع، وهو اسماع أصوات الثائرين في النحف والفرات وكرهلاء والكاظمية إلى مسامع الهيئات الدولية والمنظمات العالمية والشعب العربي والعالم الإسلامي.

وكان هذا هدفاً مركزياً، ولو ظفروا بأحد الأنجال لكان مكسباً على كل حال!!

ويرى الأستاذ جعفر الخليلي أن الشبيبي قد وضع تقريراً مفصلاً عن أوضاع العراق بنفسه، وعن مهمته «بالمداولة مع المرزا محمد رضا الشيرازي - نجل قائد الثورة - والشيخ عبد الكريم الجزائري... وعلى هذا يكون الشبيبي أول من حدد رغبة الاستقلال، وأول من صورّ أمانيه في قيام هذه الدولة...

(١) ظ: تفصيل الدعوة إلى الجمهورية في هذا لتاريخ من قبل الإنكليز في: ثورة النحف/ ٢٧٩ وما بعدها للأستاذ حسن الأسدي.

وأحسب أن نصوص التقرير محفوظة في سجلات البروتوكولات في مؤتمر الصلح، أو لدى وزارة الاستعمار البريطاني»^(١).

وارتأى الشيبلي أن يعضد مهمته بالسفر إلى الناصرية أولاً، لحمل رؤساء المنطقة وأعيان العرّاف ووجوه الناس هناك على توقيع ما يحمل من وثائق، ومن ثم يقصد شطر الحجاز، وهكذا كان، «ولقي من الشيخ علي الشرقي - وكان قد سبقه على المنتفك - ومن السيد عبد المهدي المنتفكي في أبي هاون، ومن الشيخ محمود الخليلي - وقد أوفد من قبل الميرزا الشيرازي - مساعدةً جدّ ثبينة في إنجاز مشروعه، ومن هناك دخل البادية بصحبة الشيخ إبراهيم إطمش»^(٢).

ووصل الشيبلي الحجاز وقصد مكة، وطلب مقابلة الشريف حسين، وندع الكلام هنا للشيبلي متحدثاً عن ذلك؛ قال:

«زارني بعض مرافقي الملك، فرحبوا بي من قبل الديوان، وأبلغوني أن الملك يرغب باستقبالي غداً صباحاً، فذهبت في الوقت المعين إلى القصر حيث استقبلني الملك حسين في ديوانه، وهو يقع في الدور الثالث من قصره وفي الجناح الغربي منه، وبعد تبادل التهاني والسلام؛ بسطتُ الحالة بتفاصيلها كما هي في القطر العراقي، وأطلعتني على تآزم الوضع، وقرب اندلاع نيران الثورة بالعراق، إذا لم تلبّ بريطانيا مطالب الأمة العراقية، إلى غير ذلك مما يطول شرحه، ثم دفعت إليه ما معي من الوثائق والرسائل الموجهة من العراق إلى الحكومة العربية الهاشمية وإلى ملك العرب نفسه، فاهتم بها اهتماماً بالغاً، وقطع وعداً بأنه سيرسل هذه الوثائق والكتب إلى ممثله في مؤتمر الصلح المنعقد في (فرساي) من بلاد فرنسا، ليستند الأمير فيصل إلى هذه الوثائق المهمة في المطالبة بحقوق العراقيين، وأن ملك العرب يؤيدهم كل التأييد في هذا الشأن، وقد

(١) جعفر الخليلي / هكذا عرفتهم ١٢٤/٢.

(٢) المرجع نفسه والمنفعة.

علمت بعد ذلك بأن الملك حسين برّ بوعدده، وأرسل بالوثائق إلى ولده، وكان للأمير فيصل موقفه المعروف في المطالبة باستقلال البلاد العربية، وتكوين دولة موحدة فيها. ولما وصلت إلى الشام واجتمعت بالملك فيصل ورجال دولته في سوريا، تأكد لي بأن هذه المغامرة من العراق إلى جزيرة العرب فالشام: لم تكن عبثاً، إذ بعث الملك حسين معي أجوبة إلى طبقات مختلفة من العراقيين، وهم الذين كاتبوه وانتدبوني إليه...»^(١).

وقامت ثورة العشرين في ٣٠/حزيران/١٩٢٠م والشيخ الشبيبي برفقة الملك فيصل الأول في سوريا «فاستطاع أن يبعث ببعض الأخبار، وبصورة العلم العربي للعراق ضمن رسالة حملها رسوله إلى شيخ الشريعة... فعهدت صورة العلم العربي إلى السيد ضياء زيني، وكان يعمل خياطاً في (قيصرية علي آغا)^(٢) في النجف، فعمل منها علماً كبيراً نصب لأول مرة فوق سراي كربلاء، وكانت كربلاء قد اعتبرت متصرفية، وقد تعين لها السيد محسن أبو طيخ متصرفاً من قبل مجلس الثورة. وكان هذا العلم الذي بعث بصورته الشيخ الشبيبي أول علم عراقي رفعه العراق»^(٣).

أما أحداث ثورة العشرين فإنني أجمله بما كتبه قبل أربعين عاماً في آب/١٩٦٨م وها أنا ذا أشير إليها في آب/٢٠٠٧م، قلت آنذاك:

«فوجئ النجف الأشرف ببلاغ حكومة الاحتلال البريطاني ببغداد في ٣/مارس/١٩٢٠ = ١٨/شعبان/١٣٣٨هـ القاضي بحل العراق تحت ظل الانتداب البريطاني، فنارت ثائرة العلماء والزعماء ورؤساء القبائل الفراتية، وسافروا مجتمعين إلى كربلاء - للمرة الثانية - وعرضوا الأمر على زعيم الثورة

(١) ظ: حديث خاص للشبيبي، مع علي الخاقاني/ شعراء الفري ٩/٩-١٠.

(٢) تقع هذه القيصرية بين باب قبلة الصحن الحيدري ومسجد الهندي. وهي من معالم النجف التي أزيلت في عهد الطاغية.

(٣) جعفر الخليلي/ هكذا عرفتهم ٢/١٢٥.

الإمام الشيرازي، فتأمل الشيخ الشيرازي طويلاً في إصدار أمر الثورة، حتى إذا كثرت حوادث العنف والإكراه من قبل الإنكليز في النجف والعبتات المقدسة، قام النجفيون بطبع كثير من المنشورات المستكرة لاستفزاز البريطانيين، وزعت في العراق بعامة، فتلاحم الشعور الوطني، وانفجرت العواطف، وتأزم الموقف، ونهيات بعض الأسباب الموجبة للكفاح المسلح، وكان ولده الشيخ محمد رضا يجرّضه على الثورة، فأصدر الشيخ محمد تقي الشيرازي فتواه بذلك، وهذا نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم

«مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم في ضمن مطالبتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم.»

محمد تقي الخائري الشيرازي

كربلاء المقدسة

وقد فسّرت الفتوى بأنها إفتاء بالجهاد أو الدفاع عن بيضة الإسلام، فأعلنت الثورة في النجف الأشرف والفرات يوم الأحد ١٥/شوال/١٣٣٨هـ - ٣٠/حزيران/١٩٢٠م، وتجمهر النجفيون يطبقاتهم الروحية والثقافة والشعبية في الصحن الحيدري الشريف لحظة وصول أنباء الطلبات الأولى من قبل رئيس الظوالم الشيخ شعلان أبو الجون لدى فك اعتقاله من سجن الشامية بأمر الحاكم الإنكليزي فيها (الميجر نور بري) وخفّ النجفيون لحمل السلاح وهاجموا الإنكليز عشوائياً، فحلا الإنكليز من النجف فوراً، فخرجوا إلى الكوفة.

ووصلت أنباء النجف إلى الفرات فثار بعشائره ابتداءً من الرميثة ومروراً بالسماوة، فالديوانية ومروراً بالسماوة، فالديوانية، فالشامية، فالشخاب، فالخيرة، فأبي صحيون فالنجف الأشرف، فالكوفة، فكربلاء، فالهندية وسواها.

وهاجم الثوار مراكز قوى الإنكليز، وحربوا السكة الحديد فيما بين الناصرية في عدة أماكن حتى الديوانية، وقد استخدمها الإنكليز لنقل الآلئم الحربية ومعدائهم العسكرية، ونقل الجنود الهنود والإنكليز. وكثرت المعارك الدامية فوراً بين الإنكليز والعراقيين في مختلف البقاع والقصبات، وقتل جمهور عظيم من الجيش الإنكليزي بقدر عدة آلاف، وسقطوا فيما بين الرميثة والعارضيات والمشحاب والحلة والكوفة والرارنجية والنحف وكربلاء وطويريج وبقية ميادين القتال، وحيء بمئات الأسرى الإنكليز إلى النحف، واحتجزوا في (الشيلاان) وأوصى شيخ الشريعة بمعاملتهم معاملة إنسانية، وهكذا كان، كل ذلك مما دعا الإنكليز إلى التراجع بعد أن تكبدوا الخسائر الفادحة في الأرواح والمعدات، وتراجعوا عن حكم العراق المباشر، وأتوا عليه عن طريق العملاء في العراق من الأعراب والحفاة والبداة وسيل «الأقندية» في الدليم وبغداد.

وليس غريباً أن تسفر نتائج هذه الثورة في هوة سحيقة من التآمر على آمال الشعب، فعناصرها بعدُ لم تتكامل، وأسبابها لم تتضح في المقدمة والنتيجة، بل جاءت شرارة في الأفق البعيد أذكي جذوتها الشعور بالاضطهاد الإنساني دون التفكير بالمكاسب المستقبلية، وهذا ما جرّ الكوارث على قادتها وقواعدها الشعبية، فقد مزقوا شرّ ممزق، استبيح حرمهم، وبنمت أبناؤهم، ورمّلت نساؤهم، وهدمت منازلهم، وتكبّد بعد هذا التحفيون بمخاصة والفرائيون عامة الخسائر الفادحة في أعزّ ما يملكون»^(١).

وفي النحف الأشرف نجد المآسي ضارية بأطنابها في ربوعها فبعد نهاية الثورة حاصرها الإنكليز حصاراً هجياً، فلم تستمر بأحداثها سوى ستة أشهر، وفرضوا على التحفيين غرامة قدرها ثلاثة آلاف بندقية، وأخرى مالية قدرها إحدى وثمانون ألف ليرة ذهباً، مع اعتقال الزعماء والقادة.

(١) المؤلف / فلسطين في الشعر التحفي المعاصر / ٤١-٤٥ بتصريف واختصار. دار العلم للملايين / بيروت / ١٩٦٨ م.

«أما العلماء فقد ظلّ الإنكليز يتحينون بهم الفرص إلى أن تمكنوا من اعتقالهم على أيدي العراقيين أنفسهم بعد تشكيل الحكومة الوطنية!! وسفروهم خارج العراق وعندما حرّموا الانتخابات المزوّرة»^(١).

وإنها لوصمة عار في جبين صاحب الفخامة عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء المنتحَر أن يدخل بنفسه ومعه جلاوزته على الإمام الشيخ مهدي الخالصي الكبير في مدرسته العلمية في الكاظمية المقدسة، ويهينه ويقوم شخصياً بتسفيره خارج العراق في ٢٦/٦/١٩٢٢م، وذلك لتحرّمه الاشتراك في المجلس التأسيسي المشبوه، وتحريم إعانة الإنكليز في التعيين بمناصب الدولة.

وقد احتج العلماء والمراجع على هذا الإجراء فهاجر منهم ثلاثمائة عالم ورجل دين برفقة المرجعين الشيخ محمد حسين النائبي والسيد أبو الحسن الأصفهاني، لقد هزّ العراق هذا الحدث هزاً عنيفاً، وخرجت المظاهرات وكثرت الاحتجاجات، وعاد بعد حين النائبي والأصفهاني على التحف بعد مناقشة عامة وخاصة، وأبي الشيخ الخالصي العودة حتى وفاته في ١٠/٤/١٩٢٥م ودفن بالقرب من الإمام الثامن علي بن موسى الرضا في الحضرة الرضوية المطهرة.

وهكذا رجع الثوار بخفي حنين، والأنكى من ذلك أن يسلّط الإنكليز عملاءهم في الأوس حكاماً على العراق، وأن يعود أبناء الثوار خدماً وجنوداً عند هؤلاء الأذئاب، ومن جهة أخرى فقد عمدت الحكومات المتعاقبة في العراق حتى اليوم إلى تشويه الحقائق التاريخية للثورة، وأن يقحموا في رحالها من ليس منهم، وأن تغفل معطيائها الوطنية والقومية، وأن يتصدر الحكم من تجسّسوا للإنكليز على حسابها.

(١) حسن مرزّة الأسدي / ثورة النجف / ٣٨٤.

الشبيبي في العهد الملكي:

في الثالث والعشرين من حزيران عام ١٩٢١م وصل الملك فيصل إلى ميناء البصرة، وسافر إلى بغداد فوصلها ٢٩/حزيران/١٩٢١م، وكانت الوثائق التي حملها الشبيبي إلى والده الحسين قد عرضت على فيصل فقدمها إلى مؤتمر الصلح في فرساي فأقرها، وكانت رغبة المسنر ونستون تشرغل وزير المستعمرات البريطانية قد أقرّ في مؤتمر القاهرة آنذاك -بالتشاور مع المنسوب السامي في العراق: السير برسي كوكس، وجعفر باشا العسكري وزير الدفاع العراقي- ترشيح فيصل ملكاً على العراق لدى انعقاد مؤتمر القاهرة في ١٢/آذار/١٩٢١م.

يقول الأستاذ هولس ريتشر في كتابه (مقاييس الكفاءة للإستقلال): «وبعد مفاوضات كثيرة عُرضَ العرش العراقي على الأمير فيصل الذي كان قد أخرج حديثاً من الدولة العربية التي شكّلها في سوريا، ومع أن انتخاب الأمير فيصل يعود قسم منه من دون شك إلى النفوذ البريطاني، فكانت ثمة أدلة كافية، حتى قبل أن تعرف رغبة بريطانيا، على أن سموه كان المنتخب عن طيب خاطر من العناصر المهمة في العراق»^(١).

ومهما يكن من أمر، فقد توج الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على العراق في ٢٣/آب/١٩٢١ = ١٨/ذي الحجة/١٣٣٩هـ، وعاد الشبيبي إلى العراق بعد سفرته إلى الحجاز والشام، وأقام في بغداد في «الزوية» من الكرادة الشرقية حتى وفاته، وعاصر العهد الملكي في ملوكة الثلاثة: فيصل الأول/ غازي الأول/ فيصل الثاني، واعتبر من مؤسسي الدولة.

وكان الشبيبي من رجال الحكم في العهد الملكي، ولكنه في صفوف المعارضة الوطنية البناءة، بل بعد من أبرز أركان المعارضة.

(١) عبدالرزاق الحسيني / تاريخ الوزارات العراقية ١/٢٨ / الطبعة السابعة.

شارك في الحكم مشاركة فاعلة في الوزارة ومجلس النواب ومجلس الأعيان، وقد استوزر لأول مرة في ٢/آب/١٩٢٤م وأسندت إليه وزارة المعارف بوزارة الأستاذ ياسين الهاشمي الأولى، واستقال منها احتجاجاً على إتفاقية النفط التي أمرتها الوزارة بضغط بريطاني، ونصّ الاستقالة: صاحب الفخامة رئيس الوزراء الموقر.

بعد التحية: حيث لايسعني الموافقة على إتفاقية شركة النفط التي هضمت بموجبها حقوق العراق، فإني أتقدم إلى فخامتكم بانسحابي من المجلس الموقر. هذا ولفخامتكم مزيد الاحترام.

١٠/شعبان/١٣٤٣هـ = ٥/مارس/١٩٢٥ محمد رضا الشبيبي^(١)

وانتخب الشبيبي نائباً عن بغداد في الدولة الانتخابية الأولى:

١٦/تموز/١٩٢٥م

وفي مجلس النواب خالف الشبيبي وسبعة عشر نائباً معارضاً لدى التصويت على المعاهدة الإنكليزية العراقية القاضية بارتباط العراق بالانتداب البريطاني لمدة خمس وعشرين سنة ورفض ذلك^(٢).

وانتخب الشبيبي عضواً في البرلمان عن بغداد للمرة الثانية في:

١٩/آيار/١٩٢٨م، ورفض معاهدة الحلف بين العراق وبريطانيا التي أمرها

نوري السعيد في وزارته الأولى ٣/حزيران/١٩٣٠م، وقال عنها: «إني أرفض

مشروع المعاهدة بملاحقاته، لأنه مشروع تحمّل العراق بموجبه كثيراً من المغارم

والتبعات، ولم يكسب في مقابل ذلك حقاً جدياً من الحقوق، والقضية بالنسبة

لبريطانيا معكوسة إذ حصلت على أهم الحقوق والامتيازات، وتخلصت من

كافة التبعات والمسؤوليات»^(٣).

(١) ظ: عبدالرزاق الحسيني / تاريخ الوزارات العراقية ٢٨٨/١ طبع وزارة الإعلام.

(٢) ظ: المرجع نفسه ٤٥/٢+٣/٥٢.

(٣) المرجع السابق.

ولم يرشح الشبيبي لمجلس النواب للدورة الثالثة تضامناً مع المعارضة الوطنية التي قاطعت الانتخابات في: تشرين الأول/١٩٣١م.

وانتخب الشبيبي نائباً عن بغداد وفي الدورة الرابعة للمجلس ٨/آذار/١٩٣٣، وانتخب أيضاً في الدورة الخامسة نائباً عن بغداد وفي ٢٩/١١/١٩٣٤، وفيها عقّب على خطاب العرش للملك غازي ٣/كانون الثاني/١٩٣٤، منتقداً سياسة علي حودت الأيوبي في وزارته الأولى قائلاً:

«يوجد في البلاد العزيزة تدمراً واستياء عظيم ناشئ عن أسباب وعوامل كثيرة، من جملة هذا الإهمال والتساهل في تطبيق أحكام القوانين، وهناك قانون آخر نافذ في البلاد مع الأسف وهو قانون «الصنعة والمحسوية» وتوجد أيضاً أشياء كثيرة من هذا القبيل، وكنت أودّ أن أرى في خطاب العرش أشياء تدلّ على سير التهذيب من قبل الحكومة وملاحظتها هذه القضية»^(١).

واستوزر الشبيبي للمرة الثانية في ١٧/آذار/١٩٣٥م للمعارف في وزارة ياسين الهاشمي، واستقال منها في ١٥/أيلول/١٩٣٥م احتجاجاً على تدخل رئيس الوزراء في شؤون الوزارة، وتعيين أخيه الفريق طه الهاشمي رئيس أركان الجيش مديراً للمعارف العام بعد استقالة الأتاذ فهمي المدرس منها، مضافاً إلى تأثر رئيس الوزراء بالدعاية المضللة ضد الوزارة بقيادة الشيخ الشبيبي. فلمّا تلقى رئيس الوزراء كتاب الاستقالة قصد الشبيبي في داره، وحاول إقناعه بالعدول عن الاستقالة، أو قبول منصب وزارة العدل بدلاً عنها، فأبى الشبيبي ذلك، وكان رئيس الوزراء يجلّ وطنية الشبيبي، فرفع له رئيس الوزراء الكتاب الآتي الدال على مدى احترامه الشبيبي:

(١) محاضر مجلس النواب العراقي / لسنة ١٩٣٤م / ص ٩.

مولاي الأستاذ محمد رضا الشبيبي المحترم

يؤسفني أن تذهب محاولاتي العديدة للتوفيق بين الآراء بدون نتيجة، ويؤلمني جداً أن أرى استمرار التأزر معكم في تحمل أعباء الظروف الحاضرة متعسراً لقراركم الأخير.

إنني أشعر بالمتاعب التي تحملتموها أثناء اضطلاككم بالمسؤولية في الوزارة، وإذا ما تقدمت إليكم بالإعراب عن الشكر والتقدير، فإنني بلاشك أعبر في الوقت نفسه عما يحمله زملاؤكم الوزراء الباقون من شعور الامتنان على ما لاقوه منكم مدة اشتراككم معهم من التأيد، وكل ما أرجوه أن تكون رابطة الأخوة والمبدأ التي ربطتنا في جهادنا باقية على رواقها، وألتمس أن تقبلوا احترامي وإجلالي.

بغداد: ١٦/أيلول/١٩٣٥م المخلص ياسين الهاشمي^(١)

وفي الدورات: ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ للمجلس النيابي لم يرشح الشبيبي لأنه انتخب عضواً في مجلس الأعيان ثم انتخب رئيساً له لأول مرة وآخر مرة في ٢١/شباط/١٩٣٧م، وفي الدورة العاشرة للمجلس النيابي انتخب الشبيبي نائباً عن لواء العمارة في ٩/تشرين الأول/١٩٤٣م. وفي ١٧/آب/١٩٣٧م عين الشبيبي وزيراً للمعارف في وزارة جميل المدفعي الرابعة، وفيها ارتفع مستوى التعليم في العراق، وقد خصص الشبيبي العديد من «البعثات» إلى الخارج في مختلف التخصصات بما يعتر خطوة كبيرة إلى الأمام، وفتح بكل إصرار حملة من المدارس الابتدائية والثانوية والصناعية والزراعية.

وفي وزارة جميل المدفعي الخامسة استوزر الشبيبي للمرة الرابعة للمعارف في ٢/حزيران/١٩٤١، فأصلح من مناهج المعارف وإدارتها، وانتخب الشبيبي رئيساً لمجلس النواب في ١/كانون الأول/١٩٤٣م واستمر في ذلك رئيساً يمثل المعارضة

(١) ظ: عبدالرزاق الحسني / تاريخ الوزارات العراقية ١٤١/٤-١٤٢.

الوطنية حتى ٢/ كانون الأول/ ١٩٤٤م فرشحت وزارة حمدي الباجحي سلمان البراك، ورشحت المعارضة الشيببي، ففاز الشيببي بالانتخاب رئيساً للمجلس بالأكثرية الساحقة، واستاء رئيس الوزراء الباجحي من هذه النتيجة، وحرض بعض النواب على رفع طلب للوصي عبد الإله في عدم المصادقة على محضر مجلس النواب، ولم يشأ الوصي أن يفعل ذلك، فانتقد الشيببي الموقف بالإستقالة في ١٤/١٢/١٩٢٤م^(١).

وكان سبب استياء حمدي الباجحي من الشيببي يعود لأمرين مهمين:

الأول: كان الشيببي باعتباره رئيساً لمجلس النواب والمدفعي باعتباره رئيساً لمجلس الأعيان قد استنكر بيان شديد اللهجة قرار الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي في أمريكا الداعي إلى هجرة اليهود الصهاينة إلى فلسطين بدون قيد أو شرط، تمهيداً لإقامة دولة يهودية في فلسطين، كان ذلك في ٢٩/ شباط/ ١٩٤٤م^(٢).

ثانياً: انتقد الشيببي في رئاسته لمجلس النواب وزارة الباجحي بعنف، واعتبر الحكومة تعمل في سياسة البلاد بوحى الإنكليز مباشرة، وهي «سلطة لاتتمتع بمزايا الاستقلال، وعليه أصبحنا نرى شؤون البلاد تُدار وفق هذه السياسة، كما أقصى كثير ممن يُظن أنهم خصوم هذه السياسة، وأبعدوا عن الميدان، وظهرت وجوه جديدة ما كان لها أن تظهر لولا تلك الظروف»^(٣).

وانتقد الشيببي الحكومة العراقية لإنشائها ما يريد المندوب البريطاني إنشاءه، ولإذاعتها للمشيئة البريطانية، وقال في مقال له:

«... وافق المسؤولون العراقيون على إنشاء المكاتب السرية للإنكليز في طول البلاد وعرضها... إذ أصبح في كل لواء من الألوية العراقية فضلاً عن

(١) ظ: المرجع نفسه ٢١٧/٦ بتصريف واختصار.

(٢) ظ: عبدالرزاق الحسيني / تاريخ الوزارات العراقية ٢١٧/٦.

(٣) محاضر مجلس النواب العراقي / لسنة ١٩٤٥-١٩٤٦ / ص: ١٢٥.

الأقضية مكتبٌ يديره ضابط سياسي (إنكليزي) يسمى ضابط الارتباط إلى جانب مكتب متصرف اللواء...»^(١).

وفي ١٧/آذار/١٩٤٧م انتخب الشبيبي نائباً في الدورة الحادية عشرة للمجلس. وحضر مؤتمر البلاط في ٢٨/كانون الأول مستكراً معاهدة بورتسموث.

وحيثما منعت حكومة صالح جرم المظاهرات ضد المعاهدة، حضر رؤساء الأحزاب والمارضة اجتماعاً وطنياً في دار السيد جعفر حمدي كان فيه الشبيبي، فأجمعوا على ضرورة المظاهرات، فبدأت المظاهرات في اليوم التالي، وقمعت بالرصاص في الوثبة ٢٧/كانون الثاني/١٩٤٨، وعندها استقال الشبيبي وعشرون نائباً من عضوية المجلس احتجاجاً وشجياً^(٢).

وسقطت معاهدة بورتسموث في ٢٨/كانون الثاني/١٩٤٨م، وشكل السيد محمد الصدر في ٢٩ منه رئاسة الوزارة، وكانت وزارة ائتلافية تضم أطراف الشعب، في أحزابه، وأشغل فيها الشبيبي وزارة المعارف للمرة الخامسة.

وفي الدورة الانتخابية الثانية عشرة انتخب الشبيبي نائباً عن بغداد ٢١/حزيران/١٩٤٨م، واستقال من عضوية المجلس احتجاجاً على إخماد أصوات... بارضة، وتحيز الدولة للإنتهازيين، واستقال معه ستة وثلاثون نائباً، وعبر منهم اثنان وعشرون نائباً في طليعتهم الشبيبي عن مقاطعة الانتخابات التكميلية، باعتبارها خطوة ثانية للإستقالة، إذ لافائدة في الانتخابات والسياسة على حالها^(٣).

وانتخب نائباً في الدورة الثالثة عشرة ٢٤/١/١٩٥٣م، وهي آخر دورة رشح فيها للنياية، إذ مُني بالإحباط من سياسة الحكومات المتعاقبة، وشكّل «حزب الجبهة الشعبية المتحدة» وقد أشغل رئاسته وعضوية مجلس الأعيان.

(١) محمد رضا الشبيبي / مقال / جريدة الزمان البغدادية في ٢٢/حزيران/١٩٤٦م.

(٢) ظ: عبدالرزاق الحسيني / تاريخ الوزارات العراقية ٢٦٨/٧ وما بعدها.

(٣) ظ: جريدة صوت الأهالي البغدادية الصادر ١٠/مارس/١٩٥٠م.

وفي هذه الدورة هاجم سياسة الدولة وإدارة الحكم وأوقف المسؤولين على واقع البلاد، وذلك في الجلسة المنعقدة في ١٩٥٣/٢/٢ للاستماع إلى منهاج وزارة السيد جميل المدفعي، وهو يتلوها في المجلس، قال الشيبلي:

«إن البلاد مغلوب على أمرها، وإن الأجنبي الغاشم يتدخل في شؤونها، وإنه يلتزم فريقاً معيناً من الناس، ويفرضهم فرضاً على البلاد، ويناهش كل طبقة واعية لها آراؤها المحترمة وتفكيرها السياسي الناضج منذ زمان طويل إلى اليوم، وانشطرت البلاد.. إلى شطرين وإلى جيلين:

نحن الجيل القديم الذي ينهج هذا النهج في السياسة، اتجهنا جيلٌ واع حديث، وآراؤه ومناهجه تختلف كل الاختلاف عن تفكيرنا نحن أبناء الجيل القديم الذين أشغلتنا المناصب مراراً كثيرة، والذين أينا أن نفسح المجال لغيرنا، وأن نعدّ أناساً لإشغال هذه المناصب إذا انتهى أمرنا»^(١).

ولدى مهاجمة الشرطة للسجناء في «نقرة السلطان» في ١٩٥٣/٦/١٨ م نددت المعارضة ركنها البارز الشيخ محمد رضا الشيبلي، فقابل الملك وأعرّب عن الأثر الذي تركه عمل الحكومة في النفوس»^(٢).

وحينما شكل أرشد العمري وزارته الثانية في ١٩٥٤/٤/٢٩ م قابلت الأحزاب السياسية والوطنية تشكيلها بالسخط العام، وكان أشد الأحزاب معارضة لتأليفها حزب الاستقلال برئاسة الشيخ محمد مهدي كبة، والحزب الوطني الديمقراطي برئاسة كامل الجادرجي، وحزب الجبهة الشعبية المتحدة برئاسة الشيخ محمد رضا الشيبلي^(٣).

ولدى تشكيل نوري السعيد وزارته الثانية عشرة في ١٩٥٤/٣/٣ م شعرت «الجبهة الشعبية المتحدة» بأن بعض الأعضاء يحاول التخلص من العمل

(١) محاضر مجلس النواب العراقي / لسنة ١٩٥٣ / ص ١٠١.

(٢) عبدالرزاق الحسيني / تاريخ الوزارات العراقية ٩/ ٤٢.

(٣) نق: صوت الأهالي + نواء الاستقلال + جريدة الزمان / الأعداد الصادرة ٤ / مارس / ١٩٥٤.

الحزبي الملتزم، ويفضّل السير بركاب السلطة، فعطلّ الشبيبي الجبهة بالبيان الآتي: «عقدت الهيئة الإدارية للجبهة سلسلة اجتماعات برئاسة معالي الشيخ محمد رضا الشبيبي، وبعد المداولة في الوضع السياسي قررت:

١- وقف أعمال الحزب، وتعطيل نشاطه إلى إشعار آخر.

٢- يكون الاشراف في الانتخابات على مسؤولية العضو الشخصية^(١).

ولدى الاعتداء الثلاثي على مصر في ٢٩/تشرين الأول/١٩٥٦م، استنكر الشبيبي مع فريق كبير من قادة الأحزاب والمعارضة سياسة نوري السعيد ضد مصر، واعتبرت المعارضة حلف بغداد أخطر أسباب الفرقة بين العرب، وذلك في مذكرة شديدة اللهجة قدمت للملك في ٣٠/تشرين الثاني/١٩٥٦م^(٢).

ولدى اعتقال حكومة نوري السعيد كوكبة لامعة من أساتذة الجامعة والسياسيين وقادة الفكر لاحتجاجهم على سياسة الحكومة إزاء العدوان، استنكر رؤساء الوزارات السابقون، والأعيان، والنواب، وممثلو الأحزاب سياسة الدولة، وكان الشبيبي في طليعتهم في مذكرة رفعت للملك في ٢/كانون الأول/١٩٥٦م^(٣).

وحينما تفاقمت الأوضاع في العراق سياسياً واقتصادياً وإدارياً، أطلق الشبيبي صرخته المدوية في آخر جلسات مجلس الأعيان عام ١٩٥٨م قائلاً: «لم يبق للعراق إلا الله فيلإي الله نشكو» فضحت محافل العراق أجمع بهذه الصراحة، وأعلن مقاطعته للمجلس والحكومة هائياً كما هو مشهور. ولدى تدهور المناخ السياسي والمدّ الفوضوي في العراق عام ١٩٥٩م، حدثني الشبيبي نفسه: أن نوري السعيد قصده ليلاً إلى داره بعد قراره الحاسم في مقاطعة الحكومة، فقال له نوري السعيد: أنت قاطعت الحكومة في كل شيء، ولكن سيأتي اليوم الذي

(١) ظ: عبدالرزاق الحسيني / تاريخ الوزارات العراقية ١٤١/٩.

(٢) ظ: عبدالرزاق الحسيني / تاريخ الوزارات العراقية ١٢٦/١٠-١٣٠.

(٣) ظ: نص المذكرة في تاريخ الوزارات العراقية ١٢٦/١٠-١٣٧.

نقول فيه: رحم الله نوري السعيد!! فإذا جاء ذلك اليوم فقل ذلك. قال الشبيبي: واليوم أقول رحم الله نوري السعيد!!

وهكذا قضى الشبيبي حقبة سياسية ملتهبة في الأحداث الكبيرة امتدت أربعين عاماً، تحمل فيها أعباء أداء الرسالة الوطنية، وكابد كثيراً من الآلام والأزمات النفسية، حتى نهاية العهد الملكي بثورة ١٤/تموز/١٩٥٨م.

الشبيبي في العهد الجمهوري:

استولى الجيش العراقي بعد الرابع عشر من تموز على مقاليد الحكم في العراق برئاسة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم وفريق من الضباط الكبار والصغار، وأشرك بعض ممثلي الأحزاب السياسية وبعض اليساريين في الوزارة التي شكلها، وما لبث القوميون أن استقالوا من مقاعدهم الوزارية وهم ستة بعد ستة شهور، لاعتقادهم بانحراف الثورة عن أهدافها. وكان هناك مجلس للسيادة مكون من رئيس وعضوين، وهم:

١- الفريق الركن محمد نجيب الربيعي.. رئيساً

٢- الشيخ محمد مهدي كبة.. عضواً

٣- السيد مصلح النقشبندي.. عضواً

وكان هذا الإسناد نابعاً من محاولة تمثيل أطراف الشعب العراقي عرباً وأكراداً وسنة وشيعة، فالربيعي سني معتدل، وكبة شيعي قومي في أقصى درجات الاعتدال، والنقشبندي سني كردي يتعامل على أساس قوميته لا طائفته.

وما لبث الأستاذ محمد مهدي كبة رئيس حزب الاستقلال في العراق أن استقال من منصبه تضامناً مع القوميون المستقلين.

كان هذا المجلس أعلى سلطة في البلاد اسماً، أما الواقع المعاصر فإن عبد الكريم قاسم قد تولى قيادة البلاد، وترأس الحكومة والدولة.

كان الشبيبي لدى قيام الثورة في السبعين من عمره، وهو فنيٌّ في شبابه وعنفوان كهولته، كما هو فنيٌّ في شيخوخته الموقرة، وقد عزف في هذه الحقبة عن العمل السياسي واتجه للمناخ الثقافي والحياة الجمعية، فهو عضو في الجامع العلمية في القاهرة ودمشق وعمّان، وهو عضو في المجمع العلمي العراقي، ورئيس له في عدة دورات.

وكان يلبى عدوات الجامع العلمية في الوطن العربي، ويلبي دعوات المؤتمرات الثقافية الخاصة، ويشارك فيها مشاركة فاعلة، كما كتب الشبيبي مقالات ممتعة للمجلات والجرائد العربية في شتى الموضوعات الأدبية، وكان له ولع خاص في تاريخ النحف الأشرف فكتب عنه ما شاء، وأصدر عدة كتب متميزة منها «مؤرخ العراق ابن الفوطي» و«أدب المغاربة والأندلسيين» وسواهما.

وللتاريخ فقد دعي الأستاذ الشبيبي لاحتفالات «جامعة القرويين» في المغرب، ممثلاً للعراق لإلقاء بعض المحاضرات والبحوث، وكنستُ في توديعه واستقباله، ولدى عودته ارتجلت هذه الأبيات:

سما في مشرق الدنيا وحلّى	مقرها فني الوطن الحبيب
وزار المغرب الأقصى.. فأصفتُ	له أسماء مختلف الشعوب
كأنك إذ وقفتُ بهم خطيباً	تقيسُ القول بالنظر المصيب
كمي شقّ مدرجة المعالي	وهبَ يصدّ عادية الخطوب
أنابغة العراق.. لقد تعالي	صداك.. وحلّ وعياً في القلوب
ورأي العقبري إذا تسامى	كسيفٍ العسكري لدى الحروب
ولا عجب -أبا الأجيال- يقى	إذا ماجئت بالعجب العجيب
يقول الناس: نابغة جريء،	وقد صدقوا: فأنت: رضا الشبيبي

فشكر ذلك الشبيبي مغتبطاً على عاداته في بسماته وسمته الرائع، وكان ذلك

في ١١/١/١٩٦٠م.

واستمر الشبيبي في ديوانه العامر يستقبل معارفه وأصدقائه صباح كل جمعة من الأسبوع، وديوانه هذا محفل أدبي وعلمي وسياسي وفكاهي من نوع رابع، فهو مدرسة سيطرة للمعرفة الإنسانية، ومنتعة نادرة للترفيه النفسي، تبحث فيه المسألة العلمية، وتذكر الطرفة الأدبية، وتعالج القضية السياسية، وفيه الدعابة المترنة، والتعليق الهادفة، والفكاهة الرقيقة، وكان حضاره سياسيو العراق المحضرمون والمحدثون، وأدباء الجيل الشيوخ والشباب، وقادة الفكر، وكنت من المواظين فيه، أتلقى وأستمع، ولا أتحدث إلا قليلاً، وقد يطلب إلي الشبيبي قراءة ما استجد من الشعر فأقرأ. وفي هذا الديوان تعرفت على طائفة كبيرة من السياسيين والمفكرين، وما زالت ذكرياته تتراءى حية نابضة، وبالرغم من مرور أكثر من أربعين عاماً على ذكرياته فما زالت أحسن لها حيناً شجياً يأخذ بمجامع الجوانح والأحاسيس، ويمتلك العواطف والمشاعر.

وكان الشبيبي في مجلسه هذا كثيراً ما يعالج أوضاع العراق من خلال التوجيه والنصح الكرم، وقد يستطلع بعض المسؤولين -على قلتهم- ومنهم الزعيم عبد الكريم قاسم -رأيه ي بعض الشؤون فلا يخجل بإبداء الرأي السديد والواقع الصريح.

وكان الحكم قد استولى عليه العسكريون فوجاً بعد فوج، ورعيلاً إثر رعييل في اتجاهات شعبية أو عربية أو يسارية، ولم يكن منطلقهم يحفل بالاستنتاج أو الشورى، بل هو منطلق القوة العسكرية في نداءياته وإفرازاته الفجة، فوصلت الحال إلى هوة سحيقة لا يصح معها الصمت، ولا يحمده السكوت، فعمدت المهرجانات والاحتفالات في كل من النحف الأشرف وكربلاء وبغداد والكاظمية -وقد شارك الشبيبي في قسم منها- والحلة والبصرة والديوانية وبقية قصبات العراق تفصح عن لاكلمة الصادقة، وتجأر بالصرخة المدوية استككاراً لمظاهر الطائفية والإقليمية، وكان لها مخططون يتلقون تعليماتهم من الصهيونية والماسونية العالمية.

ولم يحفل الساسة العسكريون ببناء المخلصين من أبناء العراق، حتى إذا شكلت أول رئاسة حكم مدنية بقيادة الدكتور عبد الرحمن اليزاز، وهو مثقف عصري، وقانوني بارع، وقومي معروف وجه إليه الشبيبي مذكرة سياسية شاملة، كانت فيها الحلول لكثير من مشكلات البلد لو استمع إليها، ولم يستطع اليزاز إحداث أي تغيير سوى فرضه بعض وزراء الشيعة في التشكيلة الوزارية، فالرئيس عبد السلام عارف رئيس الدولة، وهو ذو سياسة طائشة عمقت مفاهيم الطائفية والإقليمية، ولكن المخاطب اليزاز في المذكرة.

مذكرة الشبيبي لرئيس الوزراء^(١):

السيد رئيس الوزراء/ الدكتور عبد الرحمن اليزاز المحترم

يسعدني أن أشير إلى محادثتنا التلفونية الموحزة غداة اضطلاعكم بأعباء المسؤولية، وما تضمنته من التمنيات الطيبة لكم بالتوفيق، وبطيب لي كذلك أن أعزز ذلك الحديث، بهذه المذكرة الموضحة لطائفة من القضايا والمشكلات الخطيرة التي تواجهها البلاد، راجين أن بحالفكم التوفيق في درسها فقرة فقرة، تمهيداً للأخذ بمضامينها قدر الإمكان، ومما شجع على تقديم هذه المذكرة في هذا الظرف بالذات أن رئاسة الحكومة يشغلها أحد رجال القانون، وتلك

(١) كتب الدكتور سعيد السامرائي في مقدمة ذكره للمذكرة مايلي: بعث الشيخ محمد رضا الشبيبي في ٢٨/١٠/١٩٦٥م، بمذكرة إلى عبدالرحمن اليزاز رئيس الوزراء في عهد الرئيس عبدالسلام عارف، الذي كان معروفاً بطائفيته الشديدة، والتي كانت تعبيراً عن مظلمة الأغلبية الشيعية في العراق، ولكن القضاء عاجل الشيخ الشبيبي فتويع بعد شهر من تقديم المذكرة، وبعد عودته من فلسطين حيث ذهب لحضور احتفالات المعراج في القدس الشريف.

وكما في ميثاق النجف، فإن مذكرة الشبيبي علاوة على تبنيها على سياسة التفرقة الطائفية التي تنتهجها الدولة، والتي زادت في عهد عبدالسلام عارف، تضمنت أموراً عامة، بل أحاطت إحاطة تكاد تكون شاملة، بالشؤون الزراعية والإدارية والنفطية والمهنية والسياسية، وكذلك موضوع الوحدة العربية.

ط: سعيد السامرائي/ الطائفية في العراق - الواقع والحل/ المرحق/ ٢٩٩.

لندن/ مؤسسة الفجر/ ١٤٢٢هـ - ١٩٢٢م.

خطوة حسنة، وأحسن منها أن يكون المسؤول ذا سند شعبي مثير، وهو أمر يساورنا الشك فيه الآن.

كان الشعور الوطني في العراق يتجلى بالغيرة الوطنية والحب العميق لأرض الآباء الأجداد، وكان هذا الشعور الحافظ الأول لصيانة وحدة البلاد، ولكن الأحداث والكوارث التي حلت بها نتيجة تصارع الأهواء وتشجيع التفرقة عصفت بهذا الشعور النبيل وأقصته على أبعاد وأعماق سحيقة، يخشى أن تتيح للأجنبي المتربص الفرصة للنيل من وحدتنا الوطنية المقدسة، ولم يعد خافياً على أحد أن البلاد العراقية تحتاز في ظروفها الحالية مرحلة لا تحسد عليها من مراحل حياتها، وكيف تحسد على مراحل موسومة بكثرة مخاوفها ومشكلاتها، وما يتخللها من شكوك واحتمالات، وقد نسي لي أخيراً أن أتصل بمجمهرة من أبناء البلاد، وأن ألمس مواقع الألم منهم والإحساس بما يخالجهم من سخط وتذمر، ويف وسعي، بل أرى من واجبي، أن أسجل ملخصاً مظاهر ذلك في الفقرات التالية:

١- جاء على لسان السيد رئيس الوزراء في مؤتمره الصحفي قوله: إن الحكومة عازمة على إعادة الحياة الدستورية للبلاد، وإجراء انتخابات حرة، وبهذا كما لا يخفى ستنتهي الفقرة الانتقالية، وتستقر الأوضاع في البلاد، ويمكن الشعب من ممارسة حقه القانوني في انتخاب من يراه صالحاً لإدارة البلاد وتحمل مسؤولياتها الجسام.

وإننا نؤكد على ضرورة القيام عاجلاً بوضع أسس قانون الانتخابات العامة وعرضها على الشعب ليبين رأيه فيها، حتى تتم الانتخابات المباشرة خلال فترتها المحددة في الدستور المؤقت، على أن يجري ذلك بإشراف سلطة معروفة بالحياد والاستقامة، سلطة تضمن للجمهور حرية الصحافة والرأي والتعبير.

٢- تناول السيد رئيس الوزراء في مؤتمره الصحفي موضوع الوحدة العربية والاتحاد، وأجاب عن التساؤلات الكبيرة التي أثيرت حول تصريحاته، وفي رأينا أنه مهما كانت اتجاهاتنا السياسية والاجتماعية في القضايا العربية فإن الوحدة الجغرافية ووحدة التاريخ والمصير قادرة في الوقت الحاضر على أن تخلق بيننا وحدة عمل، نواجه بها التحديات والمخاطر، إن الوحدة العربية في رأينا هدف يتم باستفتاء الشعب عليه، وأن التضامن العربي وسيلة لحمايته.

٣- ما انفك حكم العراق في عصرنا هذا بالذات مشرباً بالأهواء والأغراض، وإن كانت تلك الأغراض مقنعة أو مغلفة بألفاظ خلابة، ولم يكن الطعن في الحكم المذكور سهلاً، لأنه في ظاهره مستمد من مبادئ بنيت عليها القوانين المرعية، وقد اعتبرت الطائفية بموجب هذه القوانين جريمة تعاقب عليها. ولكن العبرة ليست بالألفاظ المجردة والتشريعات المقنعة، بل بالتطبيق السليم والإدراك الصائب لروح تلك القوانين، ولم تكن التفرقة الطائفية مشكلة سافرة من مشاكل الحكم كما هي اليوم، ولم تكن مصدراً باعثاً على الفلج المستحوذ على الشعب طالما استتكرت التفرقة وكافحتها وطالبت بالإقلاع عن هذا الأسلوب المحقوت، وطالما تنادى المخلصون باتباع نهج آخر تراعي فيها المساواة المطلقة التي أكدت عليها الشرائع السماوية والقوانين الوضعية.

الانتفاض على سياسة التفرقة:

ومن الواضح أن الشعب العراقي انتفض أكثر من مرة على سياسة التفرقة الرعناء، وعمل منذ ثورته الأولى عام ١٩٢٠ على إقامة حكم وطني ديمقراطي، يسهم بإقامته وينعم في خيراته أبناء الشعب كافة، لا يفرقهم عنصر أو دين أو مذهب. وقد بارك الشعب ثورة الرابع عشر من تموز وعلق عليها آمالاً كبيرة، وتوقع المخلصون أن تستأصل جذور النعرات المفرقة باستتصال قواعد الاستعمار وركائزه. غير أن الأحداث الأخيرة برهنت مع بالغ الأسف على انبعثت روح التفرقة بشكل أشد وأعنف من ذي قبل بكثير.

ولانذيع سراً إذا قلنا أن كثرة الشعب ساحطة جداً من جراء ذلك، وأنها تعتر كرامتها مهانة وحقوقها مهضومة، ولاسيما وقد رافق ذلك سوء اختيار بعض من يمثلونها في جهاز الحكم. وإذا إن من الممكن أن تغض هذه الكثرة الشعبية نظرها عن بعض حقوقها في وظائف الدولة، وترك شبابها المثقف من حملة الشهادات العالية وغيرهم دون عمل، وإذا كان من الممكن أيضاً أن تغض هذه الكثرة النظر عن التقصير المتعمد في إنعاش مرافقها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وإذا كان من الجائز أن تغض نظرها عن مواقفها المشرفة في الجهاد والتضحية، فإنها لايسعها غض النظر عن التعريض بعروبيتها وأصالتها وكرامتها وإخلاصها للوطن وللدولة التي أقامتها على جماجم شهدائها الأبرار. ذلك التعريض المثير الذي يلوح به بعض المسؤولين والصحف الأحريرة.

هذا ومادامت الحكومة الحاضرة قد أعلنت عن التزامها الصراحة في القول وتصحيح الأوضاع المنحرفة، بادرنا تذكيرها بهذه الحقيقة، إذ ليست الدولة وأجهزتها ووظائفها ومجالات العمل فيها وفقاً على طائفة من دون أخرى، إنما توزع واجيالها حسب الكفاية. ولعل نظرة فاحصة إلى الدواوين الكبيرة في الدولة ومن يشغلها تكفي دلالة على سياسة محاباة، خصوصاً وأن كثيراً من المقربين محرومون غالباً من المؤهلات والكفايات والإخلاص.

٤ - لاشك أن صيانة الوحدة الوطنية وحقق الدماء وإعادة الطمأنينة والسلام إلى ربوعنا في الشمال العزيز يتطلب منا درساً دقيقاً للقضية الكردية التي طال عليها الأمد. ولما كان العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن يتقاسمون غرمه وغنمه، فإننا نرى أن لإخواننا الأكراد حقاً في التمتع بحقوقهم المشروعة، وذلك عملاً بالإدارة اللامركزية ضمن الوحدة العراقية. هذا الأساس الذي يقضي ضرورة الأخذ به أسلوباً للحكم في العراق من الناحية الإدارية.

٥- تعرضت النقابات في العراق لمختلف أوجه الضغط السياسي، الأمر الذي صرفها عن خدمة منتسبيها في حدود صلاحياتها وأغراضها المهنية. كما تحملت الفئات العاملة تبعات ذلك ففصل وسجن كثير منهم، وحرمت عوائل من مصادر عيشها. لذلك وجب على الحكومة أن تعيد النظر في أحكام قانون العمل، آخذت بنظر الاعتبار الأخطار التي ظهرت لدى تطبيق القانون المذكور، وأن تفسح المجال لقيام نقابات مهنية تراعي مصالح المنتسبين إليها رعاية حقة.

٦- لا تريد الدخول في جدل عن الاشتراكية من حيث كونها صالحة أو غير صالحة للعراق، ولكننا نكتفي بالرجوع إلى حقائق الأشياء، وبما حصل فعلاً من نتائج ليصدر الحكم مبنياً على الواقع دون الخيال، فعند تطبيق القرارات الاشتراكية في ١٤ تموز ١٩٦٤م نلاحظ أن أوضاع العراق المالية والاقتصادية تزداد تخبثاً وارتباكاً: زيادة في البطالة وقلة في الإنتاج وتبديراً في أموال الدولة وتهريباً لرؤوس الأموال الوطنية وعجزاً في الموازنة.

لقد أشار السيد رئيس الوزراء إلى طبيعة هذه الاشتراكية بقوله في مؤتمره الصحفي: «إن هذه الاشتراكية لم تغير في الوضع الاقتصادي والاجتماعي في البلاد بقدر ما تحسنت أحوال طبقة معينة من الموظفين والمتفيعين على حساب الآخرين».

إننا نؤمن بأن الديمقراطية الاقتصادية هي النظام الذي يلائم ظروفنا وحاجتنا، وإننا نؤمن بالعدالة الاجتماعية، ونعتبر الفروق الاقتصادية في مجتمعنا حرقاً لقواعد هذه العدالة، فلماذا يمكن العمل على تقليل هذه الفروق عن طريق توزيع الضرائب، وزيادة مكاسب الطبقة العاملة، ووضع خطة شاملة للتنمية الاقتصادية وزيادة الدخل العام.

إننا نطالب الحكومة بتدارك ما أدت إليه تلك السياسة المرتجلة من بطالة، وذلك بإيجاد عمل للعاملين يكفل لهم مستوى من المعيشة يتلائم وكرامة الإنسان. كما نطلب إعادة النظر في الأوضاع الاقتصادية مع تعيين مجالات

القطاع العام والقطاع الخاص لكي ينصرف المواطنون إلى مزاولة أعمالهم بحرية تامة واطمئنان كامل.

القطاع الزراعي:

إن القطاع الزراعي في العراق يمثل مصدراً أساسياً من مصادر الثروة العامة. ولقد ظهرت في قانون الإصلاح الزراعي أخطاء أدت إلى تخلف الزراعة. ولهذا نطلب إعادة النظر في أسس القانون المذكور وذلك في ضوء الأخطاء التي ظهرت في مرحلة التطبيق. وندعو للعمل على تطوير شؤون الكراعة وحماية الإنتاج وتحديد واجبات الزراع والعمل على تعويض المستولي على أراضيهم ومنهم أصحاب حق الزمة، إذ أننا لانقر مبدأ المصادرة مطلقاً.

ونطالب بإعادة النظر في موضوع الضرائب خاصة ضريبة الدخل وضريبة الشركات والتعديلات التي جرت عليها أخيراً، ونحث على دراسة علمية مبنية على التجارب التي مرّت بها تلك القوانين لدى التطبيق، ونطالب بإعادة النظر في القوانين الأخرى التي شرّعت في ظروف مستعجلة، فجاهت مخالفة لأحكام شريعتنا الإسلامية، وغير ملائمة لأوضاعنا وتقاليدنا الاجتماعية. إن الشريعة الإسلامية هي الأساس الراسخ الذي يقوم التشريع عليه، وإن أي قانون أو نظام يتعارض معها يعتبر تحدياً لشعور الأمة وعقيدتها الراسخة.

٧- لاتزال مفاوضات النفط بين الحكومة العراقية والشركات العاملة في العراق طي الكتمان ولم تعرف تفاصيلها بعد. ومع تقديرنا للجهود التي تبذل لاستخلاص حقوق العراق من الشركات الأجنبية، إلا أننا نرى في القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٦٣م^(١) مكسباً وطنياً يلزم الحفاظ عليه، لذلك نحب بالسلطة أن تعرض نتيجة المفاوضات قبل الالتزام على ممثلي الشعب حين تعود الحياة الدستورية إلى البلاد ليقول الشعب كلمته بها.

(١) وهو القانون الذي أصدرته الحكومة العراقية آخر عهد عبدالكريم قاسم.

٨- كان الهدف الأساسي في تكوين الاتحاد الإشتراكي العربي في العراق أن يضم منتسبي النقابات ومختلف الفئات العاملة، غير أن هذه المنظمة لم يحالفها التوفيق على الرغم من إسناد السلطة لها مادياً ومعنوياً. ذلك لأن الأهواء تنازعتها منذ البداية، يضاف إلى ذلك منهجاً للحكم في البلاد. ولهذا نطالب بأن تبادر الحكومة إلى تعديل القانون الذي قامت بموجبه هذه المنظمة لتمكين الفئات الوطنية التي تستعد آراءها من صميم هذا البلد من ممارسة نشاطها السياسي.

هذا وقاءً منا لأمتنا ووطننا وقياماً بالواجب المفروض علينا، وإبراءً لذمتنا بادرنا إلى بيان أهم مشاكل الساعة التي تحتاج أفكار الجمهور مؤملين أن تعنوا بدراستها وبذل الجهود في سبيل الوصول إلى الحلول السليمة للمشاكل المذكورة كافة. وختاماً نبتهل إلى الله العليّ القدير أن يسدّد خطانا جميعاً إنه وليّ التوفيق.

محمد رضا الشبيبي

الشبيبي وافتتاح مؤتمر الجامع العلمية في بغداد:

كان الشبيبي رئيساً للمجمع العلمي العراقي، وقد نأى به عن التأثير السياسي، وأبقاه منيراً حراً للعربية في شؤونها اللغوية والعلمية بعيداً عن المؤثرات الخارجية، ولما كان الشبيبي من دعاة الوحدة العربية منذ صباه وحتى شيخوخته المباركة، فهو القائل عام ١٩٢٠م أي قبل ولادة دعاة الوحدة العربية:

كونوا الوحدة لا تفسخها نزعات الفكر والمعتقد
أنا بايعتُ علي أن لأرى فرقة.. هاكم علي هذا يدي^(١)

(١) محمد رضا الشبيبي / ديوان الشبيبي / ٨١ نشر جمعية الرابطة العلمية الأدبية في النجف الأشرف / دار النشر والتأليف والترجمة / القاهرة / ١٩٤٠م.

فقد دعا إلى عقد مؤتمر إتحاد الجامعات العلمية في الوطن العربي في بغداد في تشرين الثاني/ ١٩٦٥م، ووجهت الدعوة على أبرز أعضاء الجامعات اللغوية والعربية في البلاد العربية لحضور المؤتمر المذكور، وكانت الدعوة باسمه باعتباره رئيساً للمجمع العراقي، فليت الدعوة، وأشعر المجمع بأسماء أعضاء الجامعات الذين سيحضرون المؤتمر ببغداد.

وكان العقيد الركن عبد السلام محمد عارف رئيساً للجمهورية، فطلب أن يفتح المؤتمر باعتباره رأس الدولة، فرفض ذلك الشبي، وقال: إن المؤتمر مؤتمر علمي وليس مؤتمراً سياسياً، وإذا كان كذلك وهو كذلك، فأنا الذي أفتتح المؤتمر لأمرين: الأول؛ أني دعوت هؤلاء العلماء، وهم سيقدمون تلبيةً لدعوي شخصياً، والثاني؛ أني رئيس المجمع العلمي، ولما كان المؤتمر علمياً فأنا أفتحه لأرئيس الجمهورية.

وأصر عبد السلام على افتتاح المؤتمر، وأصر الشبي على رفض ذلك، ووقع أعضاء المجمع في حرج من أمرهم، فهم يحترمون الشبي احتراماً كبيراً، وهم يحاولون بحاملة رئيس الجمهورية لأن بعضهم وزراء عنده وإداريون في أجهزة النظام الحاكم.

وكان الشيخ الشبي قد تلقى دعوةً ملحةً من هيئة المهرجان العالمي في القدس الشريف للاحتفاء بالإسراء وبمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على المبعث النبوي، في التاريخ الذي سينعقد فيه المؤتمر، فأراد كسر هذا الإحراج لعلمه بأن عبد السلام أحق فقد يلغي مؤتمر الجامعة العلمية، وهو لقد عقد بافتتاح رئيس الجمهورية له فسوف لا يحضر، إذن فليغادر العراق إلى مؤتمر القدس ومهرجانه الذي عقد برئاسته أيضاً. وغادر بغداد في ٢٠/١١/١٩٦٥م وانتهت أعمال مهرجان القدس بانتهاء أعمال مؤتمر بغداد، فعاد إلى بغداد مساء يوم الخميس ٢٥/١١/١٩٦٠م، وكان في استقباله في مطار بغداد الدولي، جمهور كبير من

السياسيين وعلماء بغداد والكاظمية وأساتذة جامعة بغداد، وكوكبة من الشعراء والأدباء والمثقفين، وجملة من العمال والطلبة وسائر الطبقات الشعبية بما تجاوز الألف من الرجال، وقد حفّ به هؤلاء جميعاً مرحّبين ومستقبّلين، وكان الشيبّي دمث الأخلاق، رحيب الصدر، طيب المحاملة، وقد صافحوه فرداً فرداً، ورحّب بهم فرداً فرداً، وشكر المعينين بتهيأة الاستقبال في المطار، وتمنّى للجميع السعادة في ظل وطنٍ ينعم بالحرية والعدالة والاستقلال، وقد أثر هذا الجهد صحياً عليه، فهو في السابعة والسبعين من عمره، ولكنه لم يظهر ذلك أبداً.

وكانت مقاطعة مؤتمر الجامع العلمية من قبل الشيبّي لتدخل رئيس الجمهورية في شؤونه آخر صفحة من نضاله السياسي والوطني.

وفاة الشيبّي وتشيعه:

ومن مطار بغداد ذهب الشيخ الشيبّي إلى داره في الساعة العاشرة مساءً، وبعد منتصف الليل من ليلة وصوله شعر الشيبّي بأوجاع في الصدر وخفقان في القلب، وكان إلى جنبه ولده الدكتور أكرم الشيبّي فأسعفه بما تيسّر له، وحاول نقله إلى المستشفى فأبى الشيخ ذلك، وما لبث أن لبى نداء ربّه فقارق الحياة عند طلوع الشمس يوم الجمعة في داره بالزوية من الكرادة الشرقية ببغداد في ٢/شعبان/١٣٨٥هـ - ٢٦/١١/١٩٦٥م.

وأحطنا خيراً بالنبا المفجع، واتصلت بوزارة الإعلام وبالإذاعة والتلفزيون العراقي، فتلكأوا بادئ الأمر، وأذيع النبا متأخراً بعد أن تجمعت عشرات الآلاف من الجماهير قرب داره، وقد مثلوا شرائح الشعب كافة، وحمل النعش ووراءه مئات السيارات الخاصة محترفاً شوارع الكرادة فالباب الشرقي عبوراً إلى الكرخ مروراً بدار الإذاعة والتلفزيون فالمتحف العراقي وباتجاه الطريق العام حتى جسر الحرّ فأم الطبول، حيث وُدِع من قبل جمهور من المشيعين العائدين

من الشيوخ والمرضى وذوي الأعداء، وعدها رافق الجثمان إلى النحف الأشرف أكثر من ألف سيارة، وكانت القصبات التي يمرّ عليها الجثمان قد انتشر فيها آلاف الأعلام السوداء، ولافتات التعمي الحزين المؤثر، وكان ذلك تعبيراً عملياً يستدل به على مدى القاعدة الشعبية الكبرى التي يتمتع بولائها الشيخ الشبيبي باعتباره زعيماً وطنياً متميزاً، يمثل أطراف الشعب العراقي بمختلف اتجاهاته.

وفي صباح السبت ٣/شعبان/١٣٨٥هـ — = ٢٧/١١/١٩٦٥م جرى للفقيه العظيم في النحف الأشرف تشييع حافل بمئات الآلاف من المشيعين الذين انضمت لهم عشائر القرى الأوسط، حيث أغلقت الأسواق وعطلت المدارس والمعاهد الرسمية والدينية.

وفي الصحن الحيدري الشريف أدي عليه الصلاة الإمام السيد محسن الحكيم قدس سره، ومن خلفه العلماء الأعلام، ثم تبارى الشعراء والخطباء في تأبين الفقيه، والنعش أمامهم، والجماهر الغاضبة حولهم، وبحضور الإمام الحكيم، وقد ألقى قصائد رقيقة ذات نبرات حزينة كل من:

- ١- الشيخ عبد المنعم الفرطوسي.
- ٢- الدكتور مصطفى جمال الدين.
- ٣- الدكتور أحمد الوائلي.
- ٤- الدكتور داود العطار.
- ٥- محمد حسين علي الصغير كاتب هذه السطور، وقد ألقى قصيدة مؤثرة بحمسين بيتاً، مطلعها:

أحسرت صائبَ منطقي وبياني وعقدت في ألم المصابِ لساني
وقد أردفتها بخطاب ارتجالي مسهب في عشرين دقيقة سلطت فيه الضوء على
أوضاع العراق السياسية والطائفية والاجتماعية التي دعت إلى عزل الدولة عن
الشعب، واضطرت الشبيبي نفسه إلى تقديم مذكرته السابقة إلى رئيس الوزراء.

وقد أدى كل من القصيدة والخطاب إلى اعتقال في اليوم الثاني في مديرية الأمن العامة ببغداد، وأسفر ذلك الاعتقال عن غضب جماهيري بالغ، واحتجاج سياسي هائل من قبل القادة والسياسيين أفرج على أثره عن كاتب السطور، على أن يقدم للمحاكمة.. ولم يقدم، بقرار من الدكتور عيد الرحمن البزاز رئيس الوزراء الآخر بالاعتقال والإفراج.

وبعد مراسم الزيارة لحرم أمير المؤمنين (عليه السلام)، سار المشيِّعون بالجثمان الطاهر نحو دار الشيخ الشبيبي التي ولد فيها في النجف الأشرف في أول السوق الكبير مما يلي الميدان في الرقاق الذي سمي فيما بعد بـ«شارع الشبيبي» ودفن إلى جنب والده الشيخ الجواد وأخيه الشيخ محمد باقر الشبيبي، وبقية أفراد الأسرة.

وأقيمت في أغلب مدن العراق الفوائح الضخمة على روح الفقيد وقد تجاوزت المائة، وقد أقيمت فيها مئات القصائد والمحاضرات والبحوث في تأبين الفقيد.

تأبين الشبيبي وأربعينه:

تشكلت لجنة مؤهلة تضم أربعين شخصية عراقية تمثل أطراف الشعب العراقي لإقامة حفل تأبيني مهيب يتناسب مع العمق الوطني الذي يحظى به الشيخ الشبيبي، فكان ذلك، إذ قررت اللجنة إقامة الاحتفال في ذكرى أربعين الشبيبي بجامع براتا ببغداد، فأقيم ذلك الحفل التاريخي الكبير في ٢٠/شوال/١٣٨٥هـ = ١١/شباط/١٩٦٦م. وحضر الحفل أكثر من ثلاثة آلاف عراقي وعربي، إذ عدد الكراسي المصفوفة كان ثلاثة آلاف كرسي، عدا الوقوف ورجال الاستقبال والتشريفات والتوديع، وقد شارك فيه أديباً أعلام الأمة وقادة الفكر وشعراء العراق، وكوكبة من الوطن العربي في طليعتهم عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين رئيس المجمع اللغوي في القاهرة، وممثلون عن المجمع العلمية، وأساتذة

الجامعة العريقة، وكان الشعر العراقي متميزاً في مهرجان التأبين، وشارك فيه إننا عشر شاعراً، وكانت القصائد تناول جهاد الفقيد في سبيل تكوين الدولة العراقية، ومآثره العلمية والأدبية والتأليفية، وقيادته للشعب العراقي في أحلك الظروف، كما عرضت لمآسي العراق وآلامه في ظل حكم عسكري طائش، وحاربت الإقليمية والطائفية والمحسوبة. وكانت قصيدة كاتب هذه السطور أشدها عنفاً، وأبلغها وقعاً، وأصدقها لمحة ومحاسبة للعهد الحاكم، وأكثرها تأثيراً في العواطف والأحاسيس.

ونضع بين يدي القارئ قصيدة المؤلف مع مقدمتها كما هي في ديوانه المخطوط، وهي جزء لا يتجزأ من كتابة تاريخ العراق الحديث.

* * *

قصيدة المؤلف

في أربعين الشيخ الشيبيني

ألقيت في المهرجان التأبيني الأكبر الذي أقيم في «جامع براتا» ببغداد في ٢٠/١٠/١٣٨٥هـ = ١١/٢/١٩٦٦م بمناسبة أربعين فقيد العراق الزعيم الوطني المحبوب العلامة الشيخ محمد رضا الشيبيني رئيس المجمع العلمي العراقي.

وقد ضم الاحتفال آلاف الشخصيات السياسية العراقية مضافاً لوفود الدول الإسلامية والعربية والهيئات الدبلوماسية الأجنبية والعربية. وقد كان الاحتفال ميداناً تبارى فيه ألمع الشعراء والأدباء من العراق والبلدان العربية، وقد أثارَت القصيدة حماس المحتفلين، وجلبت سخطهم على الحاكمين حتى أنستهم المناسبة فعجوا بالتصفيق والحناف. لم تنشر الصحف والمجلات المعنية القصيدة. واعتقل الشاعر على أثرها في مديرية الأمن العامة ببغداد بقرار من رئيس الوزراء الأستاذ عبد الرحمن البراز..

أطلق الشاعر أثر تدخل العناصر السياسية المخلصة، وبعض الضباط
الأحرار لثورة تموز، تهدأة للهباح الجماهيري العاصف ونزولاً عند
الإمام الواقع.

فيم الوجوم؟ مضي الزعيمُ النيقُدُ
القائد الأحيال لا مترممتُ
والمستقيم.. إذا تنكب رائدُ
والعقري.. إذ استجدَّ جمعُ
والمستعير جهاده وجهوده
ذياك لهج الخالدين.. ونهجهم
نهج به سلك الهداة كرامةُ
فإذا همُ جحدوا حقوقك.. أنما
وإذا رزئنا بافتقارك.. إنه
وإذا تجاهله الطفاة.. فخطبةُ

وعلى يديه من الرسالة مولدُ
عنتاً.. ولا صلف الخطى مترددُ
والمستفيض إذا تعكّر موردُ
والعسكري.. إذا استعدَّ تحشدُ
لحمى العقيدة.. وهو فدُ مغردُ
شرفاً على هام الزمان مخلدُ
وعليه قد سار النبي محمدُ
كالشمس في راد الضحى لا لتحسدُ
شعبٌ يموت.. وأمة بك تفتقدُ
حلل.. تقوم له البلاد وتقعُدُ

الصرُ بعد «أبي سنان» نافذُ
خلت الديار.. وصوحت جنابها
وتنفست رنة الزمان بنكبة
ومحافل الآداب أنكل ربعها
و«المجمع العلمي» شيع رأسه
ومطافح الشعب الجريح تناثرت
فالشعب بعد «أبي سنان» واجمُ
ولقد يعز عليك.. أنك غائبُ

وأرى الحوادث كيدها لا ينفدُ
وترنج الوادي.. وربع المعهدُ
عظمى.. ويفقد إذ يغيب الفرقدُ
و«عكاظ» قوض سوقه و«المربدُ»
فقدت له أعضاؤه تنهدُ
وحداها.. ويومه الضاحي.. غدُ
والأفق بعد «أبي سنان» ملبدُ
عنا.. وأن الطائرات تهددُ

ولقد يعزّ عليك.. أن قيادة
ولقد يعزّ عليّ.. أنك ميّت

شيخ العراق.. لك العراق بشييه
هبّ أنك الرمز الذي لم ينصفوا
جددت عهد المتقذين كرامة
سبعون عاماً في الجهاد قضيتها
لم تستلن عوداً.. ولم تمدد يداً
حرباً على مستعمر.. وقذيفة
ولقد بشيرك ما تفاقم رزؤه
سيرت «تذكرة» لمن لا يرعوي
وإذا التمت بما تقوّل مرحباً
لك من عروبك العريقة محنّ
ومن الضمير نزاهة... ومن الحجى
سيقول عنك الجليل بعد مروره

هزّ النعيّ بك البلاد فأوجفت
أولست أنت لسانها وبنانها
وجوادها السباق وابن «جوادها»
وبحث تصطك الوعي بمحرّب

من القلوب.. وأرجفت من اليد
إما طغى خطب، وسلّ مهند
في حين يُتهم خائراً أو يُنجد
صلب.. ويصمد للردى من يصمد

(١) إشارة للمذكرة التي قدمها الفقيه لرئيس الوزراء الدكتور عبد الرحمن البزاز بتاريخ ١٠/٢٨/١٩٦٥ وقد مثل بها العراقيين في استنكار السياسة الطائفية والإقليمية في العراق.

وروقتَ في الميدانِ وحدك ثابتاً
صلدَ الجنان.. تلفعتك أرومةً
ما دئت منك السياسة جانباً
حتى إذا شق الطريق لنفسه
برز العيد لها.. وثار غبارُهُ
وتحلبت تلك الضروع عصابةً
فإذا الغريب هو الأصل قرابةً

أما الذين تحمّلوا أعباءها
وتحمّوا مضمار كل كربهة
في حين يجتاح الحمى مستعمرٌ
وهم.. وقد حمى الوطيس جواره
فقد انطوت أبحادهم وقد انجلى
وتصافحت تلك الأيادي وارتمى
أرأيت نازلة كهذي عندها
أرأيت كيف تدهورت أوضاعنا
سبحانك اللهم.. تخلق للأبنا
الآن إذ وجه الحقيقة مشرقٌ
يا للفظاعة أي لغز مبهمٌ
«ولقد تكونت سياسة مقصودةً
والدهر يبرق بالخطوب ويرعد^(١)
وتجنّبوا زلل السرى فاستشهدوا
وبحيث يستام الحصى مستعدٌ
وهم.. وقد سر اللعيبُ الموقدُ
سرّ ترصدهُ بغيب موعدُ
الجلب الأشم إذ استطال الغدغدُ
يسبي المفدُ.. ويستتابُ المقعدُ
وطفي بمحتته الزمانُ الأنكدُ
مهجاً.. ويبلغُ أمرهُ المتصيدُ
يدو على القسمات وجه أريدُ
هذا الذي نغماته تنرددُ
(فرّق تسد) إن المفرّق سيّد^(٢)»

(١) المورد عرض موضوعي لما تعرض له الشوار العراقيون من أبطال ثورة العشرين وما بعدها من صنوف الاضطهاد واحتجان الحكم دونهم، وتسليم الإنكليز السلطة لأولئك العملاء الذي سايروهم سرّاً وعلناً.

(٢) البيت لسبيدي الوالد الشيخ علي الصغير رحمه الله.

ووقفت حيث تسعرت أنفاسنا
 أترصد العهد الجديد.. ومعني
 وإذا الحديث كأسه مترئيق
 طوراً يهدد بالجموع.. وتارة
 وإذا به «الحاجام» ثم إذا به
 هو من حربت بلاءه ووباءه
 هو من عرفت بأن ألف مبراً
 هو من مشى بميوله متأرجحاً
 هو ذلك الذئب المغير إذا خلا
 طوراً إلى أقصى اليمين وتارة
 فحذار يا هذي الصقور.. فإنما
 وإذا جهرت بها.. فإن وائق
 سيقول عهد مقبل عن حاضرٍ

ولقد سئمتها عهداً كلما
 وطن يضام.. وأمة مما بها
 حكمت تقوس ضلعها المتأود^(١)
 تكلي.. وشعبٌ واجم مستعبد

(١) في المورد مقارنة دقيقة بين أدوار الحكم العراقي، وتصوير واقعي لشخصية السياسي العراقيين في التغلب والأهواء.. وتحذير للشعب العراقي من الخدع السياسية التي تطفئ على مناخ السياسة في العراق.

(٢) المورد يتحدث عن حالة القطر العراقي في تعاقب الحكومات الجائرة عليه، فالجنوب يتمزق، والشمال يتمرد، والقتال قائم بينهما، فكلاهما أعداء الحكم في نظره، وكان مروان بن الحكم في حرب الجمل يرسي معسكر علي(ع) بسهم، ومعسكر عائشة بسهم، ويقول: أينما أصابت فتح، وينعى الشاعر على الطائفة ومفاهيم الجاهلية ومآسي الاقتصاد ومهازل الاستيراد، ويدعو إلى الانتخابات البرلمانية المعطلة وفي نهاية المورد ضج الحفل بالصحفي المدوي بما قاله أحد الحاضرين «نحن في مهرجان وطني لا نحفل تأبيني».

وبنوه عن أربابهم قد شرّدوا
 فإذا الجواب: عصابةٌ تتمرّدُ
 هذا هذا.. والعدو موحدُ
 فلأنت سهم طائشٌ متعمدُ
 هذا بمطرح.. وذاك مصفدُ
 أما المروءة فهي باب موصدُ
 والمسلمون بغربة قد بقّدوا
 سوق يورر.. وثروة تبددُ
 طاو.. وأن مرقهاً يستوردُ
 قلم الأديب.. وفكره المتجرّدُ
 حكماً بمجلس أمة يتقيّدُ

أن النضال مشاعلٌ تتوقدُ
 فرقاً.. ولا النور المشعشع بمحمدُ
 رمز تحرّ له.. وأنا نسجدُ
 ماءً على مستنقع يتأكسدُ
 مُهَجّ تذبذب.. وأدمع لا تحمدُ
 لا خصبه.. لا زيته.. لا العسجدُ
 هذا الغمام المستفيض المرفدُ
 وقضى على «الإصلاح» فيه المقسدُ
 حقاً.. وثار الألعى الأوجدُ
 تشكرو.. وترتقب الخلاص وتشدُ

أما «الجنوب» فقد تمزّق شمله
 وإذا سألت عن «الشمال» ووضعه
 أما «القتال» ففرضه منرجحُ
 يا «سهم مروان» عليك تحيي
 ماذا يراد بنا وأين مصيرنا
 و«الطائفية» فتحت أبوابها
 و«الجاهلية» قرّبت أبناءها
 وإذا نظرت «الاقتصاد» فإنه
 ومهازل «استيرادنا» أن الملا
 وهناك ما لا يستطيع بيّانه
 ومنى تحمل مشاكل إن لم نجد

يا فتية الوطن المفدى حسيكم
 لا الموت يرقاها.. ولا هي تشي
 لا السجن يرهبها لأن شيوخها
 أيسر كم؟ أنا نعيش كما ارتمى
 أيسر كم؟ أن العراق وأهله
 لا أرضه.. وهي الجنان بأرضه
 لا الراقدين براقديه.. ولا له
 لعب «الدعي» به زماناً طائلاً
 فإذا انتقدت.. تضحمت أوداجهم
 وإذا سكّت.. يلبث فيها أمة

أبدأ عليك.. فأنت أنت المكمّد
 آلامه في مهجتي تتولد
 ومنى عمل من الرقاد الرقّد
 في مأتم.. وترى الغراب يغرّد
 الأوضاع.. وهو الناظم المترصد

وإذا نطقت.. رأيت غورك غاضباً
 «هذا الثلاثي» الذي لما نزل
 فمضى نصح عزيمته وشكيمته
 ومن البلية أن تشاهد بلبلاً
 لم يبق إلا الله... وهو مغر

سبل الرجاء.. فأين أين المنحد؟
 بالنازلات.. وكل قلب مجهد
 والمجد قصر شوطه والسودد
 وبدا من الظلمات غول أدرر
 وبكل فصل للفجائع مشهد
 سن.. وشام العبقريّة أبلد
 بغفو لها طرف، وأخر يرقد
 تلك المملذات التي لا تنقد
 عدلاً.. تضحّر سيد ومسود
 نادى الكتاب بها.. وردد أحمد
 حول الفرات.. متى يحين الموعد؟
 هل في الرميثة ثورة تتحد
 في القلب.. فهو على الأسي يتورد

يا شعب.. قد عمّ البلاء وقطعت
 وآل الزمان.. فكل فكر مثقل
 والوعي بين أصالة وعمالة
 هبت على الأفاق ريح مرة
 فيكل حي للفظائع منظر
 فالحمد للتاريخ حين تبدلت
 هاتيك من آثارنا أسطورة
 فإذا اشتكيت إلى الشيوخ فهمهم
 وإذا طلبت من الذين تزعموا
 لم يبق إلا السيف.. وهو رسالة
 فسل «الفرات» عن الضحايا حمة
 وسل «الرميثة» عن بقايا ثورة
 سبحانك اللهم.. تحتضن الرجا

محمد حسين علي الصغير

فهرست الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
١١	السيد محمد سعيد الحوي... قائداً
١١	١- المولد والنسب والنشأة
١٢	٢- الحوي.. شاعراً
١٤	٣- نموذج من موشحاته
٢٩	٤- دراسته وأساتذته
٣١	٦- الحوي والإحساس الوطني
٣٤	٧- الحوي في جهاد الإنكليز
٤٠	٨- السيد الحوي في جبهة القتال
٤٥	٩- رثاء الحوي وتأينه
٤٦	١٠- قصيدة الشبيبي في رثاء الحوي

٥١	الشيخ محمد الحسين الغروي الثاني.. رائداً
٥١	١- التعريف به ومصادر دراسته
٥٢	٢- نشأة الشيخ الثاني العلمية وأساتذته
٥٦	٣- مرجعته المباركة
٥٧	٤- ظواهر السلوك في شخصية الثاني
٥٨	٥- تلامذة المرزا الثاني
٦٣	٦- نموذج من فتاوى المرزا الثاني
٦٧	٧- مبكرات الشيخ الثاني في علم الأصول
٧٦	٨- حياة الشيخ الثاني السياسية

الصفحة	الموضوع
٨٤	٩- وفاته وتأبينه ومدفنه
٨٦	١٠- قصيدة الأستاذ يعقوبي في رثاء الثاني
٨٨	١١- قصيدة الشيخ علي الصغير في تأبين الثاني

٩٣	الشيخ محمد جواد البلاغي.. مُنظراً
٩٣	١- الشهرة والنسب
٩٣	٢- نشأته العلمية وأساتذته
٩٦	٣- خَلْفُهُ وخَلْفُهُ
٩٦	٤- السيرة العطرة
٩٩	٥- النضال العلمي في مسرة الشيخ البلاغي
١٠٢	٦- مؤلفات الشيخ البلاغي وآثاره
١٠٦	٧- البلاغي في شاعريته القلدة
١٠٧	٨- قصيدة البلاغي في صاحب الأمر
١١٣	٩- وفاته ومدفنه
١١٧	الشيخ عبد الكرم الجزائري.. مجاهداً
١١٧	١- الولادة والنسب
١١٧	٢- أسرة آل الجزائري
١١٨	٣- أساتذته وحياته العلمية
١٢٢	٤- مجزاته وخصائصه
١٢٥	٥- العلامة الجزائري في جهاد الوطني
١٣٤	٦- شاعرية العلامة الجزائري وشعره
١٣٥	٧- نموذج من موشحاته
١٣٧	٨- نماذج من شعره
١٤٠	٩- وفاة العلامة الجزائري وتأبينه
١٤١	١٠- قصيدة المؤلف

١٤٧ السيد حسين الموسوي الحقّامي... حوزوياً
١٤٧ ١- النسب والولادة
١٤٧ ٢- نشأته العلمية
١٤٩ ٣- أساتذته وشيوخه
١٥٠ ٤- خصائص السيد الحقّامي ومميزاته
١٥٢ ٥- السيد الحقّامي في ثغرات من مسيرته العلمية
١٥٤ ٦- مرجعيته الدينية
١٥٧ ٧- تلامذة السيد الحقّامي
١٦٠ ٨- مؤلفات السيد الحقّامي
١٦١ ٩- وفاة السيد الحقّامي وتأبينه
١٦٣ ١٠- قصيدة الأستاذ أحمد الصافي النجفي في تأبينه
١٦٣ ١١- قصيدة الشيخ عبد المهدي مطر في رثائه
١٦٤ ١٢- قصيدة المؤلف في رثاء الإمام الحقّامي
١٧٣ السيد عبد الله الموسوي الشيرازي... جريباً
١٧٣ ١- النشأة الأولى
١٧٤ ٢- الهجرة إلى النجف الأشرف
١٧٥ ٣- أساتذته وشيوخه في النجف الأشرف
١٧٦ ٤- العودة إلى بلاده
١٧٧ ٥- الرجوع ثانية إلى النجف الأشرف
١٧٩ ٦- خصائص السيد الشيرازي المتميزة
١٨١ ٧- الجهاد الديني والنضال السياسي
١٨٢ ٨- مواقف حاسمة
٢٠٣ ٩- مشاريع السيد الشيرازي
٢٠٥ ١٠- هجرة السيد الشيرازي إلى مشهد المقدسة
٢٠٧ ١١- مؤلفات السيد الشيرازي
٢٠٨ ١٢- وفاة السيد الشيرازي

الصفحة	الموضوع
٢١١	السيد محمد الحسيني الشيرازي... موضوعياً
٢١١	١- الاسم والولادة.....
٢١١	٢- تهبه منهجي
٢١٣	٣- النشأة المثالية
٢١٤	٤- خصائص السيد الشيرازي الذاتية.....
٢١٦	٥- عقبات في طريق القيادة
٢١٨	٦- الخطرات الحضارية في مرجعية السيد الشيرازي
٢٢٠	٧- الظواهر الثقافية في مرجعية السيد الشيرازي
٢٢٤	٨- النضال السياسي للسيد الشيرازي.....
٢٢٨	٩- هجرة السيد الشيرازي إلى الكويت
٢٣٠	١٠- هجرة السيد الشيرازي إلى قم المقدسة
٢٣٦	١١- مؤلفات السيد الشيرازي.....
٢٤٠	١٢- وفاة السيد الشيرازي
٢٤٠	١٣- تشييع السيد الشيرازي
٢٤١	١٤- تأبين السيد الشيرازي.....

٢٤٥	الشيخ محمد رضا الشيبلي... وطنياً
٢٤٥	١- الولادة والنشأة الحوزوية
٢٤٦	٢- الشيبلي... وطنياً في شعره:
٢٤٨	آ- رفاء الشهداء
٢٤٩	ب- الشرقى الناهض
٢٥١	ج- رجال الغد
٢٥٣	د- باطل الحمد ومكذوب الثنا
٢٥٤	٣- الشيبلي بين الأتراك والإنكليز
٢٥٦	٤- ثورة على الأتراك
٢٦٠	٥- الجهاد ضد الإنكليز ينطلق من النجف الأشرف

٢٦٤	٦- يوم الشعبية
٢٦٧	٧- ثورة النجف على الإنكليز كما يصورها الشبيبي
٢٦٧	٨- الشبيبي وثورة العشرين
٢٧٤	آ- محاور الثورة
٢٧٦	ب- النجف بطالب بإنشاء حكومة عربية في العراق
٢٧٧	ج- مبادئ ولسن وموقف الشبيبي منها
٢٧٨	د- مكتب القيادة السياسية للثورة برئاسة الشبيبي
٢٧٩	هـ- سفر الشبيبي إلى الحجاز لمقاتحة الشريف حسين بالأمر
٢٨٠	و- الهدف من حمل الشبيبي وثائق النوار إلى الشريف حسين
٢٨٣	ز- فتوى الإمام الشرازي بالدفاع عن بيضة الإسلام
٢٨٤	ح- نتائج الثورة
٢٨٦	٩- الشبيبي في العهد الملكي:
٢٨٧	آ- الشبيبي يستوزر للمعارف خمس مرات
٢٨٨	ب- الشبيبي ينتخب رئيساً لمجلس النواب، ورئيساً لمجلس الأعيان
٢٨٩	ج- الشبيبي في صفوف المعارضة
٢٩٤	١٠- الشبيبي في العهد الجمهوري
٢٩٥	آ- الشبيبي رئيساً للمجمع العلمي
٢٩٥	ب- الشبيبي يتفرغ للحياة العلمية
٢٩٧	١١- مذكرة الشبيبي لرئيس الوزراء الدكتور الزاز
٣٠٣	١٢- الشبيبي وافتتاح مؤتمر الجامع العلمية في بغداد
٣٠٥	١٣- وفاة الشبيبي ونشيعه ومدفنه
٣٠٧	١٤- تأبين الشبيبي وأربعينه
٣٠٨	١٥- قصيدة المؤلف في أربعين الشيخ الشبيبي
٣١٥	فهرست الكتاب